كي لا تضيع النبطية



الجزء الأول

لطفي موسى فــرّان

الفهرس

الإهـــــداء

إلى زوجتي العزيزة الغالية أليـدا
إلى فلذات الكبد: كاتـي ، ميرتـا ، وموسى
إلى روح كل من أحببت
وإلى من كان له الفضل و"طولة" البال لسرده الكثير مما كتبت، العم العزيز الاستاذ:

إبراهيم حيدر فران
أبا تمـام

مع الشكر الجزيل والتقدير للأستاذة السيدة يسرى المقـدم، التي تكرمت واشرفت على التنقيح وتصحيح الاخطاء اللغوية.

مع محبتي لجميع أهالي النبطية وجوارها.

لطفي موسى فـران

(من مجموعة قصاصات كنت ادونها من حين إلى آخر "قبل و بعد فترة" اقامتي في الغابون، وتكرمت السيدة الأستاذة يسرى المقدم، بتنقيحها وتصحيحها في عام 2017)

المقــدمة

سؤال قد يطرحه البعض، ما المقصود من عنوان " كي لا تضيع النبطية".
" كي لا تضيع النبطية " مدونة ذكريات خاصة أحتفظ بها في ذاكرتي ليس إلاَّ. خشية تقلب الايام وعجز ذاكرتي وعندما تضمحل قدرة التذكر.
فالنبطية لا ولن تضيع كبلدة و مركز قضاء و مركز محافظة، هي الأرض وناسها والحياة مستمرة تتغير وتتحول، ولكل فترة احداثها وصانعيها من اصحاب المواقف. وذكرت في العديد من المرات، وبما يعلمه الجميع من رفاق طفولتي وصحبي، بانني لست من محترفي الكتابة؛ ولم انهج المجال الادبي في دراستي، ترعرت في النبطية؛ مخضرماً بين أجيال ثلاثة:
الجيل الأول: رفاق طفولتي ومقاعد المدرسة
الجيل الثاني: تطفلي وتقربي من جيل يفوقني بالعمر والمعرفة
الجيل الثالث: جيل الرصانة والمكانة الرفيعة من اعلام هذه البلدة وجوارها، جيل كان من بينهم من حفر في صخور تاريخ وتراث جبل عامل.
الأستاذ الفاضل المربي عبد اللطيف فياض؛ كان جلوسي في مجلسه بدواعي التقارب في السكن ولشعوري بمحبته وعطفه عندما اعتكف داره ولم يتوقف نشاطه التربوي من خلال جمعية المقاصد الخيرية، وهنا أود التأكيد بأنني لم أكن من عداد مجلس صاحب السماحة العلامة الشيخ محمد التقي الصادق، و تواجدي كان بالصدفة عند مواكبة جدي الذي كان يطلق عليه لقب" فخذ الشيخ "؛ ولطالما سنحت لي الفرص بذلك في طفولتي، وكنت اتواجد في جلسة بعد الظهر في الحسينية القديمة حيث كانت المقاعد الخشبية الزرقاء تلتف بشكل مستدير يتصدره مقعد من الخيزران المميز بشكله عنما حوله، وفي زاوية نائية كنت أجلس على مقعد خشبي أزرق و اغلب الاحيان أكون فيها لوحدي، أستمع إلى ما يدور من حديث عام من هذا وذاك، مبتعداً عن سماع أحاديث الهمس و "الوشوشة".
أبا القاسم المختار الحاج محمد حمادي: كنت التقيه مجلس سماحته بين مقاعد الحاشية، وأركن إلى ديوانية مكتبه الاختياري بوتيرة دائمة كلما حط بي الرحال في فرن جدي.
سعيد افندي رضا: كنت القاه في بيته عندما اقوم بزيارته، وأجلس لفترة قصيرة بقربه امام مقهى "نجم" فيهمس في اذني بعض النوادر عن ماضي

النبطية، وكنت اجتمع به في منزل قريبي في بيروت خلال زياراته الدورية لأسباب خاصة.
وبعد فترة قصيرة من وصولي إلى الغابون، كان قدوم الاستاذ إبراهيم حيدر فران إليها، صلة القربى والقرابة هي حافز التقرب منه، لن انس ما قام به الرجل (قبل رحيله عن لبنان، و تسجيلي في ام المدارس بعد تخليه عن إدارتها، قبل بلوغي السن القانونية)،
" أبو تمام " راح يسعى لتأسيس الجالية اللبنانية في الغابون على غرار ما قام به في شاطىء العاج، وبصعوبة شديدة تكونت نواة الجالية اللبنانية في الغابون، وانتخب "ابو تمام" بالتزكية لرئاستها، وانتخبتُ لفترة عشرة سنوات امين سره.
مؤتمن لما كان يمليه علّيَ شفهياً من قصاصات مخطوطة في جعبته، خلال جلسات خاصة متكررة؟ وما اكثرها!.
ومنها فترة الإنتظار الاسبوعية المعتادة، في حالة عدم إكتمال نصاب مجلس الجالية، فتتحول الجلسة إلى ساحة البيدر في النبطية؛ وتتناقص أوراق دفتر أمانة السر بعد أن انتزع منها ما يلزمني لتدوين ما يرويه أبو تمام.
وقبلها كانت متعة الدراسة وبدايتها برعاية "أبو الناهض" الأستاذ حسين قديح المعلم المربي وجار الدار، والادارة الحكيمة في عهدة صاحب الهيبة العطوفة "أبو وسيم" الأستاذ الفاضل أحمد جابر، ثم التنقل بين صفوف يديرها الاستاذ الياس شاهين والاستاذ محمد علي أحمد ثم الجار والقريب الفاضل الاستاذ وجيه بشارة، والنهاية في أم المدارس كانت تحت رعاية وحرص المربي الفاضل محمد سرحان، في تلك المرحلة الحاسمة بدأت ملامح التكوين والعشرة، من خلال إنتقالي من صف إلى آخر إمتزجت بقربي الأجيال، في بداية المرحلة كنت إلى جوار مصباح وهبي وماجد محمود جابر وزعل وأبن أخيه أحمد سلوم وغالب حمادي وغيرهم.... ،
ثم وجدت نفسي مع غالب محمود جابر وعدنان حمادي، وهمام فقيه ومحمد وعلي زيدان غصين، ومختار المخاتير علي صباح، وبعدها جنباً إلى جنب مع جمال جابر ومحمود نحلة من الطيبة، وحسن وعلي حمادي ومحمود وهبي وغيرهم.
كي لا أطيل، وفي صف "السرحاني" أختلط الحابل بالنابل وآلت بي الأمور لأكون مع رفاق تعايشت قبلها مع أخوتهم من رعيلي، لم أكن لوحدي في تلك الحالة، بل كنت في بوطقة زمرة كان لها نفس المصير والمسار، وكان الجميع يشتري مجلة الثقافة بأسرع من البرق حين

صدورها كي لا يكون معنياً بنشيد "مين أشترى مجلة الثقافة" فيرفع من اشتراها يده يلوح بها، وبعدها يكتمل النشيد بشطر أخر "والحمير الباقين".
بل كيف أنس يوم يقوم المذيع الموسمي المتخصص بنشرة نتائج السرتفيكا السيد طلعت ضاهر، بعد تزوده بها من قبل رفيقه العقائدي أبو حسين حسن حامد من على شرفة السنترال في الطابق الاول من مبنى الحاج محمود الصيداوي في وسط ساحة النبطية وما أصبح اليوم (دوون تاون) النبطية، كان يصرخ كل واحد منا برقم تسجيله وبعدها يكون الجواب القاطع كلمة واحدة ساقط أو ناجح لابين بين بينهما.
وبدأت مرحلة الخوف والتخوف والتخويف، السميحية واسدها وأبو وديعها وسيد نورها، وكريم سمرتها، وشبيب مقلدها ونسيب شريفها ومصباح حجتها، و"الفيات" الدويكية باحمدها وموساها، وخليل ساحتها، و إكتملت روعتها بحبيب جابرها وحامد عبد حسينها، و انتابتها وحشة هجرة قاسم عسافها،
اربعة سنوات كانت بدايتها عند سد مأرب، وراوي أحداثها وتفاصيلها الاستاذ كريم السمرة، وازداد تكرار حلاوتها بتكرار إيليا إيليا وعلي يوسف علي، في تلك الفترة (اللمحة السريعة) مع مالك اصبحت في صف فواز وكدت الحق بفؤاد؟ لولا إعتكافه عن الدراسة، هنا كان التحدي في مباراة إثبات الوجود والفزع، وكان التنافس ما بين رضا سعادة وحسن علي حسن وحسن الشريف وانظم إليهم سهيل شاهين وأسعد شميساني وهمام فقيه و جان جروان ومحسن عليق يحمر وحسن قانصو الدوير و أحمد ضاهر وعباس فرحات كفرمان وحسن نور الدين حبوش وكثرة من امثالهم بالحرص والجدارة، واكتمل النقل بالزعرور عند وصول القنصل حسين قبيسي، ولكن هاجس التنافس كان معدوماً امام الفزع من ضخامة أجساد تضاعف حجم عضلاتها عند افتتاح نادي سعد الرياضي لكمال الأجسام، ودارت "النكوزة" تارة من زعل سلوم وتارة من عاطف الصيداوي وعلي بهاء بو خدود، وكانت المداهمة من قبل عبد المنعم فحص واسماعيل البصل الشريف و كمال بدرالدين.
العادة المتبعة في السميحية كانت بتصنيف الشُعب إلى شعبتين: شعبة "القطاط" وشعبة "العجول" وكانت الصرخة الحاسمة التى تنطلق من الملعب لجميع الطلاب قاطبة:
" سد بوزك ياحمار"؟
أما دروس حصة الرياضيات، كانت مهرجان مسرح دائم لشروحات العلامة اسكندر أرقش، وكان كانون شوي اللحم يبث دخانه في أرجاء

زاوية غرفة الصف، وعندما تفوح رائحة اللحم المشوي يخرج الأسد من عرينه ويقتحم الباب فيختفي الكانون بسرعة البرق، ويشير الأسد بأصبعه إلى كل من يتنقل بين طاولات الصف ويزأر بصوته الجهوري " إنقبر روح جيب بيك"

أما نشيد الصباح عند رص الصفوف وتسلق السيد نور تصوينة الحائط الحاجز ما بين الملعب وغرف الدراسة ليستعرض الصفوف، وتأتيك من حيث لا تدرِ صرخة الأسد " سد بوزك كاتربيم ". (مناداة الكل بالمفرد).

وكما ذكرت بأني مخضرم، كذلك كانت النبطية مخضرمة التجمع والتعارف والصداقة وكان الإختلاط بين الشباب والصبايا تحكمه الاخلاق والحشمة والأخوة.

كانت الصداقة لاحدود لها بمقاس العمر أو مرتبة الدراسة بل كان هنالك جامع مشترك حفلات ورحلات مختلطة يلتقي فيها طريف ورئيف رضا ومحمد سعيد رضا ومحمد صباح وماهر الحاج علي وأنطون ياسين وحبيب وهبي وأخوته أديب ومحمود وحسن رشيد نصار وعماد ومحمد علي ضاهر ونواف، وياسر والعليان جميل وبدرالدين وجهاد وهشام وأخوهم محمد وشلته من حسن شاهين وسامي شاهين وعلي رضا وكامل فران ويكتمل النصاب بتواجد المربي أحمد فياض وأخوه محمد وأخوتهم عبد الرضا و صلاح، وتكون بوسطة المقدم تحمل في داخلها من الصبايا والشباب من أجيال مختلفة.

كانت النبطية ومحيطها متقدمة بخطوات كثيرة عن غيرها في محاربة عنصرية الطبقات والأجناس، إلفة ومحبة متينة الروابط بين الجميع.

أنا من حي السراي، ذلك الحي الشعبي بتواضعه وعزم شبابه يثير في نفسي حافز المتابعة والعمل، من عبد الأمير شعبان إلى عبد الأمير سلوم وعبد الأمير صباح ومحمد فران وعلي جميل بدر الدين وعبد الأمير رضا وأخوه الأكبرمحمد علي وأخوهم الأصغر حبيب إلى منير نحلة و مختار جابر..........

الغرابة تكمن بعدم توجهي للمنحى الادبي، لإسباب عديدة، فتوجهت إلى النواحي العلمية والفنية، ولكن شغف المطالعة لكتب الادب والشعر وتذوق باقي الفنون من مسرح وسينما ورسم كانت من هواجس تفكيري واعتبرها رفيقة دربي، فكنت من حظور مجالس الشاعر الكبير عبد الكريم شمس الدين، في منزله بحي الميدان حيث كان اللقاء الاسبوعي لرعيل يفوقني في العمر والعلم والثقافة، ولكن معطيات مساري سمحت لي بالتواجد بين علاء ضاهر وعوني فخر الدين والمرحوم حسين وأخوه نزار قباني

النبطية الشاعر والفنان ياسر بدر الدين وحسين الحاج محمد حسن صباح وعفيف الصيداوي وعلي زين الدين وجهاد جابر ورعيل مخضرم الاجيال من ماهر وماهر ومالك ومنذر وعادل، مع تقديري للجميع دون ذكر درجاتهم العلمية ومكانتهم الاجتماعية العالية.
كنت ممن يرتادون دارة السيد مفيد جابر حيث كانت الجلسات المميزة الرائعة بشمولية فحوى تداول الحوار فيها، وعطوفة سماحة خلق الفاضلة السيدة جوليا الطيار جابر الست أم جهاد، وما ادراك ما؟ أم جهاد طاقة من كتلة عزم وتضحية واخلاص، على يدها كانت ولادة الكثيرين من النبطية والجوار، وقفة التقدير موجبة محقة لها رحمها الله.
تفجر وطاف من ثنايا قلبي وروحي حنين إلى مسقط رأسي، و شرارة التفجير كانت قبس من أبو تمام، وسعيت أن أسير على خطاه في محبته لهذة البلدة العزيزة الكريمة وجوارها المعطاء المبدع.
تساقطت أوراق الشجر، وحط بي الرحال في خريف عمري في فرنسا، وكي لا اصبح كمن: فَـرَّ و نَسِيَ.
لذا قمت بتجميع ذكريات كتاب " كي لا تضيع النبطية ".
سيقول قائل : طالما تحب النبطية إلى هذه الدرجة فلما الجفاء والبعد عنها؟
لن استطيع إقناع السائل لأنني كمثله أطرح نفس السؤال، لست بمطلوب أو مطالب و ملحوقاً ولا ملاحق، ولكن ..."خطى كتبت علينا ومن كتبت عليه خطى مشاها"؟.
معذرة من الجميع والمسامحة ممن ذكرت وعمن سهوت من أخوتي ورفقتي ومعارفي؟

أنا من الجنوب، مهدي النبطية، أبي ما كان بذي مال، وما كانت أمي ثرية، ولم يكن لي من بعدهم إرث ولا إرثية.
وبعون من الله ترعرت حتى كبرت، بما وجدته أرتضيت وعليه صبرت.
عائلة الفران، لم يكن لديها حقول وأطيان، بل معجن ومقص ودكان! لا هواية كنت أمارس، بل كان الدرس في المدارس، وعيون أبي تراقبني كالحارس، للدين تعلمت بعض الأصول، راضياً بالمعقول.
بعدها نزلت إلى بيروت، وفيها للعلوم بيوت، وعنَّي الجهل راح يبتعد، تدوشت من علوم "رشاشة"، وازدادت الثقة والبشاشة، ورحت نهلاً من علوم الشاشة، عملت في صندوق المجون، حيث الرقص والفقش والفنون، وهذا هو التلفزيون؛ وحصلت على منحة إلى باريس، فتعلمت خلالها النفيس النفيس وكثيراً مما لا يُحمل بكيس، فسكنت بعد الرجوع في

الحمراء، وأصبحت ذا قدر برخاء، وكنت بين بين، رِجل في الفلاحة وأخرى في .....

وكل ما هو آت بلا فوات وببضعة قروش، صحن فول من مروش، أو فته مقادم وكروش، قبل الفجر من مطعم منصور وعلما بالقرب من سينما سلوى، وما لذ وطاب من الحلوى، بما فيها طاسة قشطة من بِرْكة العنتبلي في سوق الطويلة، مشترياً القميص والمداس، والبرذعة واللباس، فضل الله كان مدرار، فتنقلت من بار إلى بار، و"سهار بعد سهار"، وفي عملي صرت من الشطار، ولم يطل عليّ الانتظار، سافرت بطائرة وحطت بي الرحال في أبوظبي أعارة، طمعاً بالسمن ودسم "النعارة"، والربح بلا خسارة، في وزارة أحمد بن حامد، تحت ظل حكم أبن سلطان زايد، فلقد حط بي القدر، في بلاد عليّها الخير أنهمر فطاب المقام واحلو السمر، ورحت من صعود إلى صعود، والرغبة عندي بأن لا أعود، وبذلك خانتي الوعود، رجعت إلى تلة الخياط، فوجدت الأمور بخلاّط، مشدودة الرباط، إلى أن لسعني عقرب، وانقطع المعاش وأجدب، بعد حركة الأحدب، لأنها كانت خطة تسلم فيها "الخطيب" المحطة فأصبحت كالمبرد تلحسه قطة، وباللحس لسانها تدميه، ودمها للمبرد يرويه، ظناً بأنها باللحم من الجوع تقيه؛ عندها لذت بالفرار، بمكيدة وتصميم قرار، وحط بي المسار، في عاصمة الغابون، منهكاً من تراكم الديون، وبعد عناء وتعب، انقشع الغيم واغترب، فهلّت الأنوار، وإمتلأت الجرار، حيث خدمت في حرس الرئيس وراح التكديس يزداد تكديس، عاملاً في صحافة الدولة، ومن جولة إلى جولة، لمرضاة رجل الهيبة والصولة، منفذاً رغبات" بونغو عمر"، عاملاً بكل ما أمر.

وما الإعلام الاّ كالصيد، حرفة كذب وكيد، رجاله بلا قيد، والإعلام بغير ذي حق، أفسده الزاد فراح يزداد بما ناله من فساد وما بعض رجال صاحبة الجلالة، إلاّ رُعاعُ قومٍ من جُهالِه، وما هي إلاّ أوهام عنيت منهم من كان في ظلام، يسعون وراء خبر الزور، ويجعل من الحُر قرقور ومن المجاهد فَجُور، ويصوره كمخرب ليس له صبور، أرضه محتلة و لهجرها مجبور، وإذا رجع إليها فمن بوابة عبور، والصحف لا ترى الظالم، وتتهكم مراراً على المظلوم، وتلك حالة صحافة الغرب ونحن سائرون على الدرب، وعندما يأتي المساء، وينعدم الضياء، أستعين بالضنى على القضاء

" يا معين الضنى علي   أعني على الضنى"

طفح الكيل وانهد الحيل واشتد إلى الراحة الميل، فقدمت إلى هذه البلاد، طمعاً بالراحة وتعليم الأولاد، وبلا طول سيرة، حدثت أمور كثيرة، خانها الحظ فكانت مريرة، فأنزويت إلى ركن قرب نافذة كالسجن وفجأة رحت أفكر وأستعيد، هل هو القدر أم كان ما أريد، فوالله ما هو إلاَّ مصير كل عنيد، انقلبت به الأحوال، وتفرقت الصلات، وتجزأت الأجزاء كما تجزأت كلمة " فرنسا" فأصبحت: فرَّ ونسا.

والقناعة هي النواة الخيرة، قامت بدافع من ذاتها، واندفعت بذاتها وبفعل قوة مستمدة من ذاتها، تحركت بفعل هذه القوة النواة وانتقلت بذاتها، تستمر بتحريك ذاتها بواسطة الدفعة الجديدة التي تولدت في داخلها بما تحصل عليه من جديد طاقة تعوّض بقوة إضافية عنما أستهلكته...

وهكذا يستمر الحال بازدياد واستمرار الحركة الدائمة المستمدة من قدرة ذاتها.

نقطة التحول

من غربة إلى غربة، تكاثرت فيها حالكات الليالي، في رحلاتٍ منهكة القوى راكباً صعاب بحر لجي، تتخبط أمواجه، مشحونة بظلمات فوقها ظلمات، خبط عشواء كانت خلالها الخطى، خطى كتب القدر دروب سيرها، فانقادت لها النفس منصاعة في ركاب السهل معاندة بلا جدوى، هذه النفس الضعيفة تحاول الالتفاف حول الوعورة، جادة في تسهيل العبور مستعينة بالعزم، يرتابها وهن وتمتد يدها إلى إلتواء لتستخدمه قوة للمتابعة، مثابرة مصحوبة بجد، وكيد اصرار، حاكت من وهن خيوطِها رداء يحتار أن يجد لذاته الصفة التي هي عليه حاله، رداء فيه من نشوة الفرح بالانتصار وفيه نزعات من الغرور، مجبولة أكمامه بالنهم، متباعدة أطرافه عن ملامسة جدران الواقع التي يتكون منها إطار الحقيقة.

وباحتكاك بسيط تواجهت أطراف الغرور مع حدودِ الحقيقة، ولكن الاصطدام كان ضعيفاً ولم يكن له أثر، (لم يفلح هذا الارتجاج في تحريك الوعي الرادع)، كان الهروب، وتغلب على ركوب المجابهة، وكذا الجبن، خشية خسران هالة الوهم، التي هي غذاء الغرور.

أخذ بعدها اتجاه المسير وجهة جديدة، سهلت امكانات المادة الدخول إليها فهونت ضرورات التأقلم في أجوائها التي تتحكم بها أمثالها من أمكانات مادة، ولكل مسار هدف، يجب أن يكون واضحاً، بل كان هنالك أهداف، منها محق ومنها مرضاة غرور، ومنها عزم على العمل والجد. تعددت الأهداف وتشعبت، ودخلت الأمور بتشابك أحكمت به اشتداداً الحلقات، فتداخل بعضها ببعض، وابتدأ النزف مصحوباً بالعد العكسي، لأن ملزمات الاستمرار لم يستطيع الناتج أن يقوم بها، فراحت تلك المستلزمات الملحة تلتهم كالنار نواة الذخيرة، وراح الاستثمار يجف ضعفاً واندثاراً، كالهشيم تذروه الرياح، وتسرَّب الداء فوجب البتر والقطع، لإنقاذ ما أمكن، ولكن بعد خراب البصرة، وناءت النفس تحت أعباء ما اكتسبت وراح الوهن يداهم الجسد، فانفتحت الفجوة التي منها الخروج وكلها من أوهام الأمل، كسراب لا وضوح فيه لأنه ناتج عن انصياع دون خيار، واقتيدت النفس مرغمة خاسرة محسورة، يتملكها اللوم والخوف، في رحلة ضياع، وكأني بمعرة النعمان أدخلها وفيها الكفيف سجين المحبسين ما زال حياً، ركنت النفس، المنقادة، في جوار الأعمى بعد دخولها محبسه، إلى ما هي عليه، من حال مشابه له، فهو حبيس البصر، وهي مبصرة

كفيفة الرؤيا، هي كمثله في حالته ولكنه أفضل منها، لديه العذر الشرعي الذي يرفع عنه الحرج وهي مضمونة للصفة ولا يشملها رفع الحرج، هو حبيس داره لعدم المقدرة على الخروج وهي على الخروج معدومة المقدرة .

وكذا السجون والحبوس، ففيها يتشابه فيما بينهم النزلاء رغم اختلاف المدد وتنوع أسباب التواجد.

نظرت تلك النفس الشريدة إلى ما حولها وراحت تستكشف أركان المكان، تستعرض وجوه من فيه، وتاهت في غيبوبة دهشة صمت بارد، فكل الوجوه أمامها أبو العلاء، حتى خيل إليها بأنهما وحيدان لا أحد سواهما في هذا المكان، فمعه وبقربه حتمية البقاء، تنظر إليه في صحوتها ويعيش طيفه في كبوتها، تجلس بقربه مشدودة إليه في نهارها و تحوم حوله في حركة انغزال مجذوبة إليه لتدخل كيانه وتندمج به، بل كم حاولت أن تنصهر وتذوب في هالة بوطقة، وعندما يرتابها السهاد، تتقمم روحها بروحه فتسبح في وهم الخيال حتى يخيل إليها بأنها تجانست معه و التحمت به وامتزجت بداخله فانصهرت وتسرَّبت إلى مضمونه وأصبحت جزءاً منه وفيه.

ذعرت النفس الشريدة، فالبجوار ردح وحداء فاستيقظت على صوت من أصبحت تعيش وهماً بداخله وهو يردد مبتسماً :

ولو أني حبيتت الخلد فرداً — لما أحببت بالخلد انفرادا
فلا هطلت عليَّ ولا بأرضي — سحائب ليس تنتظم البلادا

هدأ الروع وانفرجت النفس الشريرة المنكمشة المقبوضة، فلا مجال للتردد، فهذا النداء الواضح الصريح، هو يدٌ امتدت اليها معلنة لها القبول، معترفة أشد اعتراف بالمصاحبة.

هرعت النفس إلى اليد الممدودة تشد عليها، واقتربت بسمعها من صاحبها الذي راح يملي شروطه بهدوء مملوء بالنصح والورع :

لا تنس لي نغماتي وأنس لي زلي — ولا يضُرك خَلقي واتع خُلقي
فربما ظرّ خلّ نافع أبداً — كالريق يحدث منه عارض الشرقِ
وعطفة من صديق لا يدوم بها — كعطفة الليل بين الصبحِ والفلقِ
فإن توافق في معنى بنو زمنٍ — فإن جل المعاني غير متفقِ
قد يبعد الشيء من شيء يشابهه — إن السماء نظير الماءِ في الزرقِ

أبرم العقد بين الطرفين، الطرف الأول أعمى البصر، منفتح البصيرة، والطرف الثاني نفس مهزومة مدحورة مبصرة بلا تبصر، على شروط سنَّها الطرف الأول ورضي بها الطرف الثاني، أهمها أن يصغي الطرف الثاني للطرف الأول ويتعلم منه دون جدال ولا اعتراض.
مرت الأيام مسرعة، والنفس تغرف من مناهل الضرير بلا ضرر، وكلما تعلمت شيئاً شعرت بأنها قد كسرت حجاباً وأقتحمت باباً وقربت من موضع السر الذي يخفيه الأعمى، ومنه يستمد قوته ويحرص أن لا يتكلم عليه، وتراه عاقاً به، يفعل بما يمليه، ولا ينطق إلاَّ به.
طالت مدة البقاء، وكثرة اللقاء أجلبت الملل، ولربما ازداد في النفس غرورها و كأنها تملكت علماً ارتضت به، زاد في ذلك نفاذ ما لديها من تحمل، ليس تذمراً ولا نكراناً، إستأذنت النفس التي بدأت تنكشح عن روحِها صفة الوهم وعقدة الذنب، و راحت ترجع إلى سكينتها راغبة بفترة من الراحة، والابتعاد عن دروس المبصر الضرير لتنفرد بانطواء على نفسها، ولتبتعد عن هذا المكان في تجربة واختبار، عسى أن تنهض من جديد بحلة طبائع إكتسبتها خلال فترة مرافقتها لهذا المعلم، راحت تقلده، متقربة إلى أفكاره وتتقصَّد البعد عنه لتمتحن مقدرتها الذاتية، لأنَّ تعاليم الشيخ راحت تتحكم بها وتسيطر عليها وتملي، بدون أي عناء ولا جهد، أصبحت منقادة بثوابت ما تمليه عليها اراء نهج و طبائع الشيخ الذي استطاع بقوة تأثيره أن يحرَّك في هذه النفس رغبة ضعيفة اختفت معالمها بفعل غبار السنين، فأصبحت دفينة عدم الممارسة والابتعاد عنما تحمله من قيم ومن أصول التصرف.
وكما هي الحال دائماً حُدِّد موعد الإنصراف، وبالنفس ظمأٌ وتعطش لكلام الشيخ حتى و لو تظاهرت بعكس ذلك.
شعر الشيخ بها، وأبت عليه نفسه وروحه إلاّ أن يكون زاد الطريق لهذه النفس في لباسها الجديد، ما قاله مودعاً :
" ألاَّ أدلك على أخلاق إذا فعلتها أطعت الله وأحبك الناس، إهتدِ بكل دليل؟ اسكت ما استطعت إلاَّ عن ذكر الله، فإذا نطقت فلا تصدِّق الكاذب ولا تكذِّب الصادقين، واعلم أن الفقراء بطعامك أحق من الأغنياء، ولا تلم على شيء كان بقضاء الله، ولا تهزأنَّ بأحد ، ولا تر مع الهازلين ولا تؤازر الظالم، ولا تجالس المغتاب".
مهلاً سيدي، أجابت النفس مرتعشة: وكيف لي بذلك؟، تبسم الشيخ، وأضاف:
كتاب الله والاستعانة بالصبر والصلاة!

أدركت النفس عندها موضع السر الكامن الذي ليس حكراً على "أبو العلاء" بل في متناول من أراد الله له الهدايـة.
استعادت النفس روعها، و وصايا الشيخ تحيـط بها، تولدت لديها عزيمة يتملكها رغبة ولهفة، فما نصح به الشيخ ليس بالأمر الذي يستحال الحصول عليه، ولا تكلف في ذلك إلاَّ توافر الوقت وصفاء الذهن، وبداخل هذه النفس حنين لهذا، ونواة تركيبها انفطمت عليه وانجبلت فطرتها به فنشأ معها وعايشها، فالنفس لم تهمل القيام به، لكنَّها لم تحسن الإخلاص له والتأني بصفاء الذهن والاستيعاب، فبها ومنها يستمد الإيمان الصادق الواعي، حيث كانت الصلاة لدى تلـك النفس أشبه بالروتيـن المقرون بعدم الإتقان وهفوات ضئيلة، و كتاب الله مركون كرمز للتعوِّذ و الحمايـة.
وفي النفس نزعة للتعصب تصرخ دائماً وابداً مؤيدة لتعاليم السماء تنتصر لها وتثور، ولكنَّ ذلك لم يكن بذي قدر من الوعي والإدراك والالمام، والجهل بالفحوى ومقاربة سطحية لمعرفة بسيطة، (فالقرآن الكريـم كانـت النفس تقرأه ولا تـدرك، وكأن التلاوة عندها كانت مجامـلة أو رفع عتب، تلجأ النفس إليـها في أحلك الأوقـات تعوُّذاً ودعاءً أو ترحُّماً على فقيد).
تمردت النفس على ما كانت عليه، فلقد افتقدت الحجـة، حجة السهو، اعترفت بتقصيرها معلنة انكسارها، بعد ان كانت راضية غروراً بما تملكه من معرفة في أمور الدين والدنيا، فالصبر ملجأ كل بلاء في المحنـة والتجـربة والقصـاص، والدعاء حمـد وشكـر، وليس فقط لتحقيق الطلب والرغبة في مراحـل العوز ؟
لكنَّ تعريف الفحـوى مفقود، وتحديد أبعـاد الصبر والدعاء غير واضحة والنفس تائهة في تقاعس و اضطراب، ترتعش كلما ذكرت او تذكرت رأت أم سمعـت، تطوق إلى هذا النور، وهي لا تدري لماذا لاتسبـح فيـه، وتسعى إليه السعـي المخلص الصادق المثابر المتواصل، وهي على يقين بأن في ذلك شفـاء ودواء، مقروناً بنصح وهدايـة وموعظـة ونظم، لها أصول وقوانين، و لها حـدود، فالعمل الصالح له جزاء والعمل السيئْ عليه عقاب وقصاص، آجلاً أم عاجلاً.
أين يكمن كل ذلك ومن أين يتم التعرُّف إلى هذا، القراءة بالتحريك ومعرفة النطق و الإمعان والوقوف على ما بين الكلمات وما يحمله تغير اللفظ والنطق، أنعقد العزم وشاءت إرادة الله بذلك، فانتقلت النفس، من قربِ عبد كفيف، أنعم عليه الملك البصير بنعمة الهدىَّ فهداه بالقرآن والهّمة والوسيلة، فاهتدى بهدايـة سيد المرسلين، وأصبح من العابـدين الشاكريـن.

انتقل المقام بالنفس من محبس النعمان إلى جنة الرحمن، وهيهات، ما بين اللتيا والتي! من مكان متواضع بسيط حقير مقفل الجوانب إلى رحاب و جنات، إلى منابع علم وأدب، يضيئها نور ساطع مولود من ذاته، لا مواربة فيه ولا مادة، تطوف في أرجائه نسم الحنان والرحمة، يفوح من أطيانه رائحة مسك وعنبر، تمتلىء أركانه خشوعاً ورهبة. فيه العطاء غير مجذوذ، آدامه لذة، ماؤه عذب، أبوابه مفتوحة ليل نهار، بحيث إن الحرية من سكانه تخجل وتغار.
فيه الهداية وفيه الكفاية، يشرح الداء ويصف الدواء، وبفضله تزدهر الجرداء وفيه وعد السعداء، وتعاليم الفداء، فوالله ليس لمن يقرأ القرآن على أحد منة بل عليه نزلت نعمة سعى إليها فأعانه الله عليها، فإن أتقن عمله، أبلغه الله أمله وإن سعى لذلك بالنهم أعانه ألله بالفهم، فيكتسب فصاحة اللسان، ويقترب من إنسانية الانسان. وزيادة بالاطمئنان ولكي يدخل إلى النفس الأمان وتقترب من مفاهيم الأمور، أضاف نور القرآن من لدنه نور، ففيه شرح لكل العصور، وانتشار رحمة العلي العليم وما أنعمه الله على الرسول الكريم، ففي سيرة الرسول حكمة ومواعظ ودروس وفي سنته التشريع والأحكام وما هوالحلال والحرام، من تفاسير وشروح، ومناسك وصروح، بما اكتنزت به مدينة العلم التي إذا دخلتها مررت ببابها فوجدت الامام، عليه الرحمة والسلام فلا تكتفي منه بالفصاحة بل تتنقل إلى مفاهيم نهج البلاغة، ولتكن بفهمك مَكِين من دروس العلم اليقين لما عليه الرسول الأمين بما شاء به رب العالمين.
وبعدها انظر في مراءة نفسك فتجد فيها وضوح الرؤيا وصفاء الذهن وتنبع قوة الحق في قلبك ولسانك ويهدأ بالك، وينزل الاطمئنان بنفسك.

أم القـــــرى

إليك يا حبيبتي إزداد بي الحنين، فأنت كما تعلمين، أحبك منذ الصغر.

في القرب أحببتك وفي البعد ما زلت أحبك، أزورك خلسة مستتراً خلف السنين، أتزود من ذكريات الأيام جرعة أداوي بها جراح الأنين، زياراتي إليك ذكرى لأحداث طبعتها بداخل قلبي السنون، لا أطوق إلى رؤياك في يومك، لن أحب أن أنظر إلى وجهك وقد تغيرت ملامحه، أنا عاشق لما كنت عليه في أوائل الخمسين.

ولدت في رحابك، متجولاً بين معالمك، عابراً نصف قرن معكوس من الزمن فهذه "عشة أبو هاشم" ما زالت مصونة بسياج من قضبان القصب، وتفوح من حواليها رائحة الحبق، والمصطبة مرشوشة بالماء وكراسي القش الصغيرة مصفوفة على الشكل المعتاد، نصف الدائري، والموقد ذو اللهب الخمري يعتليه إبريق تفوح منه رائحة القهوة وإلى جانبه سماور تفوح منه رائحة الشاي... من هنا تبدأ الحدود.

اللوحة الرسمية على جانب الطريق الأيمن تشير إلى ذلك، و"عشة أبو هاشم" على جانب الطريق الأيسر تعلن تأكيد ذلك، نسمة هواء منعشة تلفح الوجه قادمة من وادي فخر الدين، فيها نكهة تبغ من قعر الوادي، تنساب مصحوبة بصدى موال عتابا، فالصبايا في موسم القطاف يطربن تحت الندى.

اوسع الخطى وتقدم، إمشِ على مهل وبخشوع فأنت أمام السميحية المنهل، إحترس لا تقترب من سيارة الأساتذة أحمد و موسى دويك، إحذر لا تصعد الدرج، فالأسد رابض في عرين الإدارة، والويل كل الويل(للحمار) المتأخر طالباً كان أو غيره، إن حسن طالعه ولم يره الأسد، داهمته صرخة الأستاذ خليل ترحيني، من الملعب، تزف إليه "اللقّب"، فلكل طالب علم في السميحية صفة: القطِ ، الحمار أو العجل، وهو، في جميع الأحوال، من جنس الحيوان (ولكن بعد تطور علم النفس وجد العلماء بأن هذه النعوت والصفات هي الحافز الأساسي لحث الطلاب على الجهد والاجتهاد لتأكيد نفي الصفة).

وكما هي عليه الحال في جميع الجامعات والمجمعات العلمية، الوسائل متوافرة للطالب ومنها الكافيتريا، دكان قرب دارة رشيد شعبان، جزء لا

يتجزأ من مستلزمات السميحية، كانت المنتجع والملجأ بعد أن يقع الحد بصدور قرار: "روح جيب بيك".
ولهذه العقوبة أحداث وحوادث مرت بها جميع الأجيال التي تعاقبت لنهل العلم من السميحية، و للحصول على دليل من أصحاب الثقة والمكانة العلمية، فليسأل عنها سعادة الأستاذ الفاضل شبيب مقلد، الدكتور جهاد جابر، الأستاذ أحمد برو، أو الدكتور رضا سعادة أو الطبيب الألمعي محمد، حفيد الأديب محمد جابر آل صفا، و غيرهم......
فالسميحية لها نظام وتاريخ تتحكم فيه عادات وتقاليد، الطالب فيها بعد حصوله على الشهادة التكميلية عليه أن ينتظر فرصة الصيف ليشترك في إمتحان رسمي لوزارة التربية، وفي مطلع العام الدراسي القادم يرجع إلى السميحية، ويدخل لا إلى صفوفها بل إلى غرفة المعلمين مصافحاً فيها من تركهم طالباً تحت إشرافهم بالأمس، منادياً لهم حضرة الزميل الكريم.
وبعد تقاضي عدة رواتب تتاح له فرصة اختصار المراحل وتقريب المسافات، فمصر تصبح عنده أقرب من دمشق، وبعد تحصيله وجهده ينال باسبور العبور إلى الدراسات الجامعية، فعمله بالسميحية يساعده ويحثه على الاستمرار في التحصيل العلمي؛ ومن السميحية البداية نحو المستقبل، وبفضلها اختصرت المسافات وتسخرت الأسباب لمن لديه طموحات وعزيمة الكفاح والعمل الجاد، فكان الكثير الكثير، و منهم من رجال مجلس الشورى ومنهم في القضاء ومنهم عمداء للجامعات وعدد كبير من العمداء في الجيش، وكثير من الأطباء اللامعين.
السميحية ليست مدرسة تكميلية فقط بل هي مختبر ومنبع ومسار حتمي، لمن كان لديه الرغبة للتعلم من أبناء جبل عامل، و هي لم تكن حكراً على أبناء البلدة.
السميحية ليست مرحلة سنوات أربع أو أكثر بل هي نهر معطاء، تركيبة حبيبات مائه تحصلت من تفاعلات مجبولة بالجد والحزم والهزل والذكريات، وما أجملها على مر العقود، فلكل مرحلة كان لها رواد تركوا بصماتهم، من هتافات المفاخرة وهتافات التحدي وانقسام الطلاب عند الخروج إلى شرذمات وفرق.. منهم من يتراكض هاتفاً :

يا جهاد يا أبن مفيد — بشر القوم العنيد
بسيوف قاطعات — و رماح من حديد

فيأتيه جواب الثقة والعزة :

المير نايف — يا عروق الموقدة

وبعدها تصل الوفود إلى أمام غرفة القراءة للعموم فتتوحد الكلمة، ويهتف الجميع:

يا شباب الحقوني — الحقوني لعند القسيس
حتى نلعب بالفطبول — بشبكة من خيطان مسيس

غرفة القراءة للعموم، ويشرف عليها قس بروتستانت، كانت من متممات المدرسة السميحية، لتأمين الملعب الذي يمارس فيه الطلاب رياضتهم. وبما أن الأمور على "قد الحال"، الرياضة الوحيدة كانت لعبة كرة الطائرة، فقطعة صغيرة من الأرض وعامودان من الحديد وشبكة مشدودة إليه، وكرة (فطبول) وهمة الشباب، و لكل عصر أبطاله ومنهم من تخضرم من عصر إلى عصر.

على هذا المنوال، كانت أجواء النبطية التي كان يعيشها الطالب من أهالي البلدة أو من الجوار القريب والبعيد، و كما في كل مجتمع مختلط تتولد حزازات يطغى عليها طابع العنصرية والتحالفات القبلية، هنالك لهذه الأمور التافهة وجود (وللأسف)، وهذا ليس بجديد على طبيعة اللبناني بشكل عام، الرئيس الراحل فؤاد شهاب ترعرع في جونيه وشب وشاب فيها، وبقي اسمه " الغريب" رغم حبه الشديد لهذه البلدة الذي ترجمه بأفعال عمرانية هائلة، كذلك كانت الحال في النبطية، فصفة " القروي" كانت تثير اشمئزاز أغلبية الأخوة والأصدقاء والزملاء الوافدين من خارج البلدة، هؤلاء الأصدقاء والأحبة رغم ما يتحملونه من أعباء اغتراب وأعباء مادية لم يكن لهم إلاّ خيار واحد في سبيل التحصيل العلمي هو الصبر والتحمل والتأقلم.. السميحية كانت في حينها التكميلية الوحيدة في أرجاء هذه المعمورة من جبل عامل.

فمنهم من نظر إلى ذلك بفهم وتفهم مدركاً لطبيعة أهالي البلدة وعاداتهم وتصرفاتهم وطريقة تعاملهم فيما بينهم، فمن المستحيل أن تجد بيتاً من بيوت النبطية لا يحمل أحد أفراده لقباً، حتى أصبح الواحد منهم لا يعرفه ولا يتعرف إليه الناس إلاّ إذا نودي بلقبه، وفي عملية إحصاء غير دقيقة يتوافر أكثر من ثلاثمائة لقب لن أذكرها لأن ذلك منافٍ للأخلاق وللدين، حيث نهى القرآن الكريم عن التنابذ بالألقاب، ولكن لماذا كان ذلك وأهالي النبطية والجوار وأغلبهم من الصالحين المؤمنين! فالضرورة لها أحكام، ولتسهيل الأمور في مجتمعات ضيقة، ووجود عدة أشخاص يحملون الأسم نفسه والشهرة نفسها، ولربما كنية الأب نفسها، كثيراً من محمد علي الصباح ، وحسن أحمد بيطار، وللتمييز بين شخص وأخر اقتضت الضرورة وسرعة البديهة إعطاء كل واحد منهم صفة وأقول صفة لا لقباً، فالوافد من

خارج البلدة وقع عليه حكم التميز، فكان يقال "متاع شوكين" و"متاع الدوير".. وغيره وإذا لم يقترن به بلد المنشأ يقال عامة عنه القروي، لست مدافعاً عن سوء الفهم و سوء المعاملة، ولست مبرراً لها بل معتذراً لوجودها و مضيفاً بأن الجنوب كله قرى، منها الكبير ومنها الصغير، وما النبطية إلاّ قرية من هذه القرى كبُر حجمها.

أبن النبطية قروي أصيل، فكان ينادى بأسمه المركب و غالباً بلقبه، والوافد إلى هذه القرية (النبطية)، من غيرها من البلدات المجاورة كانت له صفة الإجماع المبهم (القروي).

فمن بين الشباب الذي ترعرعوا في النبطية وأدركوا مفاهيم هذا الأمر عالجوه بطيبة و تسامح، فتجرعوا هذه النعوت ولو على مضض، وتجاهلوا الإساءة منها، وأحبوا النبطية وأهلها، فتقربوا منهم وناسبوهم وأقاموا في ربوع النبطية حتى بعد الاستغناء عن خدماتها و ضروارت الحاجة إليها.

ومنهم من تفاعلت هذه الحالة لديه فتركت أثرها السلبي في ذاكرته، فحمل بين طيات ضلوعة بعض النفور والحقد، (لهؤلاء أقول بأنهم ليسوا من ناكري الجميل بل هم كأصحاب الحق الذين يستعينون بالباطل لإثبات حقهم).

النبطية بسيطة وأهلها بسطاء مرحون، ولكن هنالك شبه أسلوب للتوصل إلى فهم التعامل معهم، ومن ثم العثور على طريقة الاستعمال لهذه البساطة والطيبة البديهية الموجودة داخل كل قروي من جبل عامل، وما النبطية إلاّ قرية مركز التجمع.

ومنها خرجت دعابة الحمار المصبوغ الذكي، والديك الذي يبيض، والقطة التي تقطف المشمش... ومنها الكثير الكثير في كتابات الدكتور سعيد الصباح.

فهذه هي حبيبتي التي أحببت رغم بشاعة بعض طباعها، فذكراها وحسن جمالها ينسيني ما سواه من الطباع.

وعن الشيخ علي الزين:

وأستمتعت بالعلم غضَ الجنى وقد أصابت فيكم معدنه
وآنست بابن (كحيل) فتىً في معرض النكتة ما(ألعنه)
يبعث ميت الأنس من لحده إذا تحرى قصص (البوكنة)
وإن يدر للرقص أو للغناء لم يعد وضعاً حجر المطحنة
أو وشح المنكب منه العصا أطلع قرداً حاملاً محجنه
يستل همَّ المرء من صدره ويُسحر الأعين و الألسنه

وقال القاضي الشيخ محمد رضا الزين:

ابن كحيل (بالعتابا) شـــدا يحتاج من فضلك (للميجنة)
طل عليـــه من بعيد و لو من شق بـــاب أو (روزنة)

"وما ذلك إلاًّ دليلُ إلفة ومحبة ، بين أبناء النبطية و أبناء الجوار"

الشيخ الجليل علي الزين من بلدة جبشيت، وابن (كحيل) هو السيد عبدالله كحيل من النبطية (والد فؤاد والحاج حسن وحسان ورضا كحيل)
السميحية : لقب أطلقه العلامة إسكندر أرقش على " تكميلية الراحل الأستاذ سميح دخيل شاهين وكذلك " الجوادية " لقب كان يطلقه على المدرسة الثانوية وكان مديرها الأستاذ جواد الصيداوي.

مــاءٌ وطحيــنٌ وسُكّــر

وكيف لا يشدني إليها الحنين وما زالت بالبال هذه الذكريات، سارحاً في مخيلة الذكرى ومن خلف نافذة أطل منها رغم مسافة البعد، أتجول بين معالم شوارعها وأزقتها فأجد أمامي، رمزاً أو حدثاً ورواد بسطاء تركوا لمسات عذبة، جعلت من تاريخ النبطية تراثاً.. دقة اتقان حفرت لهم أسماء تميزت وانمازت، فأصبحت معايير مقارنة، وبفضلهم كان للنبطية تراث، فلا عجب لأن وراء ذلك أسباباً، ففي كل مجتمع وعلى مر العصور، تتميز مدن ودساكر عن غيرها، وذلك بما لديها من أشياء مختلفة تجلب إليها أنظار من حولها، فتصبح هذه البلدة أو تلك ملتقي التجمع فتزدهر وتنمو، وكلما تكاثرت وتنوعت أسباب الجذب والإلفات، ازداد التردد عليها وأصبحت مقصداً، فكل بلدة أو مدينة في لبنان تتنافس فيما بينها بشيء ما، فالحاجة إلى ما تسعى إليه تجعلك تتجه نحو هذه المدينة أو غيرها، وعلى سبيل المثال إن جاشت بالنفس رغبة لأكلة سمك تتجه إلى "خيزيران"، وفي أيام الصيف الحارة تتجه بك الخطى إلى "جباع" و"عين بصوار"..
فلكل بقعة من بقاع الأرض صغرت أم كبرت تراث مميز اعترفت به الأجيال على مر السنين، إن كبرت الحاجة إليه ازداد عدد القاصدين له، يشتهر ويُذاع صيته ويكثر روّاده، فيصبح مزاراً، و من الأماكن ما هو موسمي أو مرحلي، ومنها ما هو دائم لضرورة الاحتياج إليه، فالتجربة والممارسة يتولد منها حسن الاختيار...
فأينما تجولت في شوارع النبطية وأزقتها أو دخلت حوانيتها ودكاكينها، وجدت أسباباً كثيرة بل ومواصفات تجذب إليها كل من عاينها ولبَّت سد حاجته.
وبما أن مستلزمات الانسان متعددة، فتراه يخطط ويدرس سعياً وراء تجمع فيه عدد كبير من الاحتياجات وفي مساحات متقاربة حيث يجد فيها الضروري والمرغوب.
عوامل و ظروف ومسببات كثيرة متنوعة جعلت من النبطية حاضرة محورية، ومما ساعد بتنمية وتطوير المواصفات المتواجدة، التجمع الاداري الرسمي، الذي لربما كان السبب (في قدرة استيعابه للمقومات الأساسية والبنية التحتية المتوافرة)، الذي جعل من النبطية ما هي عليه، حيث تكاملت جميع حلقاتها لما يرضي جميع الرغبات وحسب "قدرة الميزانيات".

في موازاة هذه الأمور البسيطة التي تجمعت وتراكمت، كان هؤلاء الرواد البسطاء الذين تركوا تلك اللمسات العذبة التي يشدني الحنين دائماً إليها، فتجول في خاطري الذكريات، فالتاجر منهم أو النجار والحداد والحرفي وغيرهم... وكان منهم الماهر والناجح والمتميز والمشهور، هؤلاء كان لهم دورهم الفعال في المجال الاقتصادي، غير المنفصل عن عوامل خارجية، أضافوا إليه الحنكة والمهارة كغيرهم، وكان لهم دور أساس النهضة العمرانية والدورة الاقتصادية.

أحصنة الرهان الذين تميزوا، بالإبداع المجبول بالفطرة وجعلهم يختلفون عن غيرهم من أترابهم، لمسات عذبة فنية رقيقة، هم التراث، والتقاليد......

ففيهم ومنهم: نحيف الجسم ممشوق القامة رفيع الصوت، على رأسه طربوش مزخرف بربطة غبانية من حرير مقصّب، يرتدي قمبازاً مشدود الأزرار، يلتف بربطة (شملة) حول الخصر، ويعمل في حانوت لا تزيد مساحته عن بضعة أمتار مربعة، وفيه طاولة من خشب تتوسط المكان فتحتكر أكثر من ثلث المساحة، يقابلها ثلاث طاولات صغيرة اصطفت بينها كراسي خيزران مقشش، على كل طاولة إبريق من فخار مملوء بالماء.

واجهة من زجاج تسد نصف مدخل الدكان تنتهي حدودها عند طاولة الوسط، حيث يتكون معها من الداخل شبه ممر بسيط يفصل الحائط عن طاولة الوسط التي وضع عليها من ناحية الواجهة الزجاجية، سدر نحاسي، تراكمت فوقه مصفوفة بانتظام هرمي، أقراص المشبك المستديرة ، تتلألأ وكأنها الشهد، دوائر تتداخل بعضها ببعض في دائرة مستديرة تحسبها أساور من ذهب، متساوية الحجم وكأنها نسخ طبق الأصل من قضيب أسطواني مجوف الداخل من معدن تبر ثمين، منجمه طحين القمح مجبولاً بالماء، عبثت به أصابع فنان فحوَّلته بعد قليه بالزيت المغلي إلى ذهب يرتهج، و بعدها إستراحة قصيرة ليروح في كبوة بمغطس من سائل مزيجه سهل ممتنع (هو القطر).

وكما هي أهرام الجيزة ثلاثة، كذلك هي سدور الواجهة الزجاجية، فإلى جنب هرم المشبَّك ينتصب شامخاً هرم سدر من العوّامة(هي كالمشبَّك وتختلف عنه بشكلها الكروي)، إلى جانبه سدر ثالث من الفراكة.. وما أدراك ما الفراكة! سلسة المأكل طرية المضغ، بيضاوية الشكل، ملتفة حول نفسها، تتباهى بلونها العسلي، ونقوش خدها المحفور كالوشم.

تكتمل زاوية الأهرامات الثلاثة بمرج مستدير غطاؤه كالثلج، تناثرت فوق صفحته البيضاء و بصفوف منتظمة، حبيبات من الصنوبر المُحمَّر، وكأنها المصلون الساجدوين أمام أهرام هياكل الشمس- لله درها! ، هي المفروكة، ما أعظم تواضعها، وما يزيد من رفعة شأنها صفاء لونها وبساطة شكلها الفوّاح برائحة الزهر، جعلت منها لذة للناظرين وطيبة للآكلين، هي لوحة الإعجاز عند الفنان، مثلثّة الأبعاد، متعة النظر، إغراء الرغبة، لذة الطعم .
ليوناردو دفنشي وفان غوغ، أتحفوا العالم بلوحاتهم الفنية الرائعة التي تتوقف أمامها ساعات وساعات، بل أيام وأسابيع، دون أن يصيبك الملل! كلما نظرت إليها وجدت فيها الجد.. الجد، ما عليك إلآ أن تترك جماح خيالك ليسرح على هواه، ولكنك تعجز بأن تنال من هذه اللوحات أو تمتلكها، تنظر إليها بالمتاحف فتتركها بعد حين، سعياً وراء أعمال أخرى ومنها الغذاء والتلذذ بطعام تحبه، أما لوحات الفنان الحاج جواد فقيه ذات الأبعاد الثلاثة كما ذكرت، موادها الأولية طحين وسكر وماء (مع حفنة من الملح للحلال والحرام) وهذا متوافر ومتواجد بسهولة كما هو الورق والألوان والأقلام، ولكنَّ الإبداع وقدرة الفنان تكمن في سر كيفية الاستعمال والتطبيق، فأعمال الحاج جواد فقيه لم تكن مقتصرة على هذه الأهرامات الثلاثة ومرج الثلج، بل كان هنالك النمّورة والبصمة والبقلاوة والمبرومة والمعمول كسائر محلات الحلويات الشرقية، لكنَّ التراث النبطاني هو في التميز والتفرد بالمشبّك والعوّامة والمفروكة... لربما تم تصنيعها في محلات وبلدان أخرى، ولكنها ليست كما هي عليه في النبطية ولو تشابهت الأسماء.
مثيلات هذه اللوحات الرائعة تتواجد في محلات أخرى وفي النبطية، لكن التميز والتنفرُّد بالدرجة العالية كانت حكراً على الحاج جواد فقط لا غير دون سواه، لا يستحقها أحد غيره حتى ولو كان وريثاً له أو تلميذاً مجتهداً.

لم يتوقف التراث في هذه الناحية عند الحاج جواد فقيه، فعلى بعد خطوات قليلة من هيكل معبده الذي كان يمارس فيه نعمة الله عليه، هنالك ناسك متعبد آخر، يصنع ما انفرد بإتقانه وكان مميزاً ومنفرداً بالتميز، و أيضاً كان يغطي رأسه طربوش مزخرف بالربطة الغبانية أيضاً، ولكنه كان يرتدي سروالاً أسود اللون وقامته قصيرة، وعلى وجهه علامات الوقار والسماحة والطيبة هو الحاج السيد حسن يوسف بدر الدين، الذي كانت التمرية والسحلب وكاسات الزردة والمهلبية من كلمات دعائه وعلامات شكره لله سبحانه وتعالى، "التمريّة" مصنوعة من طحين وماء

ومغطس القطر، تتشابه طريقة صنع خليطها مع المشبّك والعوّامة، ولكنها مختلفة الشكل والمذاق والطعم ويضاف إليها الزّردة (مصنوعة من ماء وسكر وطحين القمح تم تكسير حباته برفق و بلا عنف).
"التمريّة" تظهر بغنج كطيف حبيب بخيل بوصاله عرف مكانته فازداد تدللاً ، يأتي طيفه مع حبيبات الندى عند الفجر، ويختفي بعد قليل من شروق الشمس فتزداد الرغبة إليه، "التمريّة" هذه العروس المتوّجة ملكة للجمال، يحيط بها وصيفاتها السّحلب والأريشه، لوحات إعجاز أحتكر السيد حسن يوسف إبداع تصويرها.
فرخ البطِ عوام، إلاّ في الفن والإبداع ولكن للقاعدة شواذ حيث السيد علي(ابن السيد حسن يوسف بدرالدين) ومن تراث أبيه انتزع لنفسه إمارة "النمورة" و مستوزراً على إمارة "الصفوف"، وفي حالة الغياب أو الانشغال، أبو حيدر عبدو جابر، الذي كان وزيراً موسمياً وبشروط خاصة هي كساد موسم تأجير البسكلاتات حتى يتسنى له الاهتمام " بالصفوف" دون سواه من موسم بسكلاتات وكبيس خيار.
جميع محلات الحلويات في النبطية تصنع " النمّورة والصفوف " الاسم واحد ولكن الشكل والطعم والمذاق مختلف وكذلك السعر.
تراث أصيل لا يتبدل ولكنه يتطور، وهذا ما حدث لصاحبة العصمة والبساطة: "المفروكة"، وجاء الديماسي بثورة تقدمية مستوردة المبادئ، وابتدع "المدلوقة" بدمج أوركسترالي ما بين "المفروكة والمهلبية" كما فعل السنباطي بدمج السيغا والنهوند الأصيل، ولكن النتيجة مستحدثة.
الفن مدارس ومتنوع وله فروع، ولكل مذهب من هذه المذاهب رائد متميز، ألوفٌ مؤلفة من الرسّامين والفنّانين رسموا اللوحات الزيتية، وكذلك الأكواريل فتميز قلة قليلة منهم حتى جاء بيكاسو، ذو اللمسات والحركات السريعة بالجديد الجدي، التشكيلي، كذلك كان" أبو معروف الطحطح"، فنان تشكيلي وعلى رأسه طربوش، يمزج الطحين بالماء في ركن من أركان منزله عند صباح كل يوم، وبعد الظهر يخرج لاستعراض فنه بثقة وثبات، وعلى طاولة من خشب لا تزيد مساحتها عن المتر المربع، و"طباخ" فرن ترابي الصنع، فيه فحم الحطب المشتعل بتكاسل، وصينية من نحاس مُبيَّض، وطنجرة صغيرة من القطر(السكر)، وعلبة صغيرة من السّمن الحموي، و"طارة" من القش عليها أقراص القطايف يغطيها شرشف أبيض.
يتخذ أبو معروف مركزاً له أمام دكان السيد قاسم حمادي "المختار ابن المختار" وسط الساحة العامة، ساعة من الزمن تمر وانتهى الأمر وإلى

الغد بأذن الله.... وحتى ولو كان الغد يوماً من أيام رمضان، فلا مانع من خروج ابو معروف المعتاد، مستغنياً عن مُصاحبةِ الطباخ الترابي والفحم وطنجرة القطر و علبة السمن، مصطحباً طارة القش وعليها الشرشف الأبيض، وفي فترة تقل ولا تزيد عن الساعة تنتقل لوحات أبو معروف إلى المنازل، على طريقة ما يستعمل في لغة تجار النبطية لبيع الشقق السكنية "التسليم على العظم والتشطيب على المشتري"، أو لما صارت عليه مستوجبات "التفرنج والبطر" وحداثة النعمة "الدليفري" ألوف مؤلفة من البشر تصنع القطايف، ولكن قطايف أبو معروف حازت على الامتياز المطلق، لها مواصفات خاصة بها إن كان من ناحية الشكل أو اللون الذي تكتسبه في مرحلة الصب والتحضير، والإبداع الفائق في عملية القلي ودرجة النضج....

يد أبو معروف هي الساحرة التي تركت لمساتها الفنية الغريبة الفريدة.

وبما أننا في الساحة العامة وبضع خطوات إلى الخلف، حيث مطعم السيد "ابو عفيف فحص" وأمامه براد البوظة العربية، لن ندخل إلى داخل المطعم فالفول والحمص واليخاني وغيرها موجود ومتواجد في كل مكان، بل التراث هنا قرب براد البوظة طريقة الصنع ليست ابتكاراً محلياً، بل مستورد وكذلك معدات التصنيع.. والجديد في الأمر هي طريقة التحضير والتنفيذ والمواد الأولية المستعملة ومهارة التجميد والدعك والدق حتى تتشكل البوظة وكأنها مزيج من قشطة أو مَرهْم تتماسك ذراته بفعل قساوة التجليد، والمشهور في هذا المجال هو بوظة الشام في سوق الحميدية ولكن بوظة "ابو عفيف" هي الأسهل منالاً، ولا ينافسها إلاّ بوظة سميح عيسى وأخيه حلمي؛ إذهب حيثما شئت الى اليمين أو إلى الشمال من الساحة العامة، فستكون راضياً مرضياً بعد تناولك قمع أو كاسة من البوظة على حليب أو على شوكولا أو على فستق أو على ليمون فلك الخيار.

على جوانب الساحة العامة تنتشر بسطات الفلافل، ليست تراثاً حكرياً على النبطية، لكن لها سمعة ونوعية، تنافس المشاهير في هذا المجال، أبو العبد بيطار وأبو فايز، وغالب العجمي، ومنيف فحص، ليسوا بأقل قدراً من "فريحة" أو "صهيون" وبما أننا دخلنا في بند "الفاست فود" فلنذهب إلى الأورينتال لزيارة العم أبو فوزي؛ النوعية والخدمة والنظافة، تتساوى مع أشهر محلات السندويشات المشهورة.

ولكن التراث النبطاني الكل المتكامل، هو شخصية العم محمد نجيب عيسى، شخصية الرجل وإدارته ومعرفته ولياقته وسرعة بديهيته وحديثه، هنا التمييز الخاص الذي لا تجد له مثيلاً، كل سندويش وكل زبون له اسكتش

وطريقة حوار ومعاملة، مرت أجيال وأجيال والعم أبو فوزي يواكب كل جيل بتطور دائم، ولكل منهم سيناريو و حوار لا يتكرر، يطول الحديث عن العم أبو فوزي، ولكن لإثبات تواجد صفة التميز التراثي، لا بد من متابعات أخرى لاحقاً.

أينما توجهت في النبطية وأسواقها، وقعت عيناك على أعمال مميزة لا تجد لها مثيلاً في سواها من البلدات والقرى وحتى في المدن الكبرى، إبداع وحذاقة ومهارة هي في السهل الممتنع، إن من ناحية التنفيذ أو خلط مواد متوافرة بسيطة، أمتدت إليها أياد مهرة، لرجال بسطاء وبمعدات تصنيع بدائية توارثوها عبر عقود وأجيال، حتى أصبحت منتوجاتهم لوحات من الفن الرائع، أكسبتها الدقة والمثابرة شهرةً، صارت مع مرور الزمن عنوان ثقة مستهلكيها من أبناء البلدة والجوار.

برنـــارد شـــــو

المكان ساحة النبطية والزمان في مطلع الستينيات في أوج عهد المكتب الثاني، الوقت الساعة العاشرة ليلاً من شهر شباط، حالة الطقس شديد البرودة ممطر.
الرؤية مظلمة، والنبطية في هدوء تام والناس نيام ولا يعكر الصفو إلاَّ صوت سيارة جيب عسكرية، تتوقف فجأة أمام مطعم العم أبو فوزي، المكان الوحيد المضاء، على طول الطريق منذ مغادرتها مدينة صيدا، صوت "أم كلثوم" ينساب من مسجل كاسيت ودخان سيكارة "اللوكي سترايك" يملأ أرجاء المكان، دخل الجندي، سائق السيارة، ألقى نظرة إلى داخل المكان، ثم خرج وعاد مسرعاً وبصحبته رجل طويل القامة، عليه هيبة الوقار يرتدي معطفاً عسكرياً، مكشوف الرأس لا رتب عسكرية ظاهرة تدل على رتبته، وبلغة الأمر العسكري الشديد اللهجة صرخ المهيب: وشو عندك حتى نأكل، حضّر لنا "شوية" سندويشات، استعرض العم أبو فوزي ما لديه وبعدها تم الاختيار.
وفي خلال فترة التحضير، راح الرجل المجهول، يجول بنظره في أرجاء المكان وكيفما أدار بصره وجد صورة لجمال عبد الناصر، راح ينظر بدهشة إلى العم أبو فوزي وبخلفه رسم صورة لجمال عبد الناصر كبيرة الحجم، أشار المهيب بيده للصورة، وصرخ في العم أبو فوزي : صورة مين هذه!؟، فلم يلتفت العم أبو فوزي إلى المكان الذي يدل عليه الرجل الغامض، بل استمر بالاهتمام لما بين يديه، مبتسماً ضاحكاً من هذا السؤال السخيف، مجيباً بإستهزاء تام على من لا يعرف عبد الناصر، وقال له: صورة معبود الجماهير وحبيب القلب و......
امتعض الرجل المبهم وتطاير الشرر من عينيه، وخرج من المطعم وصعد داخل الجيب وبعدها لحق به السائق الجندي بعد أن أخذ السندويشات، والعم أبو فوزي لا يبالي ولا يهمه هم! بعد فترة يومين توقفت الجيب العسكرية ذاتها ونزل منها الجندي نفسه، ولحق به العميد "سعيد" قائد منطقة الجنوب العسكرية- وكان من كبار ضباط المكتب الثاني.
دخل الجندي إلى المطعم وقال: يا محمد نجيب رشيد عيسى رجعلك العميد سعيد حتى يُربِيك، أدرك العم أبو فوزي خطورة الموقف فأشعل سيجارة لوكي من أخرى، وانتصب خلف الكونتوار وفوق رأسه ما تزال صورة جمال عبد الناصر كما كانت عليه بالأمس؛ دخل العميد "سعيد" المطعم

صارخاً: صورة مين هذه ؟، وعلى الفور وبالسرعة القصوى امتدت يد العم أبو فوزي إلى صورة عبد الناصر وانهالت تكسيراً بها، وهو يردد: معبود الجماهير وحبيب القلب و... كفرت فيه وصرت أكرهه وخلصنا، كفرت فيه وصرت أكرهه.
فتبسم العميد "سعيد" ضاحكاً وقفل راجعاً إلى الجيب العسكري.
المرور على مطعم العم أبو فوزي كان محطة حتمية قبل ابتداء العرض في السينما أو بعد انتهاء الفيلم، فمشاهِدُ السينما يمر بالمطعم إما قبل الذهاب إليها وإما بعده، وللعم أبو فوزي، ذاكرة خارقة، فكل زبون يأتيه يعرف أصله وفصله.
كان يداعب زبائنه ويلاطفهم زبائنه بالمزاح والهزار ويعطي كل واحد قدره، وكان على صلة وطيدة مع "شلة" من شباب كفررمان، وكان يناديهم بأولاد " سيدنا البيك".
بعد تعيين الأخ العزيز أبو علي في الأمن العام ولبسه للبدلة العسكرية وعلى وسطه المسدس الأميري، قام أصدقاؤه "من الشلة" بدعوة الأفندي و الذهاب إلى النبطية لحضور فيلم سينما، بما فيها المرور على العم أبو فوزي لكسر السفرة دخلت "الشلة" إلى المطعم فأرتفع صوت العم أبو فوزي: أهلاً وسهلا بأولاد سيدنا البيك، فتقهقه أعضاء "الشلة" المعتادين على ذلك إلاَّ الأفندي انزعج من ذلك، واقترب من العم أبو فوزي للتحقيق والتأكد، فقال له: شو عم بتقول، والغضب الصاعد من عينيه يعلن حدوث مشكل مؤكد، تبسم العم أبو فوزي، وبسخرية قال له: كلنا في منطقة النبطية أولاد سيدنا البيك، إطلعَّف فيَّ بشرفك ما بشبه عزات؟
" عزات هو أحد أنجال البيك وكانت ملامح الشبه بينه وبين أبو فوزي متقاربة"
مرت أحداث مؤلمة على النبطية وتهجَّر أهلها ولم يبق فيها إلاَّ القليل القليل، ومنهم العم أبو فوزي، رغم تهجير أفراد عائلته، فالعم أبو فوزي والسيد أبو حسين حسن حامد لم يغادرا النبطية في فترات التهجير مطلقاً، و كان معهم عدد قليل وقليل جداً، وبقي مطعم العم أبو فوزي مفتوحاً وبكامل نشاطه، حيث إن مقاتلي المقاومة الفلسطينية كانوا موجودين بكثرة في هذه الأثناء، وكان المطعم بالنسبة لهم من المستلزمات الضرورية، وخدمة العم أبو فوزي شبه مستمرة من فجر اليوم حتى منتصف الليل دون توقف أو انقطاع ، وفي أحد الأيام عندما حضر العم أبو فوزي في حوالي الساعة الخامسة صباحاً وهمَّ بفتح باب الحديد، أستدرك بأنه قد نسي علبة الدخان بالبيت، فأعاد قَفْل الباب يريد العودة إلى البيت، وحوله مجموعة

من الشباب الفدائيين تنظر باستغراب شديد، فقال له أحدهم: "خير شوباك" قال العم أبو فوزي: بدي إرجع على البيت حتى جيب علبة الدخان بعدني ما شربت قهوة خمس دقائق وأعود؛ عندها تبرع أحدهم بأن يعطيه سجائر وأن يصرف النظر عن ذلك، ولسوء الحظ، فالعم أبو فوزي لا يدخِّن إلاَّ "لوكي سترايك" وبدون فلتر، ولا أحد من الموجودين معه هذا الصنف، عندها أصر العم أبو فوزي على الرجوع والعودة، هنا راح أحد الموجودين يقنع العم أبو فوزي قائلا: أبو فوزي عمي الرجعة ما منيحة، فنظر إليه العم أبو فوزي وقال: ما دام الرجعة مش منيحة ليش خربتوا بيوتنا حتى ترجعوا؟

عمل العم أبو فوزي لفترة طويلة في دولة الكويت، في عهد الفورة الأولى وأكتشاف النفط فيها، وكان يمتلك مطعماً، و في عصر كل يوم كان يخرج سيخ الشاورما إلى رصيف الشارع أمام مدخل المطعم، فتتجمع حوله كثرة من الزبائن، والكل مستعجل، وأبو فوزي منهمك بقص اللحم ولف السندويش وملاطفة الزبائن؛ يهدىء هذا ويمازح ذاك، ويلقي بلوم التأخير على عامله الهندي بالقول إنه بطيء لعدم إلمامه باللغة العربية، ولكنه يطقن اللغة الكرشونية بطلاقة تامة، مما يثير من قهقهة المنتظرين وينسيهم التململ من طول فترة الانتظار"النطرة"، وفي إحدى هذه الحفلات اليومية الدائمة، حضر صاحب الدكان المجاور(لمطعم العم أبو فوزي) مهرولاً وبلهفة شديدة، وبلهجة غزاوية، صائحاً بأعلى صوته (أبو فوزي بشارتي عندك، أجاك يا خو مكالمة "من لوبنان" ومبروك إيجاك صبي وسموه ناصر) التفت إليه أبو فوزي وشكره وسيجارة اللوكي بين شفتيه وقال له شو بتأمر تكون بشارتك، فتمنى عليه أن يهديه بنطلوناً وصباطاً من لبنان، عندها نظر إليه العم أبو فوزي وسأله: (قديش نمرة إجرك؟) فأجاب المبشر: تلاتة وربعين، عندها رمى أبو فوزي سيجارته من فمه وقال له: اعمل معروف أطفي السيكارة !

في ليالي الشتاء الباردة، وخلال تواجدي في النبطية في فترات الأعياد والفرص، كانت السهرة عند أبو فوزي تبدأ بعد العجقة السينمائية وحركة الزبائن، ويقوم العم أبو فوزي بتحضير الأطباق المازاتية الخاصة، ويتصدر الطاولة بعد إقفال باب المحل من الداخل، ومع تناول الطعام وغيره، يسترسل العم أبو فوزي بخبرياته، من" هب ودب" وعن شجرة الكوسى التي كانت عند عبد الحسن أبو قاسم سلوم، والتي كانت تمتد فروعها لتحيط بكامل حي السراي وصولاً إلى بيت أبو خزعل!، وعن قسم اليمين الذي كان يقسمه أبو قاسم حيث كان يقول: وحياة خمسين جمل وكل

جمل محمل عديلتين قمح وكل عديلة فيها مليون حبة وكل حبة بتقول لاإله إلاَّ الله، وبولادي مش ربحان ببيعة ها " الكر" أكثر من " وتكة " (أبو قاسم لم يكن يعني أبناءه بكلمة بولادي؛ (بالعامية: بولادة قطعة من البولاد كانت معلقة في رقبته ومثلها بقبضة بعكوره)

ومن الخبريات الخيالية خبرية صراع الذئبين، حيث اصطاد ذئب عنزة من قطيع أحد الرعيان، وعندما همّ بأكلها، هجم عليه ذئب آخر، يريد مشاركته فيها، فأعترض الذئب الصياد، ودب الصراع والاقتتال بين الذئبين، وراح كل واحد منهما ينهش من جسد الأخر، حيث لم يتبق من جسدي الذئبين إلآ الذنبين؟؟

هل تجد صاحب مطعم له سرعة البديهـة! يشبه قلباً وقالباً " برنارد شـو"

عيد باية حال عدت يا عيد

في كل عام و عند حلول شهر رمضان، يزداد بي الحنين إلى النبطية ليس شغفاً، بأكلة قطايف من عند أبو معروف، ولا لهفة لمنقوشة رمضان عليها حبيبات السمسم، ولكن لما كانت تسير عليه تصرفات وتقاليد وعادات الجميع بلا استثناء، حيث لا يتقيدون بمواعيد واحدة منذ بدء الصيام و موعد الإفطار اليومي، إلى نهاية الشهر واعلان يوم العيد.
ففي النبطية يُترك تحديد أوقات مواعيد هذه الفترات، لسماحة الشيخ الذي كان بدوره يحرص كل الحرص على تقييم الأمور. فوحدة الصف، هذه كانت بديهية ولا نقاش فيها، لأنها صادرة من مصدر ثقة.
وقفة إلى ما يدور كل عام في فترة شهر رمضان في أنحاء العالم الإسلامي، ففي كل عام هناك جدل و إختلاف على بداية الشهر المبارك، ويستمر ذلك إلى نهاية الشهر وإعلان يوم العيد، رغم أن رؤية الهلال وإمكانية تحديد بداية الشهر تكون واضحة في أغلب الأحيان.ففي كثير من المرات، حيث يحتفل البعض في أول أيام العيد، يُرى الهلال وهو ابن ثلاثة أيام، وهناك البعض الآخر يحتفل بثالث أيام العيد والهلال في يومه الأول جهراً وبالعين المجردة، إلى كل من يريد التأكد والتدقيق.
فلا تسمع ولا يتجرأ أحد أن يقول بأن الدولة الفلانية قد أخطأت تقدير بداية الشهر، يصبح الهلال بدراً ويكتمل عمره على أربعة عشر يوماً والناس يتجاهلون الخطأ، الطامة الكبرى في إعلان يوم العيد.
ففي عصرنا الحاضر أمور كهذه أصبحت محسومة علمياً ولا جدال فيها، فلها حساباتها العلمية ولها مراكز رصد مجهّزة بأحدث المعدات والآلات، أضف الى ذلك الأقمار الإصطناعية المنتشرة في الفضاء التي تقوم برصد كل شاردة وواردة في هذه الأمور والمعادلات، نحن والحمدلله في الدول العربية نملك، بقدرة الله ونعمته علينا، كثيراً من هذه الإمكانيات التقنية الحديثة.
عندنا أقمار الإصطناعية لبثّ والتقاط الفضائيات، وعندنا العديد العديد من العلماء والفلكين المتخصصين، إن لم يكن في جميع الدول العربية، بل على سبيل المثال في أكبر دولتين أو ثلاثة دول إن كان ذلك على صعيد عربي او إسلامي المملكة العربية السعودية، ومصر وإيران، فلتعمل هذه الدول لمرضاة الله سبحانه وتعالى في سبيل توحيد كلمة الصف الإسلامي في أمور بسيطة كهذه، متناسية مواقفها الدنيوية مترفعة عن خلافاتها

السياسية... هذه الحادثة المتكررة كل عام حملتني للعودة إلى النبطية عبر ذكريات لا تُنسى، كان ذلك في أول أيام عيد الفطر المبارك، وصادف يوم الأحد مما ساعدني بتمضيه يوم العيد في النبطية (كنت أعمل في بيروت واقتديت بفتوى دار الإفتاء المعلنة مساء يوم السبت) توجهت إلى النبطية في صبيحة نهار الأحد، وقمت بزيارة جدي الحاج حسن وتهنئته بالعيد، فراح معاتباً لي بالتسرُّع موجها لي الملامة، لأن الشيخ لم يثبت لديه شرعية رؤية الهلال.

وبعد حوار أشبه بالجدل والمماحكة، وبحضور الحاج أبو قاسم المختار، تعلمت أموراً كنت أجهلها في هذا المجال.

فثبوت رؤية الهلال يجب أن تكون مقرونة بشهادة (والعلم عند الله) أربعين شاهد ممن يُعرفُ عنهم التقى والاستقامة، وعلى أن تكون الرؤية بالعين المجردة، هذا هو الشرع والشريعة السمحاء.

ازداد لدي الفضول، فتوجهت عصر ذلك اليوم إلى المجلس في الحسينية لأكتسب معرفة حول الموضوع، سماحة الشيخ راح يعد العدة لهذه العملية، وأجرى تعليماته بتوجيه الوفود: وفد إلى مشارف بلدة الصرفند، وفد إلى مشارف بلدة أنصار، ووفد إلى مشارف بلدة شوكين، ووفد إلى بلدة عين بصوار..

وجميع هذه الوفود مؤلفة من رجال أفاضل لا ريب ولا شك بمصداقيتهم واستقامتهم، (شهود عدل لا يقل عمر أصغرهم عن ستين حولاً).

وبدأت فترة الانتظار والتوقع، فمر الوقت بطيئاً، والجميع وكأن على رؤوسهم الطير. مصر والسعودية وبيروت والشام قد قضوا أول يوم للعيد، والنبطية وعدة بلدات أخرى، وعدد قليل من الدول ما زالت تنتظر، وبعد انقضاء صلاة المغرب بدأت الوفود بالعودة، وراح التحقيق والتأكد يأخذ مجراه الشرعي بدراسة مصداقية الشهود وحسن الرؤيا بالعين المجردة، ابتدأ العد إلى أن حضر المرحوم أبو خليل- العم جواد فران، وأعلن لسماحة الشيخ بأن الحاجة أم محمد رشيد نصَّار قد شاهدت الهلال وهو إبن ليلته، تعالى في أرجاء المكان التهليل والتكبير، فرؤية الحاجة أم محمد لا تخيب، ولكنّ شهادة المرأة الواحدة في الشرع لا يؤخذ بها للحسم والجزم، ولا تعتبر كشاهد أساسي، فالحاجة أم محمد رشيد كانت موضع ثقة، فالمرأة فاضلة مؤمنة صادقة ألهمها الله وهداها إلى طريقة معينة، وخصها بقوة خارقة للبصر والبصيرة، كانت في كل عام تنظر إلى الأفق باتجاه معين حددت أبعاده بما ألهمها الله، وكانت صادقة ومشهود لها بذلك على مر السنين.

هذه واحدة من المخلوقات و الرموز لوجه النبطية الصادق الذي أحببته، ففي كل مجال تجد وجهاً من هذه الوجوه يشدّك إلى هذه البلدة، التي جعل الله لها سحراً مميزاً فيه من الطرافة والبساطة والعذوبة ما يترك ذكريات حلوة تعود إليها الذاكرة عبر الماضي، وفيها ما يدفعني، (عند تهميشها أو تغييبها أوغيبتها) إلى الحسرة والحزن والإبتعاد عن هذا الواقع، وهذا القليل من الأمور التي يصرفني عن التفكير بالعودة.

النبطية التى أعشق وأحب تغيرت معالمها، ولربما نحو الأحسن والأحدث (بحسب نظرة الكثيرين من أهلها) ولكنني لم أزل على موقفي، قد غابت عنها هذه الأجزاء التي كانت جزءاً من كياني، (لا إعتراض على ما اراده الله، هذه سنة الحياة)

لقد بدلت الحرب معالم التصرف بالعواطف، فراحت تلعب بها المنفعة، سُرقت مرابع طفولتنا، واندثرت معالم أحلامنا، وغاب بل اختفى رباط الوصل ما بين الذكريات والواقع وبقي الحنين.

الحنين إلى مسار كل يوم من أيام رمضان، ونحن أطفال نسير بمواكبة مدفع الإفطار الرمضاني، كنا نتجمع في ساحة حي السراي (أسفي وخجلي ممن ساهم بهدم دار السرايا القديم)، نسير خلف ولي العهد علي كالوت، سعيد الحظ حامل أسطوانة المدفع، ووالده كالوت بشاربه المنتصب المعكوف وخيزرانته التي كانت كوترٍ كمان يعزف نغماً كلما اهتزت، ملوّحاً بها للفت نظر حاشيته المتمثلة بموكبه المرافق.

كالوت حالة خاصة، له رهجة و هيبة حين يخترق الشارع متوجهاً نحو البيدر، ونحن نركض ونتسابق لنكون على مقربة من هذا القسطل الحديدي المحشو بالبارود وقصاصات الجرائد.

يتكاثر المواكبون، تمتلىء ساحة البيدر أطفالاً ويرتفع الصراخ و تعم البهجة على وجوه الجميع.

المارشال كالوت يتقدم المسيرة إلى أن يصل إلى جانب البيدر، حيث الدراجات الأربع، المقابلة لمدخل المدفن_الجبانة، قرب جذع شجرة ضخم مزروع بانحناء بسيط يرتفع رأسه حوالي نصف المتر عن أرض البيدر، ومؤخرته مدمولة بالتراب المرصوص، فالأمر مدروس بدقة: إنحناء الجذع له معادلة، وكذلك الفرزة المحفورة فيه، لها مقاسها المحسوب، لتستوعب القسطل وتحتضنه كوسادة وتضمه إليها ضمن حلقات حديديه، لضمان تثبيته وعدم تحركه من موضعه المقرر له، عملية وضع القسطل داخل الجذع المدمول من العمليات التقنية الدقيقة، لذا وجب على الفضوليين الابتعاد وإلاّ نغمات خيزرانة المارشال كالوت تتحول إلى

أوجاع وصراخ، الشتيمة والإهانة لا محال واقعتان لمن تسول له نفسه الاقتراب، فالمنطقة التي هو فيها محظورة على الجميع و ممنوع الاقتراب، إنها منطقة عسكرية، ذلك معلوم ومعروف لدى الجميع، وتبدأ عملية التحضير عندما يقوم الأميرال كالوت بتحضير عجينة ترابية، ويصنع منها ما يشبه قمع يُدخل ثقبه في آخر القسطل الأسطواني ويملأه بالبارود الأسود ويغلِّفه بقصاصة من ورق الجرائد، الصاروخ عابر القارات صار جاهزاً والأميرال يلقى لمساته الأخيرة، وعينه شاخصة نحو مئذنة الجامع، فور انارة اللمبة في زاوية المئذنة، وبسرعة البرق يقوم الأميرال بإعطاء الشعلة فيبدأ البارود بالاشتعال، بعدها بلحظات ينطلق مدفع الإفطار مع نداء: الله أكبر، فيرتفع صراخ المشاهدين بهجة، وتتناثر قصاصات الجرائد وكأنها فراشات، ورائحة البارود المشتعل تملأ أرجاء المكان، وأنتهى العرض اليومي، فيحمل الأميرال كالوت قسطله الحديدي وينسحب دون أن يعير إهتمام أحد من المشاهدين الذين يغادرون المكان، فيتوجه نحو مدرسة الزهراء ليعكف عائداً من الشارع الخلفي ليختصر المسافة إلى بيته، فلا مجال للاستعراض والمرور في ساحة السوق، فالمهمة إنتهت وإلى غدٍ مشرقٍ عزيز. يستعيد كالوت رهجة مروره نحو البيدر وبالموكب المألوف طوال الشهر المبارك، إلى حين صدور قرار العيد، بعدها مباشرة يتم إعلام المارشال المتأهب و المستعد بكامل عدته وعتاده، وبعد وصول رئيس الأركان المارشال إلى ساحة البيدر سراً يتم الإشهار عن العيد.

مشهدٌ يومي على مدى ثلاثين يوماً، و في نهاية الشهر تطلق ثلاثة مدافع متتالية، يتبعها إعلان العيد من مكبرات الصوت بالأذان وقراءة القرأن، ويُزَفُّ الخبر إلى سكان البلدة .صوت مدفع الإفطار كان يملأ قلوبنا برعب شديد، مصحوب بخوف، وهومدفع صوتي فقط لا غير.

تحية وتقدير إلى أطفال قرانا في الجنوب عامة، لقدرتهم على تحمل ومعايشة مدافع إسرائيل المرعبة، فتحول التحمل صموداً وشهامة في نفوس جميع أهالي الجنوب. هذا التحول في قدرة الصامدين، والأبطال المدافعين الذين أعادوا العزة والكرامة لربوع لبنان بأجمعه .

فرحة العيد في النبطية وفي سائر أنحاء الجنوب قد سُرقت، ونشأت أجيال جديدة لا تعرف معنى العيد، حَرمتها أيدي الغدر البهجة فسلبتها إيّاها، ولكن الذكرى بفرحة العيد ما زالت في قلوب من عاشوها.

في صباح العيد تستيقظ قرانا باكراً باتّجاه زيارة الأحباب الذين غيبتهم يد المنون، أول بند في البرنامج اليومي، وبعدها تبدأ بهجة الأطفال بإرتداء

الملابس الجديدة وانتعال الأحذية اللماعة؛ وتأتي مرحلة تحصيل الحق المشروع من المؤونة المادية، جولة السعي هذه فيها أجر ونجر، بعدها يكتمل النصاب على بيدر النبطية، بين هتاف بائع المهلبية وترغيبة الصحن بفرنك، ودعوة مضاعفة الرأسمال الفرنك بربع "جرب حظك"، وسط فرقة فرد الكبسون ومدافع الفتّيش، صراخ أبو شوقي فيصل ضاهر، وانتظار الدور أمام مراجيح الجوني وشقليبة الملاّح الجديدة أو جولة في سيارة أبو حبيب مشلب لمن استطاع إلى ذلك سبيلاً، فالراكب فيها بربع ليرة وهذا وحده ميزانيه...... يستمر النهار في التنقل من بسطة إلى أخرى، ومن عرض الى آخر.

فالبطن مملوء ومحشوّ فلافل ومهلبية ومثلجات، فلا وقت للغذاء سبق الفضل ولا مجال لإضاعة الوقت، ليس هناك متسع منه للقيام بسائر الشهوات والرغبات. فالبرنامج حافل و"اللي سبق شم الحبق" أمام دكان "أبو عدنان صباح"، المتاخم للبيدر، واستئجار حافلة عابرة للحارات (بسكلات)... أبو عدنان شروطه قاسية، فهو المتخصص الوحيد ولديه أحدث أسطول، ولا مقدرة للجميع بالقبول بكامل بنود العقد التأجيري، ليس فقط لصرامة الشروط بل غالباً للكلفة العالية، لذلك تتجه بعض الوفود نحو دكان "أبوحيدر عبدو جابر"، و هناك الانتظار مملّ، لأن الطلب كثير وعدد البسكلاتات محدود، ولقتل الملل تأتي التسلية بصحن كبيس أو بقطعة من الصفوف من مصنوعات العم أبو حيدر، فمراطبين مخلل الخيار مصفوفة تثير الإغراء، ويد العم أبو حيدر تنتقل بخفة وسرعة من مرطبان الكبيس إلى جنزير بسكلات لمرغه بالشحم أو إلى منفخ لنفخ عجلة بعد تلحيمها وإصلاحها، آثار الخل ومَرَقة المخلّل تلطّخ أجزاء البسكلات، مراطبين المخلل من الخارج وسدر الصفوف عليها آثار الشحم، وبقايا زوم الخيار لذة للشاربين، بعد أن يكون الخردل قد أشبعه نكهة وطعماً، فإن خاب الأمل عند أبو حيدر فلا ريب بنيل المرام عند قريبه الحاج قطيش قرب البيدر... أعراف وبروتوكول وقواعد عدة عند مؤجري البسكلاتات، عند الحاج قطيش استئجار بسكلات يصحبه قطعة من المشبّك أو شعيبية أو قرص قطايف من تصنيع الحاج قطيش شخصياً لما لديه من تقنية بارعة وخفة في صب المشبّك وتصليح البسكلاتات، دون المرور بمرحلة الما بين بين، فالوزرة كافية لرفع آثار الشحم ولتمويه آثار القطر والعجين عن هذه الأيدي الرشيقة؛ فتلبية رغبات الزبائن والسرعة في ذلك، هي شعار المؤسسة، والنظافة والوقاية الصحية لها دورها الفعال، فقطعة الحلوى لا تباع إلاّ وهي ملفوفة بورق جرائد أو مجلات، والنهم عند الزبون يولد

داخل جسده مضادات حيوية تقوم بقتل جميع الميكروبات. لم يحدث أن أُعلن عن إصابات خطيرة وإلتهابات إلاً عن حالات نادرة لعسر هضم، و تهشم في كواحل الأرجل عند البعض فتظهر فقاقيع التهاب، سببها ضيق الحذاء بعد ورم في الأرجل من كثرة المشي طوال النهار... هذه العوارض لا تظهر إلاً بعد اليوم الثالث من العيد ولا علاقة لها بما يدخل الجسد من الفم فالأمر عابر ولا رادع له إلآ نفاذ ذخيرة الجيب، المضاد الحيوي الناجع.

ساعة الحسينيـة

في النبطية و كسائر الشرقيين، نحن في صراعٍ دائمٍ مع الوقت.
منذ القدم أعلنّا النضال والكفاح في سبيل المَواعيد الدقيقة، والانضباط، وحتى يتم تحجيم هذه المشكلة والتخلص منها رحنا في ابتكار الطرق العلمية واستعمال جميع طاقاتنا المادية وتوظيفها في سبيل ذلك.
ومن التجـارب والخبرة " لكي يحضر لعنـدك الدكتور جهاد جابر بلا تأخير ولا طول انتظار، ملبياً دعوتك له على العشاء، فما عليك إلا توجيه الدعوة إليه على الغذاء، فحتماً سيكون حضوره في الوقت المناسب للعشاء.
ابتكارات وطرق حديثة نستعملها لتصحيح الأخطاء الناجمة عن التأخيـر.
و منها على سبيل المثال بديهية "عادل حيدر علي" وبدعتـه المشهورة.
حصلَ فتية من ربعِنا، على عقد عمل في المملكـة العربيـةِ السعودية، وفي الخمسينات كان ذلك من الصعوبة بمكان ولا ينالـه إلاَّ كل ذو حظ عظيـم.
في اليوم المحدد للسفر، وقبل ساعات من موعده، توجه الفتية إلى ساحةِ النبطية سعياً وراء وسيلة للنقل، فسيارات الأجرة تخضع لنظام صارم من قبل القيمين على " كاراج الاتحاد" لا إعتداء ولا تعدٍ على"الدو". وحرصاً على قدسيته، كان وجود الأميرال" شريف فحص"، ورئيس الأركان" أبو يوسف، "ورئيس سرية القمع" محمد فحص"، و ذلك تحت إشراف رئاسة القيـادة العامـة المشتركـة للكاراج "أبو أحمد وأبو رائف"، والويـل ثم الويل لمن تسوِّل له نفسه من سائقي المركبات مخالفة القوانين، عندما يكتمل عدد ركاب المركبة الخمسة يعلـن عـن إقلاعهـا ويأتي دور من بعدها، ليس هناك أيُّ تحـديد للوقت، الاقلاع مقرون بالرغبـة والتواجـد وإكتمال العدد، من لديه الرغبة وجب عليه أن يتواجد داخل السيـارة منتظراً اكتمال العـدد، وأن ينسى أن هناك مهلة أو مدة للانتظار، وعليـه بالصبر والصبر، فقد وقع عليه الحد، لا مجـال للتراجـع، إن كانت لديه نية الذهاب إلى بيروت والمحافظة على كرامتـه.
وصل الفتية، إلى الساحةِ في ساعة مبكـرة من صباح اليوم المحدد، وما عليهم إلاَّ انتظار الـدور وإكتمال العدد اللازم والرزق على الله.
بعد الجهد يكتمل العدد ويستدعي قائد المركبة للإقلاع بعد الإعلان عن الأجرة المتوجبة عن كل راكب من قبل الإدارة التي هي "غير مسؤولة عن حوائجِ الركّاب".

ولسوءِ الطالع ازداد ضياع الوقت بالانتظار بعجقة السيرِ ما بين الزهراني وصيدا، بعد جهد جهيد، وصلت المركبة بقيادة قبطانِها الهادئ الطباع إلى أول أتوتستراد "الأوزاعي" بمواجهة "راديو أوريان". في تلك الأيام كانت هذه المنطقة شبه مهجورة تحيط بها الرمال وعلى يمينها مدارج مطار بيروت الدولي، وعليها تحط وتقلع الطائرات من جميعِ أنحاء العالم ولجميع شركات الطيران، عندها كان مطار بيروت محط أَعجاب العديد، لما كان عليه من مواصفات آمنة لسلامة الطيران.

نظر أحد الفتية المغادرين إلى ساعة السيارة وهي تمشي الهُوينا، فراح صارخاً مضطرباً: لم يبق إلاَّ حوالي خمس عشرة دقيقة لإقلاع طائرة السعودية، عندها راح راجياً من القبطان "عادل حيدرعلي" الإسراع والعجلة، فمال عليه العادل ببرودة أعصابه وهدوء حديثه الرصين، معلناً: ما حيتغير شيء.. طيارة الميراج من هون للمطار بدها أكثر من ربع ساعة، وراح يشرح للسادة المسافرين بأن هناك جمارك و أمن عام، قبل الوصول إلى درج الطائرة، وفي خلال فترة الحديث والحوار، وبما أن "عادل حيدر علي" هو من أبناء النبطية البررة الذين لديهم دائماً طريقة مستنبطة لمعالجة أمور التأخير والتدبير في حالات مماثلة، فأشار بيده بعد أن أوقف السيارة إلى جانب كورنيش الأوزاعي، مقابل مدرج المطار، وراح يشرح بأن المسافة الفاصلة هي عدة أمتار، يتم عبورها ببضع دقائق، وليس هناك حواجز ولا عوائق، إلاَّ عبور هذه الأمتار الرملية، بعدها يكون العابر المستعجل أمام سلم الطائرة، وعلى هذا تم القرار و عمل المستعجلون بنصيحته.

حدث ما حدث ووصلوا إلى أرض المدَّرج، تنبه المشرفون في برج المراقبة للأمر، وعلى أثره راح المسؤولون عن سلامة الطيران المدني، وقوى أمن حماية المطار، يهرعون نحو من خَّولت لهم أنفسهم وانتهكوا حرمة المطار وتعرضوا للخطر، تم إلقاء القبض عليهم، وبعد التحقيق والتأكد، ستجلبت قوى الأمن عادل أفندي.

ولم يتم إنشاء سور ولا شريط شائك لحماية المدارج، وانتهت الأمور محسومة بعد أن ثارت الحمية البعلبكية، نظراً لضرورة تجمع أهالي العشائر، امتدت منطقة الأوزاعي السكنية جنوباً نحو حرم المطار، وتم بناء منازل مصفوفة جنباً إلى جنب، ولكن من طابق واحد أرضي في البداية، وكان الحل العلمي الحديث لحماية مدارج المطار من تسلل المتطفلين والمستعجلين ومنعاً لتقريب المسافات .

لبنـان بلـد سـياحي مهـم، ومـا يجلـب السـواح إليـه قلعـة بعلبـك ومـا حولهـا، واللبنـاني مبـدع شـديد الـذكاء، يضـرب عصـفورين بحجـر واحـد، وهـذا مـا نعيشـه فـي القـرن الواحـد والعشـرين، السـائح القـادم إلـى لبنـان يقـوم بجولـة جويـة فـي شـوارع بعلبـك قبـل أن تحـط طـائرتـه علـى مدَّرج مطـار بيـروت الـدولي، وهـذا مـن معجـزات القـرن فـي تقصـير المسـافات، (بعـد انـدلاع الحـرب الأهليـة وفـي فتـرة حـرب السـنتين، مـا سـماه الأسـتاذ غسـان تـويني "حروب الآخرين على الأرض اللبنانية"، تم اختفـاء البعض من تجهيزات مطار بيروت، ومنها السلالم التي كانت تستعمل لصعود ونزول المسافرين من وإلى الطـائرات، شـاهدت بـأم عينـي سـلالم عديـدة وعليهـا شـعار شـركة الطيـران اللبنانيـة، تسـتعمل كمطلـع درج الـى الطـابق الأول فـي عديـد مـن منـازل الأوزاعـي، وكـذلك سـلالم مشـابهة لهـا صـعدت ونزلـت عليهـا فـي مطار دولة عربية، ومنعاً لأي تفسير أو تهمة، لربمـا كـان مـن المحتمـل أن شركة طيران الشرق الأوسط أوغيرهـا مـن شـركات الطيـران قد نقلت أو باعـت سـلالمها التـي كـان مكتوبـا عليهـا وبـالخط العـريض "مطـار بيـروت الدولـي")

وما قام به أحد أبناء بلدتنا الكريمة، كان مجرد اقتـراح وفكـرة للتعامل مع الوقت واحترام المواعيد، نحن في هذه البلدة لنا طموحـات واسـعة لإرضـاء غرورنـا وإشباع رغباتنـا في سبيل التطور والحضـارة، ولنا أسلوبنـا الخـاص للتعامل مع الوقت والمواعيد، ومنهـا مواعيد الأذان والإعلان عن أوقـات الصلاة وانضباطها ولهذا كانت لنا اساليبنا الخاصة لمعالجتها.

مواعيد أوقات الأذان عندنا كانت مقرونة بأحداث:

فصـلاة الفجـر مقرونــة مواقيتهـا بخمـران العجـين، وأذان الظهـر توقيتــه مرهون بزبائن السفيحة، وأذان المغرب أسير قيلولة المشرف على تشغيل التسـجيل ومكبـر الصـوت فـي جـامع النبطيـة، ("بـلال النبطيـة الرسـمي" ابراهيم الصباح) كان خبـاز بيـت النـار فـي فـرن جدي الحـاج حسـن(فخذ الشيخ)، ومـن يعمـل فـي الفـرن تفـرض عليـه طبيعـة العمـل، التواجد قبيـل الفجر في مركز عمله، المشرف على بيت النـار "الخبـاز" يـأتي دوره بعد عمليـات العجـن و الـرق و الخمـران، (ويبـدأ عملـه متـأخراً عـن رفاقـه) عنـدها يـذهب أحـد عمـال الفـرن الثـانويين ليوقظـه، فيمـر الخبـاز بطريقـه لتشغيل عدة الصوت في الجامع " قبل مباشرة العمل في الفرن ".

وذلك لأسباب تقنية، حيث وقتها كان الهاتف نـادر الوجود، وبلالنا الخباز، ما كان لديه جهاز تخابر، وكذلك مركز العمل، ولطالما كان موعد أذان الفجر سابقاً لفترة خمران العجين، هنا نستعين على قضاء حاجاتنا

بالكتمان، سعادة الخباز ليس قابلاً لسماعِ صوت جرس الساعة(المنبه)، فالثابت هو الأذان والمتحرك هو خمران العَجين.
أما توقيت أذان الظهر ففيه فترة سماح تتراوح بين الربع ساعة والعشر دقائق، تتحكم بها (عجقة)السفيحة سلباً أم إيجاباً.
ينهي خبازنا عمله في الفرن بعيد الساعة الثانية بعد الظهر، ثم يعود إلى بيته لينال قليلاً من الراحة، وعندما يروح في سبات عميق، وقع توقيت أذان العصر رهناً بقيلولته.
هكذا كان الواقع رغم فشل محاولات" زكريا كحيل" المتكررة للإستيلاء على منصب القائم بأعمال المؤذن، بعد إنقطاعه عن متابعة دراسته الفندقية، بفتوى شرعية لأن دراسة الفندقية تستدعي إتقان تقديم المشروبات الروحية، وعندما طفح الكيل، كانت الانتفاضة التصحيحية.
في فترة إكتمال "العدة لطهارة" زكريا من نجس تقديم المشروبات الروحية.
لا مشكلة إلاَّ ولها حل عند المستشار الفني "الحاج محمد حبيب حجعلي"، ومن حواضر البيت، قام بإمداد سلك كهربائي من منزله في حي البياض قرب "عين الحورانية"، حيث كانت رحمها الله والدته الحاجة رمزية فران حجعلي، تشرف وبحرصٍ شديد على بث نداء الأذان من جهاز تسجيل وأجهزة تقوية الصوت من داخل بيتها إلى الجامع المحاذي "جامع عين الحورانية"،
انتظمت الأمور، بتكريس الأذان في جامع عين الحورانية، بعد مبايعة "زكريا" بلالاً مؤذناً، بالبث الصوتي المباشر، لحسن صوته، فنال حصيلة كفاحه.
وصار يصدح في ارجاء النبطية الأذان "البلالي" المباشر عبر مكبرات الصوت في جامع حي السرايا، والأذان السنباطي المُسجّل من مكبرات الصوت في عين الحورانية
وفوارق المواقيت والتوقيت حدث ولا حرج في ذلك!.........
لم يُكمل زكريا ولايته سوى لفترة من الزمن، فوصلته الفيزا وذهب مهاجراً إلى "أكرا في أفريقيا" ملتحقاً بأخيه أبو حبيب "عبد الوهاب كحيل".
واستعاد البلال الأول عرش ولايته بعد استرضاءه............
بفضل همة المغفور له العلامة الشيخ محمد تقي الصادق ومعونة مادية من جميع أهالي النبطية والجوار، جرت إعادة بناء، الصرح الحسيني، وكان تصميمه الحديث وبرج على يسار واجهته مرتفعاً عن مستوى السطح

بأربعة أمتار، وله فتحات في أعلاه من الجهات الأربع، والغاية كانت لتركيب ساعة ولها جرس، الهدف كان إعلام الناس بمواعيد الصلاة، فمكبرات الصوت التي تبث نداء الصلاة، أصبح سماعها محصوراً في محيط ضيّق، لأنه وفي الخمسينيات راح العمران يتوسع وانتشرت بيوت البلدة، (أسباب هذه النهضة كانت الوفرة في تحويل أموال المغتربين في أفريقيا)، وموقع الجامع في حي السراي، أصبح محاصراً بأبنية من عدة طوابق.

كنت أذهب بمعية جدي الحاج حسن (فخذ الشيخ) إلى الحسينية، حيث تتجمع هيئة أركان مشروع البناء الجديد، وفي إحدى المرات، سماحة الشيخ و مجلسه مكتمل العدد وأبو القاسم (الحاج محمد ونسة) يدور على الجمع حاملاً طبقاً عليه فناجين الشاي "الندري" المصنع في سماور خاص لرجالات الدائرة الاولى (الشيخ وحاشيته)، وفجاءة ارتفع الهتاف قد وصل البيك، وإذا بزعيم الجنوب أحمد بك الأسعد، يصعد الدرج العريض وخلفه رجال موكبه، انتصبت قامات الموجودين وهرع البعض (من كان ما يزال في وضع صحي يسمح له بالهرولة) للسلام على البيك والترحيب به والدعاء له بطول العمر، تقدم البيك من سماحة الشيخ وهمَّ محاولاً تقبيل يده، وبخفة سحب العلامة يده قائلاً : حاشاك يا بيك.

جلس البيك إلى يمين سماحته وابتعد المرافقون والحاشية، وراح البيك يتحدث مع سماحته همساً، ومن حولهم الجمع يغفو بصمت بارد، دقائق قليلة ارتفع بعدها صوت البيك: يا حجَّاج يا أوادم، مولانا بدو مني ساعة كبيرة للحسينية على آخر طرز غالي، والطلب مهما كان " كتير" بيرخصلو، وبدو ياها فوراً بعد ما يخلص العمار، وتكرم عين مولانا، بس يرضوا علينا أهل النبطية، وحتكون أنشالله أحسن من ساعة العبد اللي بوجّ البرلمان بنص ساحة النجمة.

ارتفع هتاف الجمع، وبصوت واحد كما الكورال (فيه النشاز وفيه الموزون): الله يطول عمرك يا بيك وعمر مولانا

توجه البيك إلى الجمع: هلق ما تواخذوني قدامي طريق طويلة، كنت حابب أقعد معكم أكتر، بس شو بدي أعمل صار لازم " أوصال عالطيبة قبل ما تعتّم".

همَّ البيك مودعاً سماحته على نفس منوال الاستقبال، وخطى مسرعاً ملوَّحاً بيديه: اليمنى أرتفعت لتسند الطربوش، واليسرى نحو القلب.

مشى الحجَّاج الأوادم خلفه حتى باب السيارة والشفاه ما توقفت لحظة بالبسملة والدعاء.

وفي انتظار وصول ساعة البيك!
(أول صرح حسيني بني في لبنان كان في النبطية، وتم بناؤه في حياة المغفور له سماحة الحجة الشيخ عبد الحسين الصادق الأول (بتحفظ ما بين البداية والانتهاء 1909) والد المغفور لهما سماحة الشيخ حسن والشيخ محمد تقي المجتهد الأكبر والد طيب الذكر المغفور له سماحة الشيخ جعفر، والد أطال الله بعمره ورعاه بحمايته سماحة العلامة الشيخ عبد الحسين(الثاني) بن جعفر الصادق.
حين قدوم الشيخ عبد الحسين الأول إلى النبطية بوشر ببناء الحسينية الأولى على قطعة أرض قرب المدافن القديمة، وكان البناء من "اللبن" - مزيج التراب والتبن، حيطان سميكة وصرح داخلي لا تزيد مساحته عن الستين متراً مربعاً، كانت له أبواب تطل على ساحة واسعة لناحية البيدر، وشبابيك خلفية تطل على بستان أحمد ياسين، كانت الأبواب والشبابيك من خشب خشبية تطوى (دفاتها) بعضها على بعض، وكانت مدهونة بصباغ لونه أزرق؛ البناء يرتفع بعدة درجات عن الساحة، ويفصل بينها وبين البيدر طريق.
تزعزت حيطان المبنى الترابي من جراء هزة أرضية ضربت النبطية في مطلع عام 1948، فتقرر الهدم وإعادة البناء في فترة إمامة العلامة الشيخ محمد تقي الصادق (بعد وفاة المغفور له" الحجة الأول" عام 1942)
(كان همه الأول أن يكون البناء الجديد على أحدث ما كان عليه فن العمارة، ليكون منارة، تلفت الأنظار، وبما يليق بقيمة صاحب الصرح).
مرت الأيام والبناء الجديد في مراحله الأخيرة، والعمل فيه على قدم وساق بفضل الهمة والمقدرة التي كان يتمتع بها "الحاج نجيب صالح مل" معلم العمار، وأنجاله الثلاثة (أبو قاسم محمد، عبد الحسين، و حبيب) حجارة المبنى صخرية تم نقشها وتحضيرها في قطعة أرض في حي البياض، مقابل منزل رشيد نصار.
(قام بمهمة نقش هذه الحجارة والقناطر وتحت اشراف ومساهمة الحاج نجيب وأولاده الشباب: عبد الأمير حرب، خليل جابر، المواد الأخرى من البلاط والرخام كانت من معمل" مخايل المر" في الشياح الواقع قرب معمل جبر للبسكوت، هذه المواد كانت من النوعية نفسها التي استعملت في تجهيز بناية العسيلي وبناية اللعازارية في بيروت (طفلاً يومها كنت، ويأخذني جدي"فخذ الشيخ" بصحبته كلما قام بزيارة معمل المر للمراجعة والاستفسار، وعند أعادة ترميم منزل جدي في عام 1954 كان بلاط أرضه من المعمل نفسه، ومع تكرار الزيارات أصبحت من ما أدعيه؟،

"لربما من طرف واحد" صديقاً لصاحب المعمل وأولاده، وكنت أقوم بزيارتهم في فترة دراستي البيروتية).
وصلت ساعة البيك وكان برفقتها السيد ميشال مدور، ليقوم بتركيبها. دقة عمل السيد مدور، وسرعته في التركيب، كانت موضع سرور سماحة الشيخ، وبأقل من أسبوع من حين وصول " المعلم مدور"، انتظم عمل الساعة كالساعة.
سويسرية الصنع كانت، ما عدا الجرس الذي كان من بيت شباب، وطنيّ الصنع، يتم تشريجها يدوياً (كالبلنكو) بواسطة جنزير من الحديد يتدلى طرفه من البرج إلى داخل غرفة مطلع الدرج، مصحوباً بجنزير آخر معلق فيه أسطوانة من الحديد ثقيلة الوزن، ترتفع إلى أعلى عند شد طرف الجنزير الأول.
كلما دق جرس الساعة، يروح كل من يسمع دقاتها القيام بإحصائها، ناظراً الى ساعته للتأكد من صحة التوقيت.
بدأ الجدل حول دقة توقيت ساعة الحسينية، مقاربةً بتواقيت الساعات اليدوية الفردية، فمنهم من يجزم بأنها مضبوطة، ومنهم من يعترض متأففاً بأنها متأخرة، ومنهم من يهز برأسه منزعجاً بأنها متقدمة.
بعد مماحكة و مناكدة وتبادل حوار ساخن في كثير من المرات (بل قل شجار) اجتمعت هيئة الأركان بحضور مستشارها الفني "الحاج محمد حبيب حجعلي" وصدر مرسوم اعتماد ساعة راديو الإذاعة اللبنانية في بيروت، كمرجع للتوقيت الصحيح.
وراح البعض يدعي بأن ساعته أصدق توقيتاً، لأنها واحد وعشرون حجر وأتوماتيك "اوميغا"، ويؤكد آخر بأن ساعته "اصدق إنباءً من الكتب"، ولقد أرسلها له نجله الدكتور من فرنسا حيث يتعلم الطب.
وقع المُقدَّر، ساعة الحسينية لا يتطابق توقيتها محلياً وبيروتياً، فهي في تأخير لأكثر من عشر دقائق.
على وجه السرعة تم استدعاء "مدوّر" فكان ملبياً لورقة الجلب، حرصاً على سمعته الفنية، وخشيةً من غضب البيك، بعد الفحص والتدقيق وإعادة التوقيت الصحيح، أفاد الخبير ميشال مدور، بأن ما حدث لم يكن خللاً بل تقصيرٌ في إعادة تشريج الساعة بتأخيرٍ مدته عشر دقائق من آخر رمق، وبحسب قول من كان يضمر التلميح، دون اتهامٍ مباشر، بتقصير أبي القاسم: ساعة الحسينية إذا لم يهمل تشريجها، أضبط من ساعة بغ بن!.

(عادل علي أحمد كـان رئيساً لحـزب لا سياسـي ، ولا عقائدي ، بـل مزحـة بمزحـة وكـان اسم الحزب : حــزب التيـــوس)

رهـــان التـــحدي

الرهان حرام ومكروه، و وسائل التسلية شبه معدومة، والوقت يسير حبواً، و المقاهي لا يطاق الجلوس فيها طويلاً لكثرة الدخان المتصاعد من الأراكيل والسجائر، وكثرة شرب الشاي والقهوة تجلب الأرق؛ والبطالة مؤلمة الوقع، والقراءة هجينة، والرزق على الله وليِّ التدبير.

في مطلع الخمسينيات كثرت هجرة شباب النبطية سعياً وراء الرزق إلى البلاد الأفريقية، وكان النجاح حليف عدد كبير منهم، انتعشت بيوت عديدة من ريع نجاح أبنائها، بالمال والهدايا على مختلف أنواعها، ومنها الساعات اليدوية الفاخرة وغيرها.

وفي منتصف الخمسينيات، تكاثر عدد الساعات في معاصم الأهل والخلان، مما زاد في بهجة "موسى الرضي" و"جعفر مقلد" مصلّحين ووكلاء ساعات.

وبقيت، عند من لم تصلهم تأشيرات السفر للحاق بأترابهم، معضلة قتل الوقت الضائع في فترة الراحة ما بين دق طرنيب وآخر.

جاء الإبتكار و الإبداع بالفطرة !

تحوَّلت ساحة النبطية إلى مختبر رهان وتحدٍ لإثبات نظريات عالم الفيزياء" لنز" الذي استنبط نظرية تحويل القوة المغناطيسية إلى طاقة كهربائية، حيث اكتشف بأن: " كل سلك معدني يتحرك داخل محيط مغناطيسي يتوالد فيه تيار كهربائي، وكذلك كل سلك معدني يمر فيه تيار كهربائي متحرك يتوالد حوله طاقة مغناطيسية".

إكتشاف " لنز"* أحدث ثورة علمية ونقلة كبرى في مجال صناعة الموتورات الكهربائية " أرفع" إبهام" يدك اليمنى بشكل زاوية قائمة مع "سبابة" اليد نفسها واجعل الإصبع "الوسطى" بشكل زاوية قائمة مع سبابة اليد نفسها وأطبق على الإصبعين الباقيين، يتبيَّن لك من الرسم الناتج من هذا الوضع إتجاه سير الحركة من "السبابة" و من إتجاه "الإبهام" وجهة اتجاه التيار الكهربائي ووجهة القوة المغناطيسية تحددها لك "الوسطى" (CHAMP,CHEMIN,COURAN)

تطبيق نظرية " لنز" لا علم لي كيف ابتدأت في النبطية، ولكنني عشت وأتذكر تلك الموجة التي انشغلت بها ساحة النبطية، ولفترة ليست بالقصيرة، كيفما توجهت تلقَ دعوة للمشاركة بها، وهذا ما حدث مع الجميع تقريباً، ولربما أستثني القليل القليل منهم... موجة عارمة انتشرت في كل مكان، و كل من كان في معصمه ساعة يد يلتقي بآخر في معصمه ساعة، إن لم يكن الداعي، فلسوف تتم دعوته إن أستجاب طوعاً كان به،

وإلاً وافق بعد التحدي و الاستفزاز بنعته خوفاً و جبناً، و التشهير بساعة يده وعدم جودتها، فيقبل و لو على مضض، وينزع ساعته من معصمه ويضعها على أقرب طاولة بعد سحب (زنبركها)، ويتقدم منافسه مقلداً إياه ويضع ساعته بعد سحب (زنبركها) ملامساً به لصقاً (زنبرك) ساعة خصمه.
وبعدها يتراجع أصحاب الرهان مبتعدين خطوة إلى الوراء، وسط حشد المشاهدين وعيون الجميع شاخصة تترقب ناظرة إلى الساعتين، بلا حراك ولا حتى رمشة جفن، كل طرف من أطراف النزاع المحتدم بصمت، له مؤيدوه، تمر الدقائق حبلى بالقلق خوفاً من الخسارة، يتألم كل طرف من الانتظار كما هي عليه حال المناصرين، تطول المدة أو تقصر، فحسن الطالع لسعيد الحظ، والهزيمة لمن يتوقف عقرب ثواني ساعته عن الدوران، وينتقل الخبر من شفاه الى أذان، معلناً عن جودة ساعة الرابح الظافر، فيلاحقه أو يلاحق رابحاً مثله في حلبة صراع أخرى، ساحة البلدة خلال طيلة هذه (الفنعة) وكأنها ملاعب "رولان غاروس" حيث تقام فيها تصفيات رياضة كرة المضرب العالمية، يتنقل المتبارون الرابحون من ملعب إلى آخر لمباراة أخرى، تلاشت هذه الصرعة ببطء شديد بعد تخمة، بما أخذت من وقت المشاركين الذين مارسوها، ومن سواهم بالحديث عنها.
حدثٌ مماّ عشته في مقتبل عمري، من ذكريات النبطية، بقي محفوراً كنقش على صفحة عقلي المتصحِّر بجهل نقص المعرفة؛ أمور أراها ولا أستطيع تفسيرها وفهم مكنونها. لم أكن أحلم، بل شاهدتها عيناي ومددت يداي ألهو بها وأفكر بقناعة تامة بأنها لم تأت من عدم، و كنت متأكداً بأنها ليست صدفة..
تابعت طريقي ساعياً وراء المعرفة، كان في داخلي شغف بل نهم وجشع لعلوم الفيزياء والرياضيات، قصدت طريقها بجد وعزم، ناهلاً من عيون سواقيها طامحاً إرضاء طمعي للنيل منها وبأكثر مما أمتلك من مقدرة للصبر والتحمل، تشعبت تلك السواقي وأخذتني طوعاً في تعاريج مسارها، نحو دراسة الكهرباء والإلكترونيات مروراً في واحات علوم الرياضيات ودوحة علوم الفرضيات المحتملة واللوغاريتم.
وهن العزم وتراكمت الموجبات، ورحت أحرث في حقول العمل باذراً في ثلومها مخزون ذخيرة لم يكتمل نصابها.
في مراحل دراستي، تعرفت على خصائص انواع الكريستال الطبيعي ومنها "الغالين" وتفهمت مكنون الجيرانيوم والسيليكون وانتشار الترددات، ولمست يداي غرائب مصنوعات من علوم "غراهم بل"

التلفونيــة وموجــات البـث الكهرومغناطيسـية، وطريقـة معالجاتـه للحبيبـات االبلورية الدنية "شبه معدومة الحجم"، وعلى غفلة مني شُدَّت أذني. وتلقيت صفعة على وجهي، وكان " لنز" مقرعي! وأشار بعدها، بحركة من يده متلاعباً بإبهامها وسبابتها وأوسطها، وراح صارخً: إلى متى أما أهتديت؟
.
عندها وجدت نفسي في وسط ساحتك أيتها الحبيبة، هائماً على وجهي، أفتش عمن هزمني، وأوقف عقرب ساعة يدي المتواضعة، متهماً إياها ببخس الثمن، ونقص الجودة، لآخذ بثاري.
عبثاً حاولت فلم أجده، عضضت على جرحي، غريمي لم يهرب أو يتخفَّ، بل ذهب بعيداً، ولي معه موعد آخر، أستعذر منه عن حقدي معترفاً بجهالتي، وكي لا أنسى، سأدون ما كنت سأقوله:
السـاعات القديمـة، كبـر حجمهـا أو صـغر، بخـس ثمنهـا أوغـلا، دقـة تصنيعها تلعب دوراً في مصداقية أدائها فقط لاغير!، أما انهزام ساعتي، فهو فعل علمي، ففي علبة كل ساعة تشابه بالعمل والدور، توجد مسننات دائرية الشكل، كل منها له عدد محسوب ومدروس للقيام بواجبه، أقطار المسننات مختلفة فيما بينها، كل مسنَّن دائري له عمود مسنَّن ذو قطر صغير، تتداخل أسنان الدائري مع أسنان عمود دائري آخر مختلف بطول قطره، ليجر الدائري بواسطة أسنان عموده دائري آخر في حركة دوران حول محور عموده، وكل في محوره يدور بفعل استرخاء قوس رفيع السماكة ملفوف حول نفسه، يتم لف القوس(الرسّور) من خارج العلبة بواسطة (الزنبرك) وهو عبارة عن عامود مسنَّن، يدخل أفقياً في وسط علبة الساعة بعكس المسننات الداخلية، فهي مثبتة عامودياً، ومحصورة في داخل علبة الساعة بلوحة مسطحة ذات سماكة رفيعة ولكنها قاسية؛ شكل اللوحة غير مكتمل، ولكنه يأخذ شكلاً يتطابق مع شكل علبة الساعة الخارجي.
وتحصر المسننات العمودية من الناحية الثانية بلوحة مكتملة لها شكل العلبة، وتكون ظاهرة للرؤيا من الخارج وتسمّى "المينا"، في وسطها تثبت العقارب التي تكون عادة ثلاثة (الثواني، الدقائق، الساعات) وتحمى من الخارج بزجاج شفاف يثبت في جسم العلبة، التى لها فتحة من الناحية المقابلة تسمح بالدخول والتطلع إلى الداخل وتكون محكمة الإغلاق، (دون الدخول بشروحات أخرى تحاشياً الملل)
تدور الدوائر الداخلية بفعل ارتخاء القوس، يثبت بين الدوائـر ما يسمى "الرقاص" يدور حول نفسه يمنة ويسرة لينظم انفلات "الرسور" للحفاظ

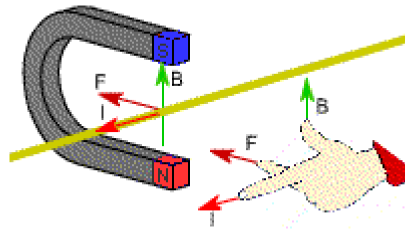
على ثبات سرعة دوران الدوائر الداخلية التي يحرك بعضها بعضاً وتجر العقارب.
يقوم عقرب الثواني بدورة كاملة كل دقيقة من الوقت، مع اكتمال دورة عقرب الثواني، يتقدم عقرب الدقائق بجزء من ستين من دورة كاملة لعقرب الدقائق فور تقدم عقرب الدقائق الستين جزءاً أي دورة كاملة، يتقدم عقرب الساعات خطوة تساوي جزء من أثنتي عشرة دورة كاملة وهكذا دواليك.
كما لاحظنا، أن هناك حركة دوران دائمة في داخل الساعة وحركة دوران نصفي بتردد يمنة ويسرة، أضف إلى أن كل عمود مسنن يدور حول نفسه باتجاه واحد، ولكل عمود منها طرفان محصوران من الداخل ومن الخارج، وتدخل الحركة من خلال ثقوب صغيرة جداً موازية لموضعه، ومنعاً لتآكل المعدن في رؤوس العمود أو اللوحات يتم إدخال "جزيء" صغير من البلّور في ثقوب اللوحات (الكرستال القاسي، هنا تتدخل جودة الساعة من حيث نوعية الكرستال المستعمل، ألماس أو حجر الكوارتس) (كل عمود له رأسان وكذلك الرقاص) وكثيراً ما نسمع بساعة فيها سبعة عشر حجراً أو واحد وعشرون.
من خصائص كرستال الغالين: أنه إذا تعرّض " لِلحفّ" يتوالد منه تيار كهربائي و كانت التجربة الأولى في التقاط الموجات اللاسلكية، وتم تصنع أول جهاز لاقط لموجات البث الإذاعي المتوسطة؛ بدون أي طاقة تغذية، و كذلك استعمله العالم "غراهم بل" في صناعة جهاز الديسكفون، إبرة طرف الذراع).
وفي عودتنا إلى الساعة، من نتيجة فرك الكرستال الناجم من دوران الأجزاء، يتولد تيار كهربائي داخل الساعة حيث يتوالد منها طاقة مغنطيسية، داخل كل علبة ساعة من الساعات المتماسة بواسطة زنبركها، يتجمع فيها طاقة مغناطيسة؛ حسب نظرية لنز، وبما أن الزنبرك هو من معدن يسمح بإنتقال التيار الكهربائي وليس بعازل، بواسطة الزنبرك يجري تفريغ القوة الزائدة (الطاقة والتيار) من أي واحدة منها، فتصبح الساعة الأضعف (مكربجة) و تتوقف عن الدوران، كما يحدث للعدّاد الكهربائي القديم عندما تلصق بعلبته الحديدية قطعة من المغناطيس فتزداد فيه القوة المغناطيسية فيوقف العداد عن الدوران.
(تلافت شركات تصنيع العدادات الكهربائية وعدادات المياه هذا العامل بتغيير معدن دولاب العدادات الحديثة، بمعدن جديد لا يتأُثر بمؤثرات وعوامل خارجية)

من المستبعد بل من المستحيل أن تتساوى ساعتان، بمواصفات متطابقة مئة بالمئة، وحتى ولو كانتا من الموديل نفسه ومن المصدر نفسه إلآ أن يكون هناك فارق ضئيل جداً، لا يُرى ولا يُقاس، ذلك مشابه لبصمات اليد، علماً بأن ما يتولد من تيار و طاقة غيرمحسوس وضئيل جداً، لأنه يعادل القليل من الميكرو وحدة قياس لكل منهما.

عذراً يا من خذلتني، وربحت رهان التحدي، وما كان لك هذا إلاً لسوء طالعي وذكاؤك الفطري ، وعفوية تصرفاتك...... وإلى اللقاء القريب يا صديقي............

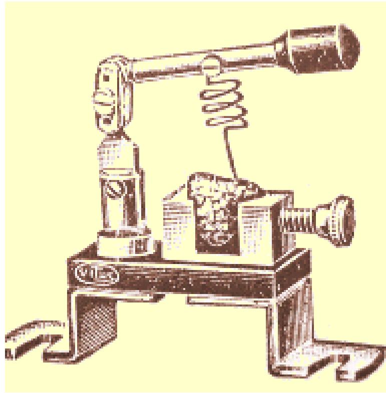
(في عصرنا الحاضر ندر وجود الساعات التي يتم تشريجها باليد والزمبرك، وتواجدت بكثرة الساعات الالكرتونية حيث لايوجد دوران بداخلها إلاً العقارب الثلاثة الخارجية، ويتم يغذيتها بواسطة بطارية كاديم).

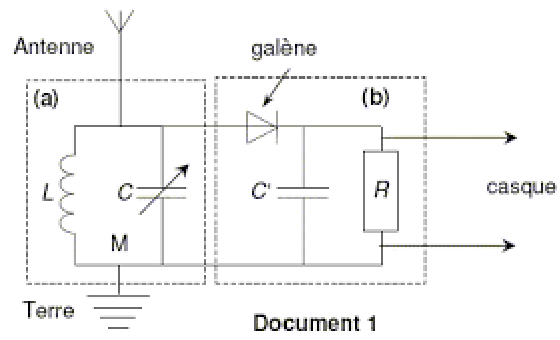
*لنز: 1804- 1865 **Heinrich Friedrich Emil Lenz** ، ارتكز على نظرية "فَرَاداي.



*فراداي: عالم بريطاني مكتشف الطاقة المغناطيسية: **Michael Faraday** 1791 - 1867

** غالين: نوع من الكريستال استعمل كلاقط بث محطات الإذاعة من دون طاقة خارجية مشغلة





Document 1

مواعيد بالشيفرة

في النبطية، وعند البعض(القليل طبعاً) تُعطى المواعيد بالشيفرة، يكون فيها المكان والزمان مبهماً بعيداً كل البعد لما يسمى مصطلح التحديد، فيقول أحدنا لصاحبه: نتلاقى غداً بالسوق، أو سيقام ذكرى أسبوع فلان يوم السبت.

تحديدالساعة نادرالوجود، وكثيراً ما يختفي تحديد المكان، وكذا الأمر في المدارس، الدخول إلى الصف يتطلب قرع جرس حفاظاً على الإيفاء بالموعد. فمدرسة السيدة "فريحة حجعلي"، و بفضل احترامها للوقت، وهمة السيدة " نهاد شاهين" الناظرة المشرفة، كان الجرس يدّوي، جرس صغير، تقوم الناظرة بقرعه من أعلى الدرج في الطابق الأول أمام غرفة الإدارة؛ وفور سماعنا لصوت الجرس نترك (مهرولين) مرصد المراقبة الممتد من أمام منزل الحاج علي وهبي، إلى حانوت أحمد الشريفي، كنا في مرحلة المراهقة، و مرصد المراقبة كان موقعه قرب مدرسة للبنات فقط.

الشلة مؤلفة من :حسن نصار، يوسف جابر، عبد الامير أسماعيل، أديب وهبي و أخوه محمود، علي أبو خدود وأخوه عصام، غسان بدرالدين، حسين قبيسي، مالك عبد الله، وكنت منهم، ينظمّ إلينا في أكثر من الأحيان محمد سعيد رضا.

لم نكن في نفس الصفوف ولا العمر، (الفارق سنة أو اثنتين)، فنتوجه فوراً إلى حي (الجزاير) حيث تقع المدرسة (التكميلية السميحية) التي كانت مواعيد "ضرب" جرسها مقرونة بتواجد الفاضل "السيد نور الدين بدر الدين"، بعد التأكد من حضور "الأسد" ودخوله العرين، ووصول المعلمين أو أغلبيتهم؛ وبما أن "السيد أبو خطار" كان يقوم بدفع رواتب المعلمين، مما يستدعي غيابه يوماً من كل شهر للنزول إلى بيروت لجلب المال وجداول القبض.

يوم غيابه، يستعيد مهمة قرع الجرس وتقريع الطلاب عميد أساتذة الصرح السميحي "أبو وديع"، و كان في حالة صحية تمنعه أحياناً من المداومة.

ففي حالة غياب الأصيل والبديل (إذا أنفقد الماء سُمحَ بالتيمم) يتولى العم أبو حسن المهمة من خارج صلاحياته الموكلة.

لطالما حصل التباس وتأخير في المدرسة الابتدائية (التحقت بها بعد أن ترك إدارتها الأستاذ "أبراهيم حيدر فران" بأشهر قليلة، وتسلم الإدارة بعدها الأستاذ "أحمد جابر" وصار أسمها لالحقاً "أم المدارس") جرسها

نحاسي معلق أمام مبنى الادارة يُشدُّ بحبل" المرس" موعد قرع" جرس دخول الصفوف، مقرون بتواجد الجرس وحبله (يسرقه ثم يعيده، خفية في اليوم التالي،"الرعاع"، كما يصفهم الناظر "غالب رضا" و كانوا من مهجري السويد "عفواً ومعذرة").
مدرسة الزهراء ومدرسة الراهبات و مدرسة الأمركان كان فيهن دخول الصفوف محكوم بوصول آخر" نقلة" (أوتوكار المدرسة).
في "السميحية" موعد إبتداء دروس اللغة العربية له صلة بموعد إقلاع مركبة معتمد النقل البري "رشيد شعبان" من النبطية فجراً، وتيسر الأمور، ثم العودة إليها بعد الذهاب إلى بيروت، مضافاً إلى ذلك صحة وسلامة السيارة ومقدرته على تصليح الناتج من عطل مفاجىء، ومقرون بذلك وصول "الأستاذ عبد الحسين حامد" لبدء دروس اللغة وآدابها، ولا أقول التعلم منها لأنّ ذلك كان مرهوناً بمزاج أبو أحمد، (الأستاذ عبد الحسين كان يقطن في بيروت في تلك الفترة).
على هذا ترعرعنا في هذه الرحاب الطيبة، وكل يوم نزداد إبداعا وتفنناً بإيجاد معادلات وطرق حديثة للمواعيد والأوقات، نحن ومن يدور في فلك ومحور بلدتنا، وما "بوسطه شبعا" إلاّ الدليل القاطع لذلك، أهالي "شبعا" فقط يكونون على معرفة بموعد إقلاعها، أما من كان منتظراً وصولها إلى النبطية، فعليه أن يبقى متأهباً طوال الفترة الصباحية وأحياناً إلى الظهر، و ما عليه إلاّ الصبر، شاخصاً ببصره نحو طريق مرجعيون؛ فحين يشاهد من بعيد سحابة غمام أسود أرضية، عليه الإصغاء لهدير صوت محركها، ويتأكد من سماع " كركعة هيكلها" عندها يكون على يقين بوصولها.
بوسطة "شبعا" دخلت، من الباب الواسع، تراث النبطية ولوائح "القول المأثو" فكان يقال لمن هو في حالة انتظار طويل و قد عيل صبره:
" ناطر بوسطة شبعا"

ملاحظة بلا عنوان:

بعيداً عن المزاح و الهزار و الدعابة، وكي لا يسوء فهم المقصود، أو لربما لاكت بعض الألسن، وراحت بتفاسير وتكهنات لا وجود لها في خلفية ما أسرده من أحداث
عشتها أو سمعت عن نواة فحواها، سرحت مخيلتي خلال تدوينها...
الهدف والدافع الوحيد هو التقرب من تراث النبطية، حيث لا زالت أحداثها في ذاكرتي تشدني إلى مهد طفولتي، وتنتابني نوبة من الحنين، في كل صباح مُبكر أجلس فيه مع نفسي بمعية فنجان قهوة الصباح، فتطرق باب خواطري هذه الذكريات التي أحببتها وما زلت أحبها.
لا أدعي براعة الصياغة والإنشاء، ولا فن السرد والكتابة، حتى و لا مقدرة الطباعة على آلة كاتبة أو حاسوب؛ رغم ما ذكرت، وجدت نفسي مجبراً وبدافع داخلي خشية تلاشي الذاكرة وانعدام التذكر والدخول في غيبوبة النسيان، (كي لا تضيع النبطية) ليس تدوين وقائع تاريخية، بل نزعات من اللهو والمرح، من الحبة صنعت القبة، هذه الحبة ليست من صنع خيالي، بل حدثت فعلاً وأبطالها منهم مازال شاهداً عليها، أو تناقلها من بقي، بعد غياب بعض أبطالها.
سمحت لنفسي صياغتها بما أملكه من مقدرة متواضعة، ليبقى تذكارها مدوّناً كصك براءة ليتذكر من يريد أن يعبر منه إلى من أحب ومن يحب.
في المقالة التالية (سيرد لاحقاً الباطنية في النبطية).
هنا أجد نفسي مجبراً ليس دفاعاً، بل شرحاً لدوافع استعمال الكلمة، من خلال مفهومي الشخصي، لتفسير مصطلحات كلمات (لا يتوقف التحدث بها، ولا باستعمالها لشعارات لها دلالة ذات طابع له أهداف ومآرب أخرى) وما أتمناه، ان لا تتجاوز" حدود الفهم الخاص بي" إلى ما تحمله هذه الكلمة من معانٍ وأبعاد .
الانسان: تعريف لكلّ مخلوق ناطق، من ماخلق الله سبحانه، أياً كان لونه أو عرقه أومعتقده الديني والمذهبي والفكري والسياسي، أو مكان ولادته وإقامته
الإنسانية: تعريف أنسنة المجتمعات مهما تعددت أماكن تواجدها، والتعاطف والمساندة فيما بينها لنشر العدالة ومناصرة المظلوم والمقهور في جميع مجتمعاتها وأقطارها

الإنعزاليــة: تعريــف لمجموعــة تســعى للتقوقــع والابتعــاد بــالفكر والنيــة والتصـرف عـن مجتمعـات تحـيط بهـا حتـى و لـو كانـت مـن المعتقـد والـدين نفسه.
الشمولية : تعريف لفكر أو معتقد لمجموعة ما، حول فكرة فهم خاصة بها عن سواها، وتسعى لفرضها على كل من يدور في فلكها بالترغيب والترهيب.
الدكتاتورية: تعريف تحكُّم فرد واحد بمفاصل السلطة، بالقمع والقوة والرشوة واستغلال شخصي لمرافق مراكز القوى، رامياً قليلاً من فتات السلطة والمنفعة لأفراد حاشيته الموالية، المدافعة بقوة وتسلط لبسط سيطرة الزعيم الأوحد لنظامٍ عادة ما يكون دموياً ومجرماً.
الديموقراطية: تعريف لنظام سلطة مدنية شعارها، حرية التعبير عن الرأي والمعتقد الديني والفكري لأفراد المجتمع المتواجد ضمن إطار هذه السلطة الجغرافي، وشعارها العدالة للجميع من بشر وحيوان وحجر، وتتساو فيها الحقوق والواجبات بين الجميع بمن فيهم رجال السلطة والنظام من رأس الهرم إلى القاعدة.
الجمعيات: تعريف لتجمع أفراد من المجتمع ضمن هيئة لتقديم مساعدة وتطور للنشاطات الفكرية والمعيشية والرياضية. الجمعيات المدنية منها، يجب أن لا يتعدى نشاطها المدني وأن لا يختفي وراء أهدافها نوايا غير معلنة في نظام تأسيسها وخفايا عملها.
الجمعيـات الخيريـة، الهـدف الوحيـد مـن نشـاطها فـي عمـل الخيـر المجـاني لمسـاعدة المحتـاج مـن البشـر، والقيـام بمـا لـم تقـم بـه الدولـة سـهواً كـان أو تعمداً؛ التقصير مدان ومعاقب عليه قانونياً.
الجمعيات الأهلية، هي كتجمع أفراد مجموعة قبلية التفكير والهوى.
حرية الرأي: تعريف، القول أو الكتابة أو نشـر مـا يجـول بخـاطر مـن يريـد التمتع به في مجتمع ديموقراطي، على أن يكون ذلك ضـمن إطـار المراقبـة الذاتية وحدود الأخـلاق، والـدليل المـادي الملمـوس الحقيقـي(غيـر المفبـرك) بعيداً عن تخطي حدود الحرية الشخصية للآخرين والحفاظ علـى كـرامتهم، بعيداً عن التجني والتهجم والسخرية لهدف مـا (شـريطة عـدم الـتهكم علـى عاهة جسدية كانت أم عقلية، بل العمل على مساعدتها).
بالعودة الى الباطنية، أختلف الباحثون في تحديد زمن ظهور الباطنية، وهو خـلاف مُبـرَّر، إذ مـن أصـول معتقـدهم عـدم نشـر عقيـدتهم وأفكـارهم، فهـم يأخذون العهـود والمواثيـق علـى مـن يـدخل فـي معتقـدهم، وذلـك مـن أصـول معتقدهم وأركانه التـي لا يجـوز الإخلال بهـا.

ويرى الأسيوطي أن أول ظهورللباطنية، كان في سنة92 هجرية، وذهب البعض إلى أن ظهورهم كان في سنة 276 هجرية، وكان ظهورهم تحت زعامة "ميمون القداح" وبحسب ما يقوله البغدادي أن ظهورهم كان سنة 382 هجرية، والباطنية ليست فرقة من فرق الإسلام؛ وذكر ذلك الغزالي في كتابه "فضائح الباطنية".

وعلى نمط مشابه للباطنية ولدت حركات في الشرق و في الغرب، مثل حركة "الحشاشين" وزعيمها "حسن الصباح" الذي كان صديقاً للشاعرالكبير "عمر الخيام"، وحركة "روبن هود" وكان لها أهداف تقريع الأغنياء والفاسدين للعطف ومساعدة الفقراء والضعفاء، ثم جاء من بعدها حركات ما زالت تستقطب منتسبين إليها على مر العصور، منها من تكشّفت أهدافه وخرجت للعلن كحركة الصلبان المشطوبة الذين قاموا من داخل الحملات الصليبية، وحركة الماسونية العالمية حيث اختلفت مرامي أهدافها سوى ما سمحت هذه الحركة بالبوح به.

وهناك الحركات الكشفية، ومنها من له أهداف غير منظورة تعمل حول منظومات حزبية.

وفي القرن الماضي قامت حركات كارثية جلبت الدمار والخراب في جميع أنحاءالعالم، ومنها "النازية" - تلاشت بعد الحرب العالمية الثانية؛

والحركة "الصهيونية"التي مازلنا نعاني من أهدافها الإجرامية، ويتحمل جزء من العالم بالإكراه والضغط عليه من تبعاتها والتستر على جرائمها، ومنهم من يتبناها بالمساعدة والمساندة، تجسَّد اسم الباطنية عندي، بالحركات الإجرامية.

لا للباطنيـة في النبطيـة

غريبة عجيبة أحداثك أيتها الحبيبة! قصصك من واقع يليق بأن يكون من روائع نجيب محفوظ وإحسان عبد القدوس، لصارت النبطية، جزءاً من (خان الخليلي)، أو فصلاً من فصول (زقاق المدق)، أو بداية رواية (أيام من شبابي) أو ختام نهاية (لاشيء يهم) وكي لا تضيع حبيبتي (الرصاصة مازالت في جيبي).

بعد نكبة فلسطين وتهجير أهاليها، وفد إلى النبطية بعض أعيان قرى فلسطين السليبة، وعدد ليس بالقليل من أهاليها المهجرين.
الضيافة كانت على قدر المستطاع؛ الأنصار كانوا "على قد بساطك مد رجليك" فقام منهم بما يجب أن يقوم به البعض، أضف إلى ذلك تقاعس الكثير من الدول العربية، واليد القصيرة من الأنصار.
كنيته أبوعكرمة*، "لا تأخذه بالحق لومة لائم"، جريئاً شجاعاً كان، سريع الغضب عند وقوع الظلم، حراً صريح الكلامِ بلا مواربة، لا يُرهبهُ مقام، ولا يثنيه عزم عن رأي، إن أراد البوح بقولٍ لا يكترث، هو المقدام بقامته الفارعة، دائماً هو بالطليعة، حامل الراية، لاتخونه الكلمات، فهي طوع يديه ولا يلوكها لسانه، مخلص في عمله، صادق في تعبير أشعاره، لايأبه لوزن أو قاعدة، لديه نمط خاص لما يريد قوله، لا فرق إن كان العجز منافياً للصدر، لا نقاش ولا جدال هكذا يجب أن يكون ما هو الصح، تأثر أبو علي ضاهر وثارت حميته وهو يشاهد الحشود من الوافدين المهجرين، فراح يأسف لحالهم ولحاله منشداً بانزعاج يقول:

ليت أمي لم تلدني
لأكن من هيك عرب
باعوا الحدود لليهود
وشردوا أحرار قومي
ياآل عامل للثأر قوموا يا هردبا يا هردبا............

القرى السبع اللبنانية في الجليل الأعلى تم تهجير أهاليها(صارت لاحقاً داخل خط الهدنة من الجهة المحتلة)، ومن تلك القرى كانت "هونين"، وكان بين بعض من أهلها روابط صلة قربى ومصاهرة مع أهالي النبطية،

أقام جزء من الوافدين بين ربوع أحسابهم وأنسابهم، والبقية تم توزيع إقامتهم ما بين سكنٍ معار ومستأجر.
أبو عمر كانَ من "صفد" ومن أعيانها، أبنه أبو حسن كانت زوجته من النبطية، ففي مضارب ربعها حط رحال معيتها.
أبو عمر، تعلو رأسه كوفية وتزين صدره غبانية بأزرار ذهبية اللون، من فوقها "جاكيت" أطرافها إلى ما فوق الركبتين بقليل، من حول رقبته يتساقط مشلح من حرير طبيعي تتماوج شرابيه مع حركة اليدين.
تلاميح وجهه الوقور، كرسم لسطور دهر فوق صفحة ماض، يحكي تاريخه شارب معكوف أسطواني الشكل، تنتهي أطرافه في منتصف مساحة الخدين، عيناه شاخصتان كعيون نسر يهوي إلى هدف قد عاينه من علو شاهق، حاجبان غليظان زينهما الشيب بهيبة لونه، لو نطقت التعابير لقالت : "كانت لنا أيام" ؟
أبو عمر يرتدي سروالاً أسود عريضاً، ينحصر اتساعه من الركبتين إلى الكاحلين حتى ينتهي كدملج يفصل السروال عن نعال القدمين.
قامة لم تنحن رغم ما حصل من هول، بقيت كالرمح مستقيمة، منعتها أثقال السنين وحرمتها لذة الدفاع، للتثبت بأرض كانت شاهدة على الأيام الخوالي وما كانت عليه من العزة والكرامة.
أقام أبو عمر، في منزل متواضع، مع عائلته، وسط حي السراي، تحسس الجيران، من لياقة حديثه وسعة معرفته وعمق خبرته، فاشتدت مع مرور الأيام عرى الصداقة بينهم، وحظي أبو عمر بالتقدير والمحبة .
ولدت" مريم" حفيدة أبو عمر ونصيبها منذ طفولتها إعاقة في النمو العقلي، راحت تكبر "مريم" وحسرة الجد، على ما افتقده بسبب النكبة خمدت ولم تتلاش، وحل مكان التفكير وتذكر الماضي الاهتمام والرعاية " بمريومته" - شغله الشاغل، فغمرها بالمحبة والحنان، وخلع عليها اسماً جديداً هو" الهندومة " وجعل منها نديماً ورفيقاً وسميراً. في فترة طفولة الهندومة انتبه من حولها للإعاقة العقلية عندها، فراح أترابها من أبناء جيلها يسخرون منها حتى الإزعاج والمضايقة، عندها أملت عليها كرامتها الدفينة ان تثأر وترمي أحدهم بحجر فأدمته.
الحادثة في حي السراي حيث مركز المخفر وسرية الدرك، وبناء على التحقيق جرى تحويل الهندومة للحجر عليها في مركز الأمراض العقلية، وتم استدعاؤها إلى هناك؛ دخلت على طبيب المركز للكشف، فأعطاها الطبيب المعاين سلة من القصب وقال لها: "يا مريم روحي عبي السلة

ماء"، فضحكت الهندومة ساخرة وقالت: "السلة مش للماء، السلة جدي أبو عمر ينقل بها الأغراض من السوق".
راح الطبيب بالتفكير ثم سألها: هل تعرفين أن تعدي من واحد إلى خمسة، نظرت "الهندومة" من النافذة المطلة على ساحة المركز وفيها عدد من المرضى يتفسحون، وبلمحة من البصر قالت له: "هولي عددهم خمسة وثلاثين شخصاً".
تأكد الطبيب المعاين من صحة إحصاء الهندومة السريع بإجراء عملية العد الدقيق، وأعطى "الهندومة" شهادة تدفع عنها الإدعاء.
خرجت الهندومة متأبطة يد جدها "أبو عمر" وهي تهمس في أذنه: " مسكين الدكتور مجنون".
رجعت الهندومة إلى النبطية حرة طليقة، وراحت تضرب بيد من حديد كل من تسوِّل له نفسه التهكم والتهجم عليها فأصبح الشرير يهابها، ويتودد إليها من ليس لديه نية السخرية.
الهندومة تصنف يوماً بعد يوم، من يبادلها المحبة، فتلاطفه بالحديث وتمازحه، وتتجنب من كان قاسياً بتهكمه عليها، والويل ثم الويل لمن يبدأ التعدي، فانتقام الهندومة موجع ولاذع.
بهذا، أصبح للهندومة شبه منطقة لها حدود تحيط بها خطوط حمراء لا يجوز الاقتراب منها؛ من أحترم الحدود، بادلته باللطف والاحترام.
تنتصر للضعيف، وتحترم الكبير والصغير، سريعة الخاطر والبديهة، الدعابة، والنكتة تنطلق من فمها مختصرة ذكية المعنى والقصد، مؤنسة الحديث لمن أحبت، تقبل الهدية قطعة حلوى كان أم زجاجة كوكاكولا أم فنجان شاي، ولا تطلب من أحد ولا تعني لها النقود شيئاً فأبو عمر لا يحرمها منها.
راحت الهندومة تزداد معرفة بما يدور حولها، فكانت تعرف اسم كل طفل واسم أمه وأبوه، وحتى الألقاب السرية جداً، وذاع صيتها في جميع أنحاء البلدة، خصوصاً عن مقدرتها في "الإحصاء السريع" الذي كانت تختبره من تلقاء نفسها أو حين الطلب من شخص ترتاح له، فإن دخلت مقهى خالها "علي الايراني" وكان لها مزاج، أعلنت فور دخولها عدد الموجودين. تطورت عملية الإحصاء عند الهندومة فأضافت إليها مقدرة إحصاء عدد الأعضاء مثل اليدين والعينين والرجلين، كانت تعطي للإحصاء خصائص دقيقة، ودون أن تمعن النظر إلى مجموعة ما تقول هؤلاء عشرون شخصاً وتسع وثلاثون عيناً، حيث يظهر من بين المجموعة رجلٌ أعور.

نوادر الهندومة كثيرة ويطول الحديث عنها، ولكن حادثة الثأر ولو بعد حين كانت من الحوادث، التي رويت لي فصولها من مصدر مقرب تأثر بها وناله مناله منها.
أبو عمر كان يكلف الهندومة بالقيام ببعض المهمات، و منها شراء ربطة خبز (كانت يومها الربطة بليرة لبنانية)، أخذت الهندومة "ورقة الليرة "ودخلت إلى فرن جدي الحاج حسن، فأعطته الليرة وانتظرت بحسب تعليمات أبو عمر بأن تأخذ من الخبز "السخن الطازج".
عندما حملت أرغفتها وهمت بالخروج، بعد مرور قليل من الوقت على دخولها، راح الحاج حسن ممازحاً يطالبها بدفع الثمن، فأجابته الهندومة بأنها قد دفعت مسبقاً وهو قد نسي ذلك، ثم أضافت: " العمر له حق يا حاج حسن شو خرفت" أعجب الحاج حسن بالجواب وكان كعادته يقبض بأصبعيه ويشد " كما تشد الكلابة لقلع الضرس" مباغتاً من يريد أن يلاطفه، وهذا ما حدث للهندومة، فثارت ثائرتها من الوجع وخوفاً من أبو عمر، لم تُعبر عن غضبها إلآ بشتيمة صامة مصحوبة بالبكاء.
مرت عدة أعوام على هذه الحادثة، أنتقل خلالها سكن الهندومة من حي السراي إلى جوار بيت الحاج حسن، وتولدت ما بين الهندومة وأهل البيت مودة وصداقة إلى يوم تعطل فيه الهاتف، في منزل الحاج حسن، فطلبت ربة البيت من الهندومة أن تبلغ الحاج حسن الإسراع في إرسال اللحمة، توجهت الهندومة إلى فرن الحاج حسن وعرضت خدماتها، وبأنها مستعدة لنقل اللحمة لأنها سترجع إلى البيت، فسلّمها الحاج حسن اللحمة، وما أن ابتعدت الهندومة قليلاً حتى راحت تفتش عن القطط الشاردة في سوق النبطية قرب الدكاكين، وأولمت لهم بكامل اللحمة هنيئاً مريئاً.
عند المساء وبعد المحاججة والنقاش استدعيت الهندومة، وكان ردها " يا حرام العمر له حق خرف الحاج حسن ونسي القرصة؟؟"
عاشت الهندومة كما يقال حامية ساحتها بقدرة ذاتية.

أما صاحبنا محمد أفندي فكان له حماية من قوة لا يستهان بها، "أبو الميش" كان صاحب كيف ومزاج، كان شاباً بهيَّ الطلعة على وجهه ملامح أبطال هوليوود، أفسد نفسه بتعاطي العقاقير الملفوفة والمشروبة، حتى وصل إلى مرحلة اللامبالاة، لكنه إحتفظ بخفة الدم وسرعة النكتة وأنس الحديث، وله صولات وجولات وخبريات تملأ صفحات دفاتر، انتهى به الامر عاملاً في فرن السيد علي الطحطح للمحافظة على عزة النفس، وعدم اللجوء الى العوز، بعد أن كان يمتهن حرفة الإسكافي.

إلى أن باشرت قيادة الجيش اللبناني بتشْييد ثكنة النبطية العسكرية، استعان الجيش بالمدنيين في بناء هذا المجمع، فجال بخاطر" أبو الميش" الاستفادة والعمل في ورشة الثكنة.
اليومية كانت خمس ليرات والعمل نصف نهار. راح يعد العدة لذلك بعد عدم قبوله، عندما تقدم بالطلب، فالأمر بسيط وما عليه إلاً انتظار يوم الأحد، الجنرال هشام جابر، كان نقيباً وقتها، و في نهاية كل أسبوع يحضر إلى النبطية و " أبو الميش" ليس من غير المرغوب بهم دخول الدار، بل كان يفاخر ويدّعي بأن القائد هشام لا يخيب له أملاً!
كان الجنرال يعطف على أبو الميش ويطرب لفكاهته، دخل أبو الميش من الباب الواسع، و بعد عرضه الأمر على(الدكتورحمودي) الدكتور محمد جابر، دخل أبو الميش على الجنرال، وبالصدفة كان الملازم الأول المسؤول عن تشغيل العمال المدنيين من جملة الموجودين في دار آل جابر الكرام وتم تعيين السيد محمد أفندي عاملاً مياوماً بأجر وقدره خمس ليرات يومياً .
التحق السيد محمد بعمله في اليوم التالي بعد أن تعرَّف عليه الملازم الأول المسؤول، وتم تكليف السيد محمد بتكسير الحجارة الصغيرة عن جانب الطريق ولهذه المهمة، تسلم في عهدته المطرقة.
وبين تكسير أحجار وأخرى، يعطي السيد محمد لنفسه فترة من الراحة، فيلف سيجارة ويستريح ليدخنها ثم يعود لتكسير الحجارة، والملازم الأول غير مبال للأمر، "شفقة ورحمة بحال أبو الميش"، إلى أن حضر قائد سلاح الهندسة للاستطلاع على حسن سير العمل، فقام بجولته التفتيشية بصحبة كبار ضباط سلاح الهندسة ومعهم الملازم الأول المسؤول عن العمال، شاهد العميد ما يقوم به أبو الميش، فنهره قائلاً " شو هالشغل تعا لا شوف" فهرول أبو الميش نحو الملازم، متجاهلاً العميد وراح يهمس له بأن ينصح زميله المتغطرس بعدم التعرض له، إذا كان يريد أن لا يخترب بيته إذا عرف القائد هشام بهذا الأمر، ثارت ثائرة العميد لسماعه هذا الحديث، وسأل الملازم الأول المسؤول" مين هو هيدا"؟؛ أعلمه المسؤول بأنه رجل مسكين وطلب منه النقيب جابر مساعدته، راح العميد بعدها يلاطف السيد محمد أفندي، ويرجوه بأن لا (يجيب سيرة) للقائد هشام، وبهذا أستمر العميد قائداً لسلاح الهندسة و السيد أبو ميشال بقي بعمله لمدة، بعيداً عن أرغفة الخبز الساخنة مما يضطره لربط يده حتى الكوع،(إذا بنشر على يده رغيف من الخبز السخن).

في تموز من عام 1952 قامت حركة الضباط الأحرار في مصر، وأطاحت بالحكم الملكي وأبعد الملك فاروق خارج الديار المصرية، أعلنت الجمهورية تحت رئاسة اللواء محمد نجيب، فترة قليلة، استلم بعدها سدة الحكم جمال عبد الناصر، بطل العروبة وقائد معركة الفالوجة، صاحب الكاريسما المميزة، و شخصية محببة فذة ومقدرة فائقة في الخطابة، وبدأت مصر في عهده رحلة الألف ميل، انتشرت محبة الجماهير لعبد الناصر فتجاوزت حدود الأقطار العربية والأفريقية ودول العالم الثالث، وأصبح رقماً صعباً في المعادلة الدولية.

على أثر ذلك قام ما يسمى بحلف بغداد للحد من المد الناصري الجارف.

حلف بغداد كان بدعة الهندسة السياسية الإنكليزية، الإمريكية، الإوروبية، الصهيونية، نور السعيدية الشاهنشاهية، الهاشمية، التركية، والشمعونية بتوجيهات شارل مالكية، هدفه حماية المصالح النفطية في بلاد الرافدين والمملكة السعودية، ومنعاً لإمتداد الحركات التحررية والحفاظ على الكيان اللقيط وكر الأفعى الإسرائيلية.

كميل شمعون رئيس الجمهورية اللبنانية كان لقبه عند إنتخابه في عام 1952 "فتى العروبة الأغر".

أول ردة فعل ثورية على حلف بغداد جاءت من بغداد، أطاح عبد السلام عارف ورفاقه من أحرار العراق بالحكم الملكي وسُحِلَ الفتى المليك وتكفل المهداوي بالمحكمة العرفية العلنية عبر أثير الإذاعات، بعد فترة قصيرة قامت من داخل الثورة ثورة، وأستلم حكم العراق عبد الكريم قاسم، وقامت حركات إنقلابية في عدة دول أفريقية ومنها: غانا والكونغو والغيني بيساو، وسطع أسم أحمد سيكو توري وباتريس لوممبا وأحمد سوكارنو، وتشكلت منظمة دول عدم الإنحياز المنحاز للمعسكر السوفياتي وسداً لسياسة الأمبريالية الطاغية، وانتشرت حركة القوميين العرب الناصرية في صفوف المثقفين العرب في جميع مرابع لغة الضاد، وعلت أصوات الحناجر بالهتاف (وحدة، حرية، إشتراكية - أمة عربية واحدة من النيل إلى الفرات، فليسقط الاستعمار وارفع رأسك عالياً فالنصر على الأبواب)

وأول الغيث قطرة، فكانت حرب السويس في عام 1956، تكبدنا الهزيمة وبقي العزم والإرادة والذي سيأتي أعظم.

في عام 1956 دخل لبنان في معمعة سياسية بعد انتخابات نيابية كانت الشفافية فيها ستارة مسرح خمرية اللون يرى من خلالها ملامح ديموقراطية واضحة المعالم، كانت حصيلتها إبعاد أركان المعارضة لتمديد ولاية كميل شمعون، اختلط الحابل بالنابل، وكان على رأس المعارضة

أرقام صعبة ناصرية الهوى عروبية المنحى، من صائب سلام الى كمال جنبلاط، أحمد الأسعد، عدنان الحكيم (نجَّاد يا عرب نجَّاد)، والبطريرك (محمد علي) المعوشي، معروف سعد وأركان الحزب الشيوعي الحاوي والشاوي، ومن النبطية: حبيب صادق، عادل صباح ومحمد بدير وحبيب جابر، عبد الحسين حامد وكاسترو النبطية مصطفى حجعلي والرئيس محمد جابر وقاسم الصباغ، و جميع أهالي كفررمان بما فيهم عدد من آل الزين، و الكثير من حركات التحرر العربية من بعثي وناصري، لا فرق إن كان مسلماً أم مسيحياً من عفلقي ورافعي ومحيي الديني التكرار والتكرر: "يا عروبة مين حماكي حزب البعث الأشتراكي"؛ وجيه بشارة ومحمد سرحان وأسماعيل وجعفر أبراهيم وحسن وأحمد برو الذي تم القضاء على طموحاته السياسية في مهدها حيث همس إليه على مهدي زين الدين بأن أهالي القرى عليهم التحصيل العلمي وليس الانشغال بالسياسة، ثم تم إجهاضها على يد صادق صادق، لافتاً نظره بعدم المتاجرة بعمه حبيب لمآرب شخصية، أحمد برو كانت لديه نزعة ثورية تتأرجح بين الماركسية والتروسكية، وتقسيم الثروات بين الرفقاء شرط الابتعاد عنما يملكه في جيبه، انتهى به الأمر في عداد كبار مذيعي الأخبار في إذاعة مونت كارلو الفرنسية الناطقة باللغة العربية، فصار يُذيع ويُحلِّل أخباراً عن الغير بدل من أن تذاع أخبار مواقفه السياسية.

النشاط السياسي النسائي كان فعالاً بامتياز في النبطية، فقبل أنديرا غاندي كانت أم ملحم فريحة حجعلي وأم أكرم سلمى علي أحمد، وأم رائد ليلى نصار(كنية الأسماء ليست الكنية الحركية بل هي أسماء أنجالهن حفظهم الله)!

وكيف أنسى الجيل الصاعد الواعد من عزيزة بك الفضل وفاطمة أحمد الشيخ سليمان ظاهر، أما سلام شاهين و سعاد ابراهيم كانتا في المقلب الآخر ضمن الرفيقات تحت شعار (تحيا سوريا).

كانت الموالاة من أركان المحيط الشمعوني: الوطنيون الأحرار، وحزب الكتائب بزعامة الشيخ بيار الجميل(الذى كان الشغل الشاغل لكبير مذيعي صوت العرب المصري أحمد سعيد حيث كان يسميه بَبيارُ الجَمِيل الذي يتكلم العربية بلكنة غريبة، للعلم فقط، بيار الجميل ترعرع في مصر وعاد إلى لبنان في ريعان شبابه)

سامي الصلح، وكاظم الخليل، وعادل عسيران والحزب السوري القومي الاجتماعي وغيرهم من حلفاء كميل شمعون، وكان للنبطية حصة لايستهان بها، فهمي شاهين، داوود الأسمر، محمد وأديب جابر وحسن علي

زهري، راسخ شاهين، والمناضل الرفيق العزيز سامر والأخ جان جروان وسمير الصايغ والسيد علي وعبد الوهاب بدر الدين والرفيق محمود بيطار، وحسن ومهدي قنديل، وعميد الإذاعة المناضل مصباح ضاهر(معذرة من كل من ذكرت أسماؤهم مع حفظ الألقاب، فلهم مني جميعاً المحبة الصادقة وكل التقدير، وما الأمر إلاّ دعابة وملاطفة)
أول بوادار الثورة الشعبية - بما سمي لاحقاً ثورة 1958 - كانت في أوائل شهر أيار عند مقتل الصحافي واصف قديح، وقيل حينها أن اغتياله كان فردياً وقام به أحد المواطنين الأرمن لأن المغدور كان على علاقة عاطفية بابنته، بعدها أغتيل الصحافي القدير نسيب المتني وكان مقرباً من كمال جنبلاط، ثم اغتيل جوزيف مغبغب من عين زحلتا، وكان من أنصار كميل شمعون... كرت سبحة الاغتيالات المجهولة الفاعل، وراحت المتاريس تأخذ مكانها للفصل بين أرجاء بيروت عند محيط ساحة البرج بما يسمى ساحة الشهداء، وتقسمت أوصال العاصمة شرقية وغربية، بخطوط تماس ممتدة من المرفأ مروراً بساحة البرج، الصيفي، اللعازارية، طلعة بشارة الخوري، الجميزةن رأس النبع، الشياح، فرن الشباك، الحدث، كفر شيما، طريق صيدا القديمة (أعاد التاريخ نفسه في عام 1975 فثورة 1958 كانت البروفة ولكن بفارق بسيط بالديكور، موقع رئاسة الجمهورية كان في منطقة القنطاري على عهد كميل شمعون، صار في بعبدا على عهد سليمان فرنجية)
احتدمت المناوشات العسكرية بين أطراف النزاع والعبث، وتساقط القتلى ممن لا حول لهم ولا قوة ، ففي الحروب الأهلية المتمترس أقل تعرضاً للخطر من البريء الأعزل الساعي إلى رزقه وقوت عياله .
راحت البلدات والمدن الكبرى بتنظيم حركات مقاومة لتدافع كل منها بالسلاح عن خطها السياسي.
في الجنوب، لم يكن هناك معارك أو اقتتال وتعدِّيات من قبل طرف أو آخر سوى القليل القليل الناتج عن تصرفات فردية رعناء وعنتريات سخيفة.
ركبت النبطية في قطار الموجة، وانخرطت بها بشكل كاريكاتوري مليىء بحماس من مظاهره "البهورة"، تشكلت حركة المقاومة الشعبية بقيادتها السياسية مجلس الترويكا، وكان مؤلفاً من محمد بدير وعادل صباح، ويترأسه حبيب صادق، أما الجناح العسكري؛ كانت غرفة عملياته منوطة بالقائد الأوحد تشي غيفارا النبطية - حسن شريف بدر الدين؛ وكان عنده جيب سيارة (ولس) من مخلفات الحرب العالمية الثانية ولربما الأولى، و يرتدي بنطلوناً وقميصاً، وتعتلي رأسه قبعة مستديرة باطرافها المتماوجة.

كل ملابسه كانت من اللون الكاكي، يزنِّر خصره قشاط جلديّ مندلق من على يمينه نحو الركبة، في ثناياه خرطوش رصاص مسدس بكر "بارابللو" من عيار 14 ملم، فضي نصابه مرصع بالعاج. المسدس مشكول في جراب جلدي معقود نصابه بالكتف تيمناً ومقاربة لرمز الثورة والثائرين جمال عبد الناصر.
راحت طلائع الثورة بالتدريب تحت إشراف أبو عبدالله البرجاوي وهو من بلدة "صالحة" ويقيم في مخيم النبطية في مضارب أهالي هونين وصالحة ، مهنته الطرش والدهان، فكان العارف المقتدر بالشؤون العسكرية واستراتيجية القتال وفنون التدريب.
جحافل الثوار من الشباب الثائر الهادر كان تدريبها المشي بنظام مرصوص وتسند على أكتافها عصي معاول غليظة ولربما عصي رفوش، جمهور المشاهدين المعجبين كان أكثر عدداً من الأشاوس، وعندما يأتي المساء تقام الحواجز عند مداخل البلدة لحماية الثغور، المرابطون فيها، سلاحهم للتدخل والتعامل مع المهاجمين، ف "جفوت الصيد" تجاهل أصحابها موسم الفرّي، والتحقت بها بواريد الخلع من تسع وأثنتي عشر ملم، وأصرت بواريد الدك بإلحاح للمشاركة وتبعتها بواريد أم حبة، كان في صالونات بعض أعيان النبطية بواريد المانية(تعرف باسم المعدلة) يتجاوز عددها عدد أصابع اليد بقليل، كانت تزين حيطان الصالون أو غرف الاستقبال، تمت مصادرتها وتسلّمتها فرقة التدخل السريع المكلفة بالحماية الشخصية لسماحة الشيخ ومبنى الحسينية المجاور له، وأتذكر البارودة التي كان يحملها النجار كوكب وكانت(الإبراهيمية) من العهد العثماني، عثر عليها كوكب في خردة دكان خاله عبدو، وكان لها سيخ طويل للحشو والدك، فوّهتها كانت مثل القمع الأسطواني يزيد مقاس قطرها عن فتحة القسطل، تحفة نادرة ما رأت عيناي مثلها ولا حتى في متحف" الأنفليد" حيث تعرض جميع أنواع أسلحة نابليون الخالدة.
(كل استراتيجية الثورة كانت مفهومة عندي ما عدا الاستحكامات في الجبانة، والحواجز الطيارة من حارة إلى حارة)......
دخلت الثورة في شهرها الثالث والنبطية في حالة استنفار دائم، وتضاعف عدد قاطنيها بعودة الكثير من أبنائها المقيمين في بيروت(الأولاد)، المحلات مقفلة سوى بعض الأفران وبسطات قليلة لبيع الخضار والفاكهة وسدر نمورة السيد علي بدرالدين، خلال هذه الفترة قام عدد من الشبان المتحمسين بالذهاب إلى سوريا لعقد معاهدة تسلّح، رجع القليل منهم ومعهم معدلات ألمانية وكثير منهم تم حجزهم في ثكنة مرجعيون، قسم منهم في

رحلة الذهاب وآخر في العودة، وتم مصادرة ما كان معهم. تأزمت الأمور في جميع أنحاء لبنان، وقطعت الطرقات ومنها طريق صيدا بيروت فتوقفت حركة الذهاب والإياب، ولكن جميل الشقور كان يكسر الحصار مرة في اليوم فأطلق عليه أسم الفدائي، وفي كل رحلة من رحلاته "يأتيك بالأخبار من لم تزود".

أطفالٌ كنا، سرقت الأحداث قسماً من السنة المدرسية، وهذه الفرصة الصيفية أصبحت في خبر كان، سلوتنا الوحيدة كانت لعبة الحرب والحواجز نقلد الكبار في حروب من ورق لابارود فيها ولا قتل، سلاحنا كان قطعاً من خشب صحاحير الخضرة والفواكه، صنعنا منها بنادقنا، وكلمات سر الحواجز كانت الصعوبة في فك رموزها، تعجز عنها أكبر مخابرات الجيوش الكبرى، حواجزنا كنا نلهو بها نهاراً، ممنوع التجول ليلاً في جميع أحياء البلدة، فلا نستطيع اللهو بحواجز ليلية كما يفعل الكبار، لذا كانت كلمات السر لعبور الحواجز صعبة جداً، فخذ مثلاً على حاجز البيدر، كان الحاجز تحت أمرة حسن توفيق جابر والعابرُ الوحيد المتجول في هذه النقطة الحدودية هو أبن عمته حسن فقيه، صرخ حسن جابر: قف كلمة السر؟

(لا قرابة في العسكر للعبور يجب أن يعرّف العابر الصديق كلمة السر، وإلاّ عومل بما يجب التعامل به مع العدو)، توقف مكانه حسن فقيه وأجاب همساً، وجاء الرد مشفراً، وليس لدغة لسان:

ساكر سكري سكر الله بنسكر الله سي معلوم؟ فتح المعبر فالقادم حليف!

اشتدت حدة التقاتل في بيروت وامتدت إلى مناطق جديدة، وتبين العدو من الصديق، اجتمعت هيئة أركان الثورة في الحسينية وانتشر أفراد فرقة المكافحة يجلبون مؤيدي الحزب القومي من بيوتهم، ليقفوا أمام سماحة الشيخ ويقسموا اليمين بتخليهم عن مبادىء الحزب، ويعلنون الولاء للثورة، فعل المعنيون ما أمروا به، طوعاً أو كرهاً، عن قناعة أم تقية، إلاّ فردٌ واحدُ (لن أذكر اسمه)، أمتنع وأصر بأن لا يخون مبادىء الزعيم ، فوبخه سماحة الشيخ وأمره بترك البلدة، وهكذا فعل وذهب إلى بيروت وأصبح بعدها موظفاً في وزارة التربية أخوه اسمه كامل واسم ابن خالته حلمي.

وصلت أخبار تلاوة فعل الندامة إلى شملان مركز التدريب للحزب القومي، وكان من بين المتطوعين فيه أحد أبناء النبطية أديب جابر وكان معروف بالبلدة وله أخوة في أحزاب يسارية تقدمية، بعدها بحوالي أسبوع حضر أديب إلى النبطية يقود سيارة جيب عسكرية وراح يتجول في أحياء وزواريب البلدة، انتشر الخبر وراحت الروايات والتكهنات تنتقل كالهشيم ،

ومنهم من قال أن أديب جاء لوضع متفجرة في سينما الكابيتول التي استمرت بعملها كالمعتاد طيلة الفترة الماضية، وخلال تجوال أديب في شوارع البلدة شاءت الأقدار أن يلتقي بصديق له كان مقرباً منه، كان الفتى في ريعان شبابه ووحيداً لأمه من أبيه، استهوته غطرسة أديب وفرعنته فركب بجانبه في الجيب و لربما تلبية لدعوة من أديب، تابعت السيارة بالتجوال وتوجهت براكبيها صعوداً نحو حي الميدان، وعلى بعد خطوات من خان سعيد الزيون فران، انطلق صوت طلق ناري واحد لاغير، مجهول المصدر أصاب الفتى فؤاد حمود جلول، فأرداه قتيلاً وسقط من الجيب مضرجاً بدمائه، وفر أديب مسرعاً وجثة الفتى ملقاة في الشارع ولم يقترب منها أحد، أخذت القيادة العسكرية علماً بالخبر واجتمعت هيئة الأركان عند سماحة الشيخ وأرتفعت أصوات ترفض دفن القتيل في مدافن البلدة، عندها أمر سماحته بنقل الجثة لأهلها على أن تدفن في بستان بيته بدون مراسم دفن، ولا حتى الصلاة عليه، وتم نقل الجثة على عربة لبيع الخضار والفاكهة، فقامت والدته الثكلى بدفنه في زاوية من بستانه خلف بيت الحاج درويش كالوت قرب مدرسة الأمركان، وراحت النبطية بصمت جليدي لا كلام عن الموضوع إلاّ همساً وسراً .

نزلت قوات المارينز الأميريكية الى سواحل بيروت وتم الفصل بين المتحاربين وأنتخب قائد الجيش الجنرال فؤاد شهاب رئيساً للجمهورية، وراحت الأمور تسير نحو التهدئة، وحضرت بعثة أرفد للتخطيط والعمل على إعادة أعمار ما لحق لبنان من خراب ودمار، وعمل الرئيس شهاب بنشاط وعزيمة فكان عهده حافلاً بالمشاريع العمرانية وعمّت الكهرباء عموم بلدات وقرى الوطن، وراحت معالم الدولة الحديثة تظهر، وحلت على لبنان فترة عمران ونهضة شملت أرجاء الوطن.

و إلى جانب بوادر الأستقرار والمصالحة الوطنية، راحت قوة المكتب الثاني تنتشر هيمنة حول جميع المرافق المعيشية، والمراقبة اللصيقة بالأمور السياسية، وأصبح كتبة التقارير والمفسدون على مقربة من اصحاب القرار في تقرير مصير الجيل الجديد، من تسلط واستغلال للسلطة والتحكم بمسار التفكير العقائدي والفكري.

لم تنجُ النبطية من تفاعلات هذه الأوضاع الشاذة، وكان التقرب من أركان الحكم والسيطرة، بقرة حلوباً، استفاد منها قلة لم تكن مستترة، ولكنها كانت منطوية على نفسها ويشار إليها بالبنان.

الباطنية المؤذية كانت خفيفة الوطء على البلدة، وفي كثير من الأحيان كانت تقية للوصول إلى مأرب منفعة خاصة لعدد ليس بالقليل.

**** "ابو عكرمة" ليس بلقب، بل هو مقارنة باحد اللغويين القدامي "أبو عكرمة" الذي جمع العديد من التعبييرات اللغوية وفسرها، وكان يسوق الحجة تلو الحجة على صحة ما يقول.....

* نجيب محفوظ (1911 - 2006): روائي مصري، هو أول عربي حائز على جائزة نوبل
* خان الخليلي: أحد أحياء القاهرة القديمة، يتمتع بجذب سياحي كبير بالنسبة لزوار القاهرة ومصر بشكل عام. يتميز بوجود بازارات ومحلات ومطاعم شعبية، كما يتميز بكثرة أعداد. واسم رواية نجيب محفوظ "خان الخليلي"
* رواية "زقاق المدقّ" من أشهر الرّوايات الأدبيّة التي كتبها نجيب محفوظ، أمّا زقاق المدقّ فهو جزء من مكان موجود في إحدى مُحافظات مصر.

* إحسان عبد القدوس (1919 - 1990): كاتب وروائي مصري. يعتبر من أوائل الروائيين العرب
* أيام شبابي : مجموعة مقالات كتبها إحسان عبد القدوس في فترة شبابه وهي مرآة لأرائه و شخصيته..
* الرصاصة لا تزال في جيبي: فيلم مصري أنتج عام 1974، قصة من كتابات إحسان عبد القدوس، و نال بسببها جائزة أحسن قصة
* لا شيء يهم: فيلم سينمائى درامى مصرى من انتاج 1975، كتابة: إحسان عبدالقدوس

الثـابت والمتـحرك

في الجنوب عامة، وفي محيط بلدة النبطية بشكل خاص، المياه، وجودها ليس بذي قدر كافٍ لسقاية المزروعات ولسد احتياجات الناس، فأرض النبطية ليست بالأرض المعطاء الزخية، ولكنَّ الله سبحانه وتعالى قسَّم الأرزاق (وما من دابة على وجه الأرض إلاَّ وعلى الله رزقها)، فسخَّر لنا الأسباب لنعيش ونعتاش من خيره و نِعَمِه؛ زراعةُ الحبوب والحنطة تلائم طبيعة أرضنا، وبقليل من الصبر ووجود الرغبة، تطرح أشجار الزيتون ثمارها ولو بعد فترة، زرعوا فأكلنا وإن زرعنا فسيأكلون، وبقليل من ماء مخزون نستعين به لقضاء حاجاتنا في الفصول غير الممطرة، ليتسنَّى لنا زراعة بعض الخضار وغيرها من الشجر المثمر الذي يحتاج نموه الى سقاية متواضعة. الحركة الدائمة لأسباب استمرارية العيش توافرت بالحصول على الحبوب من عدة أنواع، وقليل من الخضار والثمر، نأكل منها وترعى أنعامنا التي تؤمن لنا اللحم والشحم والدفء والملبس، قمح، شعير، حمص، فول، عدس، فاصوليا ، بامية، خس، فجل، زيتون. ومنه الزيت، ولحم شاة أو بقرة، و غيرها من عناصر أساسية لمواد التغذية، ومنها سكر مستورد أو مستخرج من الشمندر، نتحلى ونتسلى، فأول ما نحصل عليه من غذاء هو ما تدره أضرعة أنعامنا من حليب، إن كَثُر روّبناه لبناً وإن ازداد اللبن وضعناه بكيس يتأرجح مربوطاً بغصن توتة أو تينة من الشجر لبنة، أم جبنة، أكلناه مع الزيتون والزيت والخبز.
أشجار الزيتون تم قطاف ثمارها و منها الأسود والأخضر كبسنا قليلاً منه بالملح والماء في جرار من خَزفٍ وفَخَّار، والباقي وَجَبَ عصره لنحصل على الزيت، والمعاصر قديماً كانت على ضفاف الأنهار، لذا يتوجب علينا انتقال وسفر وفيه فرحة وعناء، إلى أن رجع إلى البلاد المناصب من الأولاد، وجاءت معهم الأموال والأفكار، وقرب كرم الزيتون المعصرة برمت خَيَّالتُها وانَّشدَ مكبسها بهمة الحاج أمين شاهين الكبير، فحصلنا على الزيت بدون عناء وامتلأت الخوابي بالذهب الأخضر على مر السنين، و من العَكَرْ صار عندنا صابون، ولخبزِ الرغيف بحاجة لتنور، ومجرشة من "حجر رحى" باليد تدور، لطحن الفول والحمص والعدس، شبعت الأنعام وحل الرخاء، نأكل من لحوم الذبيحة وكل ما فيها ما عدا الدم والجلد، منها صنعنا قورمة وشوينا ما لذ وطاب بعد أن فصلنا عنها العظم، وأطيبُ اللحمِ ما جَاوَرَ العظم، فالعظمُ لا نرميه، بطنجرةٍ نَطهيه مع البرغل والملح

والبصل، و درسنا بالمورج السنابل وافترق القمح عنما صار تبن، القمح للطحن فَيُجمعُ بأكياس إلى حين، وتحمله الدواب إلى المطحنة قرب النهر، ومنه قليل للسلق، داهَمنَا التطور في بداية عصر المكننة والنهضة، وبفضل أبو حاتم حامد، لعلع صوت البابور، وارتفع في السماء دخان موتوره عندما يدور يطحن القمح، ليصبح طحيناً، وصار الذهاب إلى النهرِ باتجاه "الميذنة" لجهة جرجوع للنزهة والترفيه.

البابور من الاستثمارات الصناعية الضخمة التي دخلت إلى النبطية، بعد المعصرة، ونشأت حولها، استثمارات ثانوية متممة لما تقتضيه الحاجة، وجود حلة كبيرة لسلق القمح، والحلة (طنجرة كبيرة) من النحاس تستوعب كثيراً من الماء والقمح، حلة الحاجة (ماطي)، لها تاريخٌ عريق، تنقّلت من حارة إلى حارة، ومن بيت إلى بيت، و في كل حفلة سَلق في أحد البيوت تظهر الوحدة ويُترجمُ التعاون وتتوطد الأخوّة والصداقة، حيث سهرات السَّمر حول موقدة الحِلّة، وبعدها يأتي السعي والتعاون، و بسرعة تنتقل القلْبة وهي القمح المسلوق عندما ينضج وينفرش على سطوح المنازل بعد تنظيفها، بفضل همة الجيران كما تُدينُ تُدانَ، فالحلة انتقلت إلى الجار، فيرافقها الجميع لرد الجميل حتى يفرغ أهل الحارة، من جار وجارة من التلذذ بأكل البصل والبطاطا، المشوية بعد دملها في رماد الموقدة.

تجففت حبيبات الحب المسلوق بفضل أشعة الشمس، و كانت بالماضي تنتقل أكياس القمح المسلوق على ظهور البغال والحمير إلى أقرب مطحنة للتكسير فيخرج البرغل، أي السميد ومنه الناعم وهو الصريصيرة، ومنه الخشن ويسمى سميد (الفلفلة) ومنه الوسط وهو سميد (الكبة) وتقدم القشور وهي (الرويشة) إلى الدجاج والأنعام كعلف بعد خلطها بالماء، والصريصرة تختلط بالعجين بعد أن يضاف إليها السمسم واليانسون وتُعجن باللكن وترق وتدهن بالزيت واللبن وتحمل على سدور وصواني النحاس و القش وتتوجه بغنج ودلال الى الفرن فتخرج بعد الطهي ، المشاطيح وما أدراك ما المشاطيح!

أنواع السميد يتم تنخيلها بعد تعرضها لأشعة الشمس، حتى تذهب منها الرطوبة توضع في أكياس بيضاء أعدت خصيصاً لذلك، وتخزن في أماكن جافة وترقد كدفتر التأمين إلى يوم الحاجة، على طبليات من خشب في سدة المطبخ، فالسميد أو البرغل هو سندة البطن، ومسامير الركب، البرغل الوسط إذا جبل باللحمة المدقوقة أصبح فراكة نية وكبة نية، بعد أن تضاف إليه الكمونة، والبرغل الخشن هو للطبخ، إن طُبخ مع العدس صار مُجدّرةْ، وإذا طُبخ مع مرقة اللحم وحبوب الحمص صار اسمه:" برغل بـدفـيـن".

وإذا امتدت اليد إلى سنابل القمح الخضراء، وجمعتها كالرزم وشُوِّحت الشمايل بالنار يأتيك صاحب الفخامة: الفريك، سيد نفسه، لا تحتاج في أكله الى شريك، إن طُبخ بالدجاج أو بلحمة موزات وقطع من(لية) أو عصعوص قرقور، فحذارِ من التخمة.
تحضير السميد متشابه في جميع أنحاء القرى والبلدات الجنوبية، ولكن الجديد في النبطية منذ فترة الثلاثينيات هو مكننة الجرش والطحن واستجلاب المعدّات الحديثة العصرية، مما ساعد الناس وسهَّل لهم القيام بهذه الأعمال، فالبابور- المطحنه الممكننة كثُر الطلبُ عليها، فتناسخت وأصبح في النبطية مؤسستان، بابور أبو حاتم وبابور الحاج عبد الكريم قبيسي، وبعد مدة من الزمن تخلّى أبو حاتم عن ملكية بابوره إلى السيد حسن قبيسي الذي كانت تثور ثائرته عندما يأتيه أحد الزبائن، الذين يجهلون انتقال الملكية إليه ويسألونه عن بابور أبو حاتم، فيصرخ فيهم غاضباً

حسن قبيسي من زبدين   بو حاتم مالو خصة

واستمر التطور، وأقفل بابور حسن قبيسي من زبدين، وبابور الحاج عبد الكريم. وجاء الحاج عياش بالخدمة السريعة للمنازل، وأستحدث طريقة جديدة حيث كان بابوره ينتقل مجروراً بحمار في البداية، من بيت إلى بيت ومن حي إلى حي، وبعده جاء أبناؤه، الحاج نعيم والأخ عاطف، وتنقل بفضلهم بابور الجراش مقطوراً بجرار زراعي صغير.
مواكبة التطور هذه حدثت في جميع البلدات وعلى نفسها الطريقة تقريباً، ولكن الغريب والطريف في عادات النبطية هو إلحاق اسم البابور بشهرة صاحبه وحتى أولاده وبناته، فرغم حفظ جميع أهالي النبطية لنشيد حسن قبيسي، وبأنه من زبدين، ظل اسمه لديهم حسن البابور، وكذلك الحاج عبد الكريم البابور وسكنة البابور، ولكن الحاج عياش كانت كنيته الحاج الجَرَّاش، هل هو بفعل تنقل وتطور موتور الجِراشَة، أم أن مصطلحات الأشياء قد تغيرت بعد تعرفهم إلى بوابير الكاز التي حلَّت محل الطباخ الترابي ومنقلة الفحم وموقدة الحطب.
لم تتوقف الألقاب عند غياب أصحابها، بل انتقلت بالوراثة للأبناء والأحفاد، تَغيرت المعطيات وتطور العصر، وهَجمت علينا الحضارة بهجمة العلمنة، فطحمنا طحماً وزحفاً، بلا رقيب ولا حسيب، نسير بركاب التطور، والجيل الصاعد (من شباب الأمل والمستقبل ومن عباد الله الصالحين)، صارت عنده تسميات جديدة للتعريف تلائم الحداثة والتقدم، أصبح الانسان يُعرفُ بماركة سيارته، وبحامله المحمول وموديله، فعندما

يعجز أحدنا عن تذكر شخص ما، يقول لمحدثه (هيدا شو اسمه اللي عندو اللف البيضا وبيحط (جْلّ على شعره) ومعه الملتيميديا الصوني آخر موديل) والأغرب ما في الأمر عندما ينعجق السير، وتضيع أحقّية، المرور بالدوبلة والتجاوز فيصرخ المستعجل : قَرِّبْ يا مار سادسْ، أو يصرخ أخر: قَرِبْ يا فيات و مرِّق التيوتا (أنثى بالصدفة !).
ويصبح سائق المرسيدس الذي خلقه الله بشراً سوياً يُعرفُ بماركة السيارة التي يقودها، وإذا
ارتفع الزعيق، و لربما عند سماع العيط، يصبح الأنسان قديساً، ويقع الإشكال، (مَارْ سادس) فيصير اسمه بالنبطاني: "القديس السادس"

الحسيباء

في الشدة والرخاء، ومنذُ القِدمْ، كان نظم الكلام والخطابة و تبعه انتشار الغناء، لتصوير مشاهدَ أحداثٍ وحوادث تنسابُ عِبرَالأسماع، فتثير الأحاسيس والعواطف، فتنفعل النفوس تأثراً بما تلتقطه الأذن " فالأذن تعشق قبل العين أحيانا" وكل فن له رواده، ينتقل إبداعهم مع الأجيال ويتخرج من مدارسهم من تميز تطوراً فيبدع ويجيد، ويستلم الدفة من بعده آخرٌ يبدع ويجيد، من زرباب إلى الموصلي وحبَّابة إلى ألمظ وعبدو الحامولي والسيد درويش وفتحية أحمد، و من منيرة المهدية إلى أم كلثوم وعبد الوهاب وسعاد محمد، ولن يتوقف.. ففي كل فترة من الزمن تزدهر هذه الفنون ويتألق اسم وأسماءٌ خالدة ينقل أخبارها التاريخ، وهناك الكثير والكثير لا يسعني ذكر أسمائهم، فكل ذوق ونوع كان له روّاده ومستمعوه ومحبّوه.

لم يذكُر التاريخ إلاّ قليلاً عن الرثاء، حيث كانت مقارنة الإبداع فيه تقوم على ما جاءت به الخنساء بعد وفاة أخيها (صخر) قولاً وإنشاداً، فاحتكرت الخنساء لنفسها الصدارة في الرثاء، وصار اسمها مقروناً به، وكلما ذُكر الرثاء رجحت كفّة الخنساء بلا منازع، لأنها مزجت فصاحة القول بإبداع الإنشاء، إلى أن جاءت "حسيبة بدير" وانتزعت لنفسها من تُراث الخنساءِ مقدرة إنشاد الرثاء .

" الحسيباء" وبفطرة موهبتها لم تُعطىَ حَقًّها لأسباب عديدة، ومنها عدم توافر إمكانيات الانتقال من محور وجودها، وانعدام مقدرة من حولها لإدراك هذه الموهبة، والعمل على صقلها وتوجيه مسارها، لتنطلق وتعلن عن حقيقة وجودها ولتأخذ مكانتها التي كانت تستحقها ، يضاف إليها وفاء " الحسيباء " للعهد، فانفردت بما هو أسمى من الشهرة، واتخذت لذاتها منبراً في زاوية مجتمع، تزاوج فيه وفاء الرثاء بصرخات الفداء، متداوياً بالداء. فيه الحسيباء، تداوي بكاء الحزن بحزن البكاء، حيثُ لا مصاب ولا حزن، ولا بلاء يوازي مصيبة كربلاء.

يجتمع في النبطية كل عام من شهر محرم أهلُ العزاء، لإحياء ذكرى أبي الشهداء، ومراسم الولاء والوفاء لا تكتمل إلاّ بمجالس رثاء "الحسيباء" ، وتتحول دموع المحنة إلى دماء وترتفع الأيدي إلى السماء بالدعاء، وتخليداً لذكرى استشهاد فلذات كبد الزهراء، وعلى مدار عشرة أيام بلياليها تحلّق " الحسيباء " بصوتها الرخيم المتغير الطبقات، السريع التنقلات من ترنيمٍ

إلـى جِداء، مـن رُبـع صـوتٍ إلـى نُـواح، مـن حثيـثٍ الـى صَـدى، تـتقمصُ بدورها صرخةَ العقيلة "زينب" وهي تنادي: واربّاه وامحمّداه.
فيرتفع فيها صوت البكاء والنواح وتخشع القلوب من خشية رب السماء، و لمحبة خاتم الأنبياء ، وآل بيته الأبرار الأبرياء.
أييّ مصاب، أيّ ألم لا ينهزم أمام هذا المصاب وآلامه! وهذا ما يحدث في مراسم التعزيـة، تتكفل فيهـا الحسـيباء بمجـالس التعزيـة والرثـاء، إن كـان الفقيـدُ عريسـاً زفّـت الحسـيباءُ " القاسـم " لعُرسـه ومثـواه، وإن كـان طفـلاً أرقدت الرضيع في مهده ولحده، وإن كـان عزيـزاً وزَّعـتِ القُربَ وسـقت العِطَاش، واستودعت " العباس" ليرتـاح بعد العنـاء، وإن كـان سيدُ قومِـه رفعت يدايها بالرجـاء والدعاء، وصوتها تتغلب عليه غصـة البكـاء قائلـة: "واحسيناه"، "حسبي الله ونعم الوكيل".
صوت الحسيباء كان بلسم مداواة جراح الحزن والألم.
حَسباءُ بالحُزنِ قد انتقلتِ بي من(تقِ دلفةٍ) الى مدرارِ مزرابِ
(تق دلفة: صو النقطة من مياه النش ، المزراب قسطل لتصريف مياه الأمطار)
وأييُّ حزنٍ يتساوى بحزن يوم الطفّ، إن تمت المقارنةُ بعد رثاء الإمام، في نواح "الحسيباء" يتراجع الحزن قليلاً عنمَّن كان سبباً لمجلس الرثاء، في قلوب أهل العزاء، فلم ينسوا فقيدهم، بل قارنوا فيما بين البلاءين؟.
وأييُّ بلاءٍ يُقارنُ بكربلاء؟!.
هنـا القـدر وسـنة الحيـاة هـي الـبلاء، وبكـربلاء القـدرُ والشـهادة، والجهـاد يصغر إزاءها كل بلاء! فـي كربلاء عنوان شعار العنفوان، والكرامـة، و يأبه (يصغر) فيها كل بلاء....
وبصرخة تمتلىء بها الحناجر، وصدق القلوب، وإصرار العزيمـة، ووحدة المسار: نحن قوم إن مات أحدنا قلنا: نشهد إن الموت حق،
إن فُقد أحدنا في حادث ما قلنا: قضاءٌ وقدر،
إن استشهد أحدٌ منا زفيناه عريساً إلى جنة الخلد
نحن قوم تعلمنا في مدرسة الحق والجهاد، فصـار المـوت لنـا عـادة هيهـات منـا الذلـة

(كتبت هذه المقالـة فـي عاشـوراء عـام 1986 كنـت يومهـا فـي النبطيـة وقد مر عليَّ ما يزيد عن عشر سنين، لم أكن موجوداً فـي ربوعهـا خـلال فتـرة إحيـاء ذكـرى عاشـوراء،(منـذ طفـولتي، نـادراً مـا كنـت أغيـب عـن التواجد فـي النبطيـة فـي ذكـرى عاشـوراء، وحتـى فـي فتـرة عملـي فـي أبـو

ظبي، كنت أتعمد التواجد فيها وكنت على معرفة جيدة وطيبة بالسيدة حسيبة هاشم بدير. وقبل أن أترك لبنان في نهاية عام 1975، قمت بتعريفها على الصديق المخرج برهان علوية، وهو من قدامى العاملين بالتلفزيون اللبنانيّ تلة الخياط وكان بصدد إنتاج فيلم وثائقي عن الجنوب، قامت السيدة حسيبة بدير بإنشاد المقدمة، بعد أن تم التسجيل في الإذاعة اللبنانية بفضل مساعدة مديرها كاظم حجعلي، وشقيقه الحاج محمد وكان مسؤولاً فيها عن النقل المباشر على الهواء، ومن فريق عمل برهان علوية، كان بينهم طيب الذكر مارون بغدادي، ومساعده جان شمعون الذي كان يقدم برنامجاً يومياً، لنقد سياسي لاذع مع زياد الرحباني، في بداية الحرب اللبنانية في مطلع عام 1975)

كفى نبكي

الوقوف على الأطلال والبكاء من ذكرى حبيب ومنزل، يتولد منها الكآبة والحزن حيث لا أثر حسي للماضي إلآ الرمس واللحد، فهذه قبورنا تملأ الأرض فأين القبور من عهد عاد، وما هذه الآثار الباقية إلاً الشق المخزون من تاريخ الماضي، فسبحان الذي قهر عباده بالموت والفناء، ولكنَّ التراث وتناقل الحضارة وتواجد معالمها السابقة جميعاً هي من الحوافز الدافعة للتطور الفكري، وفيها الدافع للإبداع والعطاء.

معالم التراث القديم والحفاظ عليها ليست دعوة إلى التقهقر والعودة إلى الوراء ، فالمسيرة مستمرة ولا عذر لمن تخلَّف، ومن أهم عناصر التقدم هي معرفة السرد التاريخي لمراحل تغيير الأشياء، وكيف تعاملت معها العصور الماضية، وشرح مراحل التطور والتحول التي أحدثتها الأجيال عبر الزمن.

هنا يكمن الدليل الحسي المادي والعلمي الذي يدفع بالحضارة قدماً، فالتذكير والتذكر المقرون بالإثبات العلمي هو الحث على العمل المستمر لما فيه استمرارية المجتمع الحيوي الخلاق.

كم وكم استفادت الأجيال في المجالات العلمية والطبية من الآثار الفرعونية والآثار الفينيقية، وكذلك متروكات الفنون الإسلامية من فن معماري ودراسات أدبية، ومدونات في علوم الطب والتاريخ وغيرها من المعالم القيمة إذا تواجدت إمكانية سهولة الحصول على ما فيها يزداد الفهم بما تحمله من دروس وعبر، يتولد منها فيما بعد الإلمام بها، وتطبيقها بحسب الأصول، وترجمة أفعالها ومؤثراتها بما ينفع الحاضر والمستقبل.

غزاة ومستعمرون سرقوا بل نهبوا آثار ومتروكات حضارة من مراقد خيولنا، صارت من أهم مواد البحوث العلمية، ما سلبوه منا صار من مداميك التطور الحضاري، في مجتمعات سارقيها، فامتلأت المتاحف ومراكز الأبحاث بما سُرِقَ ونُهِبَ حتى من قبور أجدادنا، وتحقق قول الشاعر:

باريس مربط خيلنا   ورصاصنا يوصل جنيف

أصبح المقصود مجازي الفعل، فخيولنا لم تحظ بالعناية، فهامت على وجهها سائبة، فاسرت واستولى عليها من استفاد منها وبها، وتم ربطها في صروح الحضارة العامرة المتجددة، واستفاد منها من عمل على عنايتها،

وتوارثتها أجيال حافظت عليها ورعتها وأحكمت طوق الحمامة حولها بالفعل، لا بالكلام والأحلام، بعيداً عن حدود عقول العصافير.
رحلة الألف ميل تبدأ بخطوة، وكم تملكني الحنين إلى من أحب وأحببت كلما زرت متحفاً، أو قرأت سيرة أديب أو مفكر أوفنان، يذهب بي الحنين إليك أيتها الحبيبة لأقف خاشعاً أمام رجالاتك العابرين المظلومين الذين نذروا أنفسهم لرفع رايتك عالياً أينما حلوا .
أرجع من ثناياك مهزوماً مدحوراً مقراً بعجزي وضعف مقدرتي، أجد العذر لكي لا أجلد نفسي، بالقول: "على قد بساطك مد رجليك".
أنظر إلى ما حولي منتظراً "غودو" وليرتاح بالي أضع رأسي فوق كتفيً وأردد: "على قدر أهل العزم تأتي العزائم"، بانتظار أهل عزيمة ومراس أشد وأقوى!
فمن أكون أنا لأتكلم على حسن كامل الصباح، والدكتور مهند والدكتور علي سامي والدكتور منح والدكتور حاتم، هؤلاء، وغيرهم من أصحاب المقدرة في العلوم هم أصحاب الحق الشرعي بذلك، بل كيف أسمح لنفسي أن أسرد أو أذكر ما كانت عليه النبطية في طفرة من فنون الزجل والمساجلات بين السيد جعفر الأمين والسيد نور الدين بدر الدين، وجعيدة توفيق ظاهر " القرحفة "، وأشعار التجنيد الإجباري على أيام سفربرلك، وفكاهات عبد الله كحيل، ومفاخرات أبو معن وشِعر الدكتور علي بدرالدين، وتاريخ جبل عامل للمؤرخ محمد جابر آل صفا، وروائع أبي العلاء الشيخ أحمد سليمان ضاهر، و عذوبة لمسات السحر لياسر بدر الدين، و جنوبيات عبد الكريم شمس الدين، وأغاني منيف بيطار، وقفشات يوسف صدقة وعباس حرقوص الحاروفي، الذي نحتكره لأنفسنا في النبطية، لأنه فيها كان يقضي معظم أوقاته (فلو عاش كما عاش شوقي لفاض الشعر من تحته وفوقه).
ولن أنسى ما قاله لي الدكتور عبد السلام العجيلي عن بلد الشيخين.
أعلام تراث أدبي وعلمي، يجب نثر الغبار عنها والمساهمة في الحفاظ على صحة التراث وحمايته، دعوة إلى من يعنيهم الأمر الدكتور الفاضل الأستاذ جواد صيدواي والأخ الدكتور جهاد جابر والدكتور الجنرال هشام جابر والدكتور البروفسور محمد جابر والدكتور سعيد الصباح والدكتور مصطفى بدر الدين، وغيرهم الكثير الكثير من أهل القلم والعلم والمعرفة، كنوز وسواقي علم وأدب مدفونة في أدراج آل صادق وآل ضاهر وآل جابر وآل رضا وآل بدرالدين، وغيرهم، يجب أن تعود هذه المناجم والينابيع، لتنساب عذوبة في أجواء ورحاب النبطية، عندها لايتوقف

العطاء ولا يجف كما جفت عين الحورانية وعين قبيس بفعل التقاعس، فالحضارة والتراث لا يتم الحفاظ عليها إلا بهمة سواعد أبنائها.
إن لم يكن ممكناً تجميع ما ترك الأحبة؛ وأضعف الإيمان نبذة عن تاريخهم وتاريخ من ارتفع ظله وشمخت قامته، من مصابيح أهل العلم والأدب وكل من سطرّ سطراً على صفحة الماضي، من مغتربين أجلاء، ورجالات المراكز المرموقة، والمكانات العالية في جميع المجالات الخاصة والعامة.
ففي النبطية انتصب صرح صار منارة ثقافة، لايسعني إلاّ أن أشكر القيمين عليه وهو (مركز كامل جابر الثقافي) ألف تحية وتقدير لمن أنشأ وأشرف ورعى.

وكم أتمنى أن يزرع الأحفاد شجرة من الأشجار الخالدة (أرزة، سنديانة، صنوبرة) تحمل اسم من حفر ثلماً في تراث النبطية، لا حرج في اختيار المكان، فعلى البلدية أن تساهم بتحديد المكان ومتابعة الرعاية.
إن تَذكّر مجتمع إبداع ماضيه ازدهر مستقبله.
من هنا عبروا، فإن لم تكونوا مثلهم فتشبهوا.......

ونعم التربيـة

دساكر وقرى وبلدات الجنوب، كانت تكثر فيها الأنعام، وكانت الدواب وسيلة التنقل الوحيدة، وكان سوق يوم الإثنين في النبطية بمثابة سوق عكاظ الشؤون المعيشية من سلع تباع وتشر، أهمها المواشي والجمال والحمير والبغال، مع مرور الزمن ونحن نطمح نحو التقدم... حلَّت السيارات محل الحمير والبغال، في أواسط القرن المنصرم، وخلال فترة، المابين بين، تم استحداث سرية للدرك في مخفر النبطية، استلم مهمة قائد سرية الدرك ضابط شاب نظامي عصامي اسمه يوسف الحركة، حضر يوسف الحركة إلى النبطية فوجد الفوضى واللامبالاة؛ أكشاك البائعين تملأ الشوارع بشكل عشوائي، أصحاب الدكاكين يقتحمون الأرصفة بمعروضاتهم، فوضى عشوائية في مواقف السيارات والبوسطات، وخصوصاً يوم الإثنين- يوم السوق الأسبوعي.

بعقلية العسكري الانضباطي الحازم راح يوسف الحركة يفرض النظام، والضرب بيد من حديد، لقمع التعديات والتجاوزات والمخالفات، وكان قاسي العقوبة والتطبيق؛ ولكي يتمكن من تحقيق ذلك ابتعد عن المسايرات والمراعاة فامتنع عن تلبية الولائم والدعوات، وما قام بزيارة أو زيارات لأحد أعيان أو غلمان البلدة، فكان لا يخرج من بيته أو مكتبه إلاّ للعمل وتفقد الأحوال والحرص على تنفيذ التعليمات والإشراف على إنزال العقوبات، وفي أحد الأيام توفي القاضي الشرعي، وكان مجلس قضائه قرب مكتب يوسف الحركة، فمن الواجب واللياقة خرج الضابط مع وفود المشيعين لوداع الفقيد، والمشاركة بتشيعه، كان ذلك في فصل الربيع، والبساط الأخضر من أعشاب ومزروعات يغطي أرض المدفن-الجبانة، خلال فترة المراسم، لفت نظر يوسف الحركة وجود "كديش" بين ما يشبه الحصان أو البغل، داخل حرم المقبرة، وهذا الحيوان يتنقل حراً طليقاً بلا قيد ولا مربط بين هذه اللحود والرموس، فيلبط بحافره هذا القبر ويقفز فوق ذاك، مما أزعج يوسف الحركة والحضور، فور عودته إلى مكتب القيادة، أصدر أوامره بالبحث عن صاحب هذا الحيوان وإحضاره بأقصى السرعة إلى مكتب القائد، انطلقت عناصر مخفر الدرك من الكبير إلى الصغير للتحري والإستعلام عن صاحب " الكديش"، وما هي إلآ دقائق، دخل رئيس المخفر على يوسف الحركة ومعه المعني بالأمر مُكبَّلَ اليدين، الأسير المكبل على رأسه كوفية وعقال، أسمر اللون، حاد النظرات،

شاربه معكوف على طريقة أتقن تقليدها (سلفادور دالي) فيما بعد، على كتفي الرجل(ساكو) وتحتها صدرية غبانية تغطي الصدر وعليها عمود من الأزرار المصنوعة من الخيطان المجدولة، ترتفع من حدود الخصر الى ما دون الرقبة، حيث تظهر أطراف قميص أبيض، ولسرعة ارتدائه أختفى تحت الصدرية قبته، وارتفعت انتصاباً الطرف الآخر، فتعدى حدود قبة الساكو؛ يرتدي الرجل شروالاً أسود فضفاضاً على جوانبه تطريز بخيوط فضية لرسم شبه لولبي يحيط بشق الجيوب المخفية في بطانة الشروال، ينتقل بلا جوارب، و في رجليه حذاء أسود اللون مقفل من ناحية أصابع الرجلين، مطعوجٌ ابتداءً من الوسط، و تختفي مؤخرته عند الكعب، كان الرجل طويل القامة، نحيلاً، إن نظرت إليه شعرت بأن خيالة سفربرلك الإنكشارية قد خلعت عليه ثياب قائدها، وأعطاه يوسف بك كرم حدة النظر وعنفوان معالم الوجه، وأعاره الأمير فيصل الأول حطته وعقاله، حتى أصبح وكأنه الملك فيصل بن سعود حين تنظر إليه في الوهلة الأولى، الرجل متوسط السن في العقد السادس من عمره ينعكس على مرآة مظهره صورة تقليدية تعطيك فكرة عن رجال الوجاهة والهمشرية معاً، لما كان يرتديه من مزيج عشوائي من الزي التركي والشامي يضاف إليها لمسات بدوية نَوَرِية الطراز (النَورِ الرُحَّل) .

وقف الرجل مكبَّل اليدين، وعلى وجهه علامات الاستغراب والدهشة، مدركاً خطورة الموقف، لما حصل خلال عملية القبض عليه، وطريقة معاملته من قبل رجال الدرك، وبما هي عليه حالة الضابط الشاب الجالس خلف مكتبه، حيث يستعين على إخماد نيران غيظه بضربات مترددة سريعة، بكرباج قصير مجدول معقود يحمله بيده اليمنى، ويضرب به بنرفزة شديدة على صفحة كفه اليسرى.

وفجأة صرخ الضابط الشاب بلهجة الأمر العسكري وبصوت جهوري:
أنت صاحب الكديش اللي فلتان بالجبانة.

وبسرعة البرق وقبل انتهاء يوسف الحركة من كلامه، تبسم الرجل قائلاً بصوت خافت فيه الوقار والثقة: (كنت صاحبه وزعلت منو لأنو أخلاقه شكسه وأزعر فزعبته من البيت).

هدأ روع يوسف الحركة، وتوقفت ضربات كرباجه كَمنْ صُب عليه ماءٌ بارد، وأمر الشاويش بفك الكلبجات وقال: مع السلامة يا سيد عبد الكريم أبو قاسم سلوم .

خرج أبوقاسم حراً طليقاً (مش كل مرة بتسلم الجرة)، وتلافياً لموقف محرج ومفزع أمام يوسف الحركة، توجه نحو الجبانة وقام بنقل الكديش إلى الناحية الأخرى حيث توجد مدافن آل جابر الكرام (وهذه مدافن خاصة تبرَّع بأرضها الفاضل رشيد حيدر جابر أبو شكيب ووالد معالي الأستاذ عماد جابر).
ففي حينه لم يكن في هذه الجبانة إلاَّ القليل من اللحود، وبهذا حَسُن اختيارُ أبو قاسم، لمرعى الكديش، (الأرض واسعة والمرعى خصب) وصل الخبرُ إلى الفاضل أبو شكيب، فأرسل بطلب أبو قاسم، وعبثاً حاول إقناعه بأن للموتى حرمة، وهذه الأرض هي ملك خاص، فكان جواب أبو قاسم له أبعاد استراتيجيه، وقال وبلهجة (تحرق القلب): أنا رجل فقير ولا أملك من المال الكافي لإعالة أهل البيت فكيف لي بشراء علف لهذا الحيوان المسكين.
وبسرعة تلقف أبو شكيب المقصود ونقد أبو قاسم المعلوم الكافي لإطعام أهل البيت وشراء العلف للكديش ورفاقه، الذين كان أبو قاسم يقوم بتوزيعهم في المراعي الخاصة والعامة.

قول مأثور من خطبةٍ للدكتور الرفيق حيدر بيطار:
الشعبُ شعبٌ والجيشُ جيشٌ والحدودُ حدودٌ ولا يحمي الحدودَ إلاَّ أهاليها.
مستنيراً بهذا القول المأثور تطوَّع قاسم حمادي بالجيش (قاسم من النبطية ولكن طباعه وكنيتَهُ المتعارف عليها كانت مستوردة من معالم بلاد الإنكليز)
لا يحمي الحدود إلاَّ الجنود من أهالي جنوبيها، والضباط من أهالي شماليها.
وبناءً عليه كان مركز خدمة الجندي "الأول الممتاز قاسم" على حاجز قرب شبعا في منطقة العرقوب، مهمته كانت التدقيق بهوية المتنقلين من وإلى " فتح لاند "، توقفت مركبة تقل السائق فقط، وبعد(قِفْ) وطلب الهوية، نظر قاسم إلى من يجب أن يكون من النبطية بحسب بطاقة الهوية، فلم يتعرف عليه فقال له: إن كنت من النبطية لازم تقول لي شو معنى النعارة والكوارة والطارة ؟
راح السائق بغفوة صمتٍ رهيبْ مندهشاً مرتبكاً متلعثمَ اللسان!

فقال له الباسل المغوار: " هُرً، قوم، إنزل من السيارة، الهوية مزورة ، لو عن حقيق إنت من النبطية لكنت عرفت!!"

(يجب إبراز بطاقة الهوية او إخراج قيد عائلي حديث العهد لمعرفة الجواب)

(أُطلق على منطقة العرقوب أسم عربي حركي ثوري "فتح لاند"، وذلك بعد توقيع اتفاق القاهرة في أواخر عهد جمال عبد الناصر، وفي فترة نهاية ولاية الرئيس شارل الحلو، وبحضور الرئيس المنتخب الجديد سليمان فرنجية)

السميحية عرين الأسد

الأصيل من سبط دخيل، نجمه سهيل، مقامه سامي، رافعاً راية العلم، منتصب القامة مرفوع الرأس، شديد العزم، كريم الخلق، صارم بحزم، حاكم بعدل، حليم بصبر، مهيب بلا تخويف، صريح شفاف، سميح مسامح.
لا أملك حجة أدافع بها، لن أدخل عرينك، أمام بابه سأبقى، ولن أطرقه مستأذناً، بل سأبقى مُسمَّراً في مكاني منتظراً خروجك، عندها أقترب منك مذعناً باعتذارٍ عن بني قومي، آسفاً ومعزياً نفسي، معترفاً بذنبٍ اقترفه غيري، عشمي بتسامحك وصفحك، لن أطلب منك أن تنسى، ولا أتوقع منك انتقاماً، لأن التسامح من شيمك، هكذا علمتنا أيها المعلم، نعم سأستجيب لطلبك "رُوحْ جيب بَيَّكْ "، أنت الكبير وندك يجب أن يكون من مقامك سيدي، يدي قصيرة و في فمي ماء، أحمل على عاتقي ما اقترفته جماعة ممن حطت رحالهم في ربوع عشيرتي.
الجهلُ عَبثَتْ أياديه بنا فَجَرَّنا إلى هاوية نكران الجميل والتنكر لما كانت عليه تعاليم عقلائنا، تحت جناحك احتمينا من الجهل، وَنهلنا من العلم، في ربوع صرحك وبرعايتك.
لا تحقد على عقوقنا فأنت ما علمتنا الحقد، وكان المُفردَ عندك جمعاً "فوت عا صفك كاتربيم" .
لا تحزن أيها المعلم، سيأتي يوم الندم، وتتحسر قلوبنا ونَحمل عار فعلتنا بخجل وذل، وتبقى الوصمة تلاحق ضمائرنا وسنبقى في حيرة وتردد، فهل انتابنا الجبن والتقصير أم السهو والتغاضي.
لاعذر لنا، فما تمادى به البعض أصابت شظاياه قلوب الجميع منا، في غياب أوغفوة كنا فلا تبرير لدينا.
غِبتَ عنا بعد أن غَيَّبناك، ابْتعدتَ بعد أن أبْعدناك، رَحْلتَ ونحن من رحّلناك.
عنوان محبة وأخوة، كنت أنت شعارهم، كفرنا بالشعارات حين افتقدناك.
معذرة سيدي، يا من تحملت منا الكثير في صِغَرنا نطلب منك الصفح عن صَغائرنا. صوتك مازال يصدح كما هو يوم تأبين الأستاذ أنطون الصايغ في حسينيتنا. ماهكذا نحن وليست هذه قيمنا، فلقد غُدرنا كما غُدرتم.

وعن الشيخ محمد نجيب مروة:

وضعتني الأقدار ما بين قومٍ لا يُـراعــون ذمـةً للضمـير
يعبـدون القـويَّ لا لخـلالٍ ساميـاتٍ ولا لِعِلــمٍ وفـير

الأنترنت في النبطيـة

حدث القرن العشرين الأبرز كـان بـلا جدال هو الأنترنيت. هيمن وطغـى على غيره من الأحداث التي لا تقل عنه منفعة وإفادة، لأن الأنترنت تواجد بسرعة هائلة، ويتطور قدماً في كل يوم يمر عليه، وذلك لسـهولة الحصـول عليه وسعة الانتشـار، ولقدرتـه الواسعة، فأصبح نافذة تطل منها علـى مـا يمكن الاستفادة من سائر الأحداث العلمية الأخرى، التـي تعاقبت ظهوراً، وسـاند بعضـها بعضـاً واجتمعـت علومهـا فـي امكانيـات مقدرة الأنترنـت، الحصول عليها.

كـان الأنترنـت موجـوداً فـي النبطيـة قبـل بدايـة النصـف الثالـث مـن القـرن العشـرين، وقبـل وجـوده فـي سـائر أنحـاء العـالم، بـدائي الفطـرة بإمكانيـات استعماله والاستفادة منه، كان في متناول من يريد، لأنـه كـان شـبه مجّـاني، وإذا تقاضى بدل أتعاب فتكون قيمتها "مسخره"...

إن سألته عن بيتـاغور يجيـب وعـن باسـكال ونيـوتن يعطيـك الشـرح الكـافي والـوافي، إن تواجـد الطبشـور الملـون واللـوح الأسـود كـان خيـراً، الجـواب يأتيـك ولـو مرسـوماً بقضـيبٍ علـى صـفحة تـراب الأرض، لا وقـت محـدد لاسـتعماله ولا مكـان، فـي وسـط الشـارع كـان أو قـرب دكـان، خدمتـه إلـى المنازل كانت متوافرة ، والسعي إليه مقبول وبابه ليس بمقفول!.

دائرة علوم ومعلومات عامة من رياضيات وفيزياء وكيمياء ولغـات أجنبيـة تلـك كانـت مواصـفاته، لا يعيبـه شـيء، ولا يحجبـه عـن هـذه المعلومـات إلاّ خوفـه مـن جحـوظ العينـين وسيطرة " زكيـة" (الجـاحظ كـان سـبب رسـوب الأنترنـت فـي البكالوريـا فـلا علاقـة لـه بالشـعر والأدب، أمـا زكيـة فهـي زوجته وكانت بارعة في الخياطة والتطريز)

سـهولة استعماله ليسـت بحاجـة إلـى توصـيلات كهربـاء، ولا إمـداد تغذيتـه بديسكات خارجية ولا يحتاج إلى برمجة، لا يتوقف مستوى معلوماتـه أمـام حـاجز، ولكـل سـائل وبحسـب مـا يسـتوعب فهمـه، يأتيـه الحـل بالمسـتوى المناسب شـرط أن يكـون السـائل إلـى ذلـك راغـب، لوحـة شـروحاته ملونـة وعليها المتساويات تحمَّرت، والمتعادلات تزرّقت، والمختزلات شطبت، و ارتفع ميزان العدل للتوازن المحق العـادل، وبقطعـة مـن مطـاط أو مغيـط ، تـم تثبيتهـا بمسـمار دُقَّ بـالحيط. فـي وسـطها قطعـة مـن الطبشـور وبطرفهـا قطعة أخـرى تـدور، تـهون عليـك الأمـور، ويتحـول الـوهم إلـى فهـم، الـدليل الحثي والإثبات موجود، وكل طلب ليس بمردود، الأنترنت يستعمل وسائل

بسيطة لشرح المعادلات وحلها وفوق إشارة التعادل(يساوي) كان شعار ميزان العدالة إجباري.

إن اخطأت بالسؤال لا يتأخر عليك الجواب يأتيك ومعه التصحيح، إن كان من ذوات المحجمات والصعوبات، قصاصات الكرتون تحوَّلت إلى مكعبات، ولتزداد الذاكرة تعزيزاً بتعزيز، قطع القماش تأتيك بتطريز، قامت به "زكية" بعد حصولها على الخرجية، وأبو "ميهوك" دائماً متعبٌ ومنهوك، لا يتغير عنده الهندام فتشعر بأن الزمن قد توقف ونام، صيفاً كان أم شتاء "الكاغول" يحمي الرأس، لتبقى المعلومات داخل دائرة الذاكرة محتفظة بدرجة حرارتها اللازمة وجاهزة للتقديم، يتنقل الجهاز على قدمين، لا ضياع للوقت في حركة الرجلين، ففترة المسير فيها التفكير، وبتحرك الرجلين يتقدم الجهاز، وعلى الأرض ترتسم الألغاز، تقصير المسافات من الواجبات، والخط المستقيم من الموجبات، لاختيار سهولة الطرقات، وتأميناً لسرعة الخدمات، مساحة التحرك لم تتعدَّ حدود "زبدين"، لكن المقدرة كانت حدودها أبعد من الصين، لا يُحجب عطاؤها من حين إلى حين، عطل أو خلل أو نقص، بل غضب من تصرفٍ غير رصين، من سخيفٍ غير رزين، حلَّت عليه اللعنة فصار لعين، تُمنع عنه الاستفادة لفترة لا تدوم، حتى يعتذر بأنه مظلوم، ولتعود الأمور إلى ما كانت عليه، يعترف خطياً بوجود الشهود، بأنه إلى ذلك لن يعود، ويكتب على الورق والحيط، بأن اسكندر أرقش هو مكتشف طريقة الشرح بالمغيط لتفسير علوم الاموتيسي، وعدد كبير من معادلات الجبروالهندسة

نعم سيدي (oui) و ألف ألف (si)

كان الأنترنت يقيم في مضارب أهل زوجته آل الكسرواني، قرب منزل منيف جابر هل سمعت بعلاَّمة الرياضيات اسكندر أرقش؟

هجر اسكندر أرقش النبطية التي أحبها وكان خادماً للعلم فيها، ومن ينبوع معرفته ارتوت أجيالٌ كثيرةٌ من النبطية والجوار، ممن أصبحوا مشاعل علمٍ ومعرفة في لبنان وخارجه، ومنهم الأطباء والمهندسون والقضاة والأدباء والباحثون.

دائرة البحوث والرياضيات في موسكو، التي كان أرقش على تواصل معها ونشرت له العديد من نظرياته العلمية، استدعته للعمل لديها، تردَّد كثيراً قبل الموافقة، وبعدها ركب عباب البحر بباخرة تمر بالإسكندرية، وفيها تغلّب الحنين على القرار، فاختلق لنفسه عذراً وقفل راجعاً إلى ربوع أحبها، لم يكن من الساعين إلى مركز أو منصب. السميحية كانت معقله،

والجوادية كانت كافية لإرضاء غروره إن كان لديه غرور! (أختار أرقش السفر بحراً لخوفه الشديد من ركوب الطائرة وقفل راجعاً من الإسكندرية لصداع بسيط "ناجم عن دوار البحر" ألمَّ به - حجة مفتعلة).

رجع أرقش إلى ربوعبلدته مرتدياً معطفه المعهود ليستعمل أطرافه كممحاة لمسح اللوح الأسود، لعدم تواجد الممحاة إما بسبب نقص العتاد المدرسي، وغالباً بإخفاء الرعاع من الطلاب لها، ليحرجوه باستعمال أكمام معطفه ويسخروا منه.

فلا تحجبه أفعال الرعناء عن القيام بواجبه، بل كان يقوم بما يمليه عليه الضمير المهني والتربية البيتية التى كانت مثالاً للتهذيب والأدب الرفيع.

إن حدث هرج ومرج في الصف لايكترث، التلقين يصبح محصوراً بمن أراد وعنده الرغبة من الطلاب، وصاحب الحظ الأوفر هو من يستدعيه إلى اللوح فيسقيه المعلم المخلص الأمين نقطة بنقطة من عذب ينابيع مخزونه، وبهمس شديد

بل بوشوشة، واضعاً يده على فمه كي لا يسمع الآخرون:

(مش هيك يا حمار! نسيت تشطب الإيكس وتحمِّر الزد)

" كلمات ليست كالكلمات " يَطربُ لها من تلقاها ويتبسم لها المعلم؛

اسكندر أرقش هل سيلقى التقدير ولو برمز ما أمام السميحية؟

وهل سنعرف يوماً أين وكيف ولماذا غاب عن النبطية ودفن بعيداً عنها؟

بل آه لو تدري من هو أرقش وكيف نشأ!!!

(ميهوك: أسم أبن أسكندر أرقش، المعروف بكنيته ميشال أرقش وهو موسيقار فذ، ولديه معهد لتعليم الموسيقى الشرقية والغربية في باريس، وكان يقدم، ولفترة طويلة، برامج علمية عن الموسيقى الشرقية من " أذاعة الشرق " في باريس، ومؤلف موسيقي لكبار الفنانين المشهورين. ويعزف على آلة العود بمقدرة رائعة مميزة.

وابنه الثاني فيليب، مايسترو عازف كمان من الصف الأول المبدع، ومؤلف موسيقى، ويدير معهداً لدراسة الموسيقى في لبنان)

حرص و شهامة و نخوة

في صباح هذا اليوم المبكر، زيارتي عبر الخيال والذكرى إلى النبطية ابتدأت منذ الفجر، لتكون متوازنة التوقيت مع بدء عمل رجال شرفاء، ساهموا في خدمة هذه البلدة وقدموا لها، بتواضع وبكرامة وعزة نفس وجهد وتعب، الوسائل المهمة للراحة والرفاهية وسهولة العيش، فصحيح أنهم كانوا يتقاضون بدل أتعاب مقابل الأعمال التي كانوا يقومون بها، والأصح هو بأن المعادلة لم تكن على مستوى لائق، فبدلات الأتعاب الزهيدة التي كانوا يتقاضونها، لم تكن تغني ولا تسمن.
ففي النبطية، مات معظم من كان يقوم بأعمال الخدمات المشابهة وهم شبه معدومين، لا يستر أجسادهم إلاّ الكفن وعزة النفس، ويشهد الله بأن دافع الحديث عنهم ليس **إلآ** لتكريمهم وتقديرهم وشكرهم، وليس للتشهير أو التحقير بالعمل الذي كانوا يقومون به، فكل عمل هو شريف وفعل مساهمة في تقدم المجتمع ونموّه وحضارته، هؤلاء الرجال الذين أملك لهم في صدري وفي ذاكرتي كل تقدير واحترام، و منذ الصغر، وأنا أنظر إليهم يقومون بأعمالهم بصبر وجلد، وعلى رأسهم الحاج نعنون (ارجو من الله ان يكون الأسم لا اللقب) هذا العجوز الكهل المنحني الظهر يقود حماره بعد صلاة الفجر تاركاً منزله في حي السراي، متجهاً صعوداً قبل شروق الشمس نحو المحفرة في حي البياض، بدون انقطاع طيلة فصل الخريف وقبل موسم الأمطار، على هذا الرجل تقع مهمة تأمين سطوح المنازل والحفاظ على سلامتها لتمتلئ بيوت الأهالي رفاهية في فصل الأمطار والشتاء.. ففي فترة الخمسينيات وما قبلها، كانت معظم الأسطح وسقوف البيوت ترابية، بل أغلبها، ولم يكن يوجد إلآ بيوت قليلة جداً، وتُعد على أصابع اليد، مسقوفة بالباطون و عدد ليس بالكثير من سقوف القرميد الأحمر، والبقية الباقية كانت المحدلة على أهبة الإستعداد وجاهزة للحدل.
المحدلة كانت تتخذ ركناً لها فوق كل سطح ترابي، تلك الأداة الصامتة، ذات المنفعة الفعالة و الكافية لإبعاد تسرب مياه الأمطار إلى داخل المنازل، فتدخل معها الرطوبة والأمراض والتق، وكان يقال منذ القِدمْ لا يخرب البيوت إلآ ثلاثة هم: التق والنق وغراب البين.
التق هو تسرب المياه عبر السطح ببطء وبشكل متقطع نقطة نقطة، فتحدث صوتاً يسمى التق .

ولهذا كانت المحدلة ولها "مودلاين" القديم البسيط البدائي وهو صخرة من الحجر الصلب منحوتة على شكل أسطواني ملس الجوانب، قطره حوالي ثلاثون سنتيمتر وطوله حوالى المتر، في صفحة قاعدتيه ثقب على طول الجسم لإمكانية تمرير حبل من المرس، من ناحية إلى أخرى داخل جسم المحدلة، يُربَطُ طرفا الحبل بعقدة "بشميطة"، ليسهل بواسطته جر المحدلة، فتتدحرج بدورانها حول محور الحبل بفعل قوة الشد، التي يقوم بها المكلف برفع بلاء التق، متنقلاً بالمحدلة ذهاباً وإياباً بالطول والعرض على مساحة السطح، وزن المحدلة من ستين إلى مئة كيلوغرام تقريباً، وبها تُرصُ وتُرصف طبقة التراب، و كان تأمين وجود مادة التراب هذه مسؤولية ملقاة على عاتق الحاج نعنوع.

أما الموديل الآخر للمحدلة فهو المحدلة الحديثة التي استبدل فيها حبل المرس، بقضيب من الحديد يدخل في جوف المحدلة، من طرف إلى آخر وتعقد أطرافه بعد طعجها، بشكل مثلث متوازي الأضلاع، قاعدته تزيد عن طول المحدلة بعدة سنتيمترات، وطول الضلع المتساوي مع الآخر حوالى متر، ينتهي المثلث بدائرة يسهل بواسطتها جر المحدلة لتتدحرج، دوراناً حول نفسها متنقلة بفعل الشد.

المحدلة ذات حركتين، إذا وَقع عليها فعلُ الشدِ بالحبلِ أو بالحديد، تدور حول نفسها وتنتقل بنفسها في اتجاه مصدر الشد، سرعة المحدلة يتفاعل فيها عاملان: العامل الأول ثابت وهو طول قطر القاعدة، والعامل المؤثر الثاني هو قوة الشد المتغيرة من حادلٍ الى آخر.

مدة حدل السطح يتفاعل بها عاملان: مساحة السطح وهي ثابتة وهمة الحادل ومقدرته، و بحسب ما تقتضيه الضرورة. المحدلة كانت بداية، العجلات في عربات النقل أو العكس، كما هي الحال في تحديد البداية بين الدجاجة والبيضة.

ومن كان حريصاً على صيانة سطح منزله توجَّه إلى الحاج نعنوع ليزوِّده بالمواد الأولية الضرورية لمنع النش والتسرب، و(ما يسمى حديثاً الطبقة العازلة)، وهي مادة أولية أنعم الله بها على بلدة النبطية، بوجود منجم منها في أحد أطراف البلدة وهو المحفرة. العمل بالمحفرة هو كبداية العمل بالمناجم، يتم حفر الأنفاق والدهاليز لإستخراج الأفضل والأجود من التربة الرطبة التي تتماسك ذراتها بعضها ببعض، وتصبح طبقة قاسية، لا تخترقها ذرات المياه الصغيرة، بفعل الرص والحدل، وبهمة الحاج نعنوع لإستخراج المادة الأولية. وتشغيل وتأمين مواد الحدل يتم حسب الشروط في دفتر الإستلام.

وتكريماً لدور المحدلة الفعال كانت جميع القرى تقيم حفلات صراع ومنافسة لإختيار أشجع فرسانها، فيكون بطل المحدلة المختار فيها، من استطاع رفع المحدلة فوق كتفيه، ومن هنا لربما جاءت فكرة رياضة رفع الأثقال وألعاب القوى، وقبل وصول "الفياكرا" استعملت المحدلة لإختيار صلاحية العريس وقدرته الجسدية و الجنسية.

ينتهي دور المحدلة خلال الفصول الأخرى، عندها لا يقف الحاج نعنوع مكتوف اليدين بإنتظار فصل الخريف، بل محبته لهذه البلدة وحرصه على خدمتها، وتفانيه في سبيل المحافظة على نظافتها ورفع أقذار ومهملات أهاليها، كانت جولته المعتادة اليومية الدائمة، مستعيناً بحماره الصبور، مرتدياً في هذه المهمة (قفة) من القش لا لحماية جسده، بل لحمل أكبر كمية ممكنة من النفايات المنزلية لتعم النظافة شوارع البلدة وحاراتها.

الحاج نعنوع حريصٌ أشد الحرص على النظافة، بعد أن يرفع من الشوارع ما تخلَّص منه الناس، و رموه خارج منازلهم وأغلبهم تحت شعار "حادت عن ظهري بسيطة"، فالمهم عند البعض أن يكون داخل المنزل نظيف فيكنس الزبالة ويرمي بالنفايات إلى الجهة المقابلة من الشارع. كبير القوم خادمهم، والحاج نعنوع هو كبير القوم، بحبه لهذه البلدة، فكان هو "البعضُ" الذي يقوم بالعمل فيسقط العمل عن الكل، ولتبقى النبطية " تشم " رائحة أزهارها بعيداً عن الروائح الكريهة التي تسببها حفرات تخزين البقايا من بقايا سكانها.

ثلاثة أعمال مضنية مرهقة، كان يقوم بها الحاج نعنوع بصبر وصمت مقابل دريهمات قليلة، وله عند كثير من أهالي النبطية الاحترام والتقدير، كم أتمنى أن يكون ذلك حقيقة، وأضُيف إليها وقفة الاحترام والتقدير والترحم على هذه النفس البريئة الطاهرة التي كان همها وهدفها أن تبقى رائحة مساكن النبطية طيبة وشوارعها نظيفة وسطوح منازلها عازلة.. وما علينا إلاَّ الترحم على الحاج نعنوع والابتعاد عن النق تذرعاً إلى الله بتأخير موعد غراب البين.

مناضل مقدام آخر سريع الحركة والتحرك، جهوري الصوت، جريء ، طويل القامة، عريض المنكبين، قويّ العزيمة شديد البأس والهمة، تنوعت وتعددت خدماته لهذه البلدة التي أحبها، وإن أنسى لن أنسى ما حدث في أحد أيام شهر شباط 1954 الممطرة.. أنهمر فيها المطر بغزارة فأمتلاء البيدر بالمياه، ووصلت الى أرتفاع عالي جداً بفعل غزارة الأمطار، وانسداد "المعدية" التي كانت تمتد من ناحية البيدر باتجاه بئر

القنديل ، تحت ملعب مدرسة الزهراء وبستان الحاج حسن علي أحمد المحاذي لمنزل الحاج جواد مروة، أتربة ونفايات وحجارة تسللت بفعل قوة دفع المياه، فانسد المجرى وتوقف تصريف المياه فراحت تتجمع، (الأرض من عند زاوية مدرسة الزهراء لجهة محول الكهرباء وموقع مولّد الكهرباء سابقاً، حتى زاوية أخر دكان من مبنى الجوهرةكاراج المقدم ومقابل دكان ابو عزو جابر، منخفضة عمّا حولها) و الأمطار المنهمرة من ناحية سوق الغلة والساحة العامة أخذت بالتجمع في هذه المنطقة المنخفضة بما فيها البيدر المحاط بحائط من الجهة الشمالية المقابلة لمنزل الشيخ حسن صادق ومنزل السيد حيدر فران ومنزل آل الجعجع، وكذلك بحائط آخر مقابل الحسينية والجبانة ينحدر من علو حوالى المتر من سطح البيدر حتى يتساوى مع مستوى طريق الإسفلت أمام مدخل الزهراء، و ارتفاعها عن سطح البيدر يعادل المترين بحائط من الباطون المسلح..... هذه العوامل جعلت من أرض البيدر(المحصورة الجوانب)، كخزان ماء هائل تأتيه المياه من جهة كاراج المقدم، والمصرف الوحيد كان (المعدّية) تحت ملعب الزهراء، وما هي إلاّ فترة قصيرة من الزمن حتى طفحت المياه وراحت تتسرب إلى داخل منزل الحاج توفيق فقيه و منزل الحاج جواد مروة و مدرسة الزهراء. الأمطار تنهمر بشدة والبرد قارس، وإذا بالسيد حسن حمود بدر الدين والد الفنان الأستاذ علي بدر الدين، ينطلق مسرعاً من جهة دكان الحاج توفيق محيي الدين ويعبر هذا المسبح المائي الهائل متوجهاً إلى مدخل "العبَّارة"، يغطس في الماء لرفع الحواجز العائقة، في معاناة دامت أكثر من نصف ساعة ووفود المشاهدين اصطفت على أسطح المنازل المجاورة وفي رواق كاراج المقدم وأمام دكان الحاج توفيق محيي الدين في المناطق المرتفعة تنظر إليه باستغراب وتعجُّب!، قضي الأمر وإنزاح كابوس الخطر وبدأت المياه تنحسر تدريجياً، عندها عاد البطل وكأن شيئاً لم يكن وهو يقول: "الله ستر، الله كبير... الحمدلله".

هذا الرجل الطيب الشجاع المؤمن كان أيضاً رجل المهمات الصعبة المؤلمة، يرتفع صوته تكبيراً وتهليلاً في لحظات الوداع الأخير أمام المشيّعيين والمحّبين لكل فقيد غال اختطفته يد المنون... فالسيد حسن حمود كان يزفُّ الفقيد ويذكِّره بلقاء ربه وبخلود خالقه، فما أعذب صوته وما أصدق قوله: " سبحان الحي الذي لا يموت ". هذا النمر القويّ الذي كان ينتشل كيس الطحين ذا" حز الأحمر" ويضعه تحت إبطه قابضاً عليه بذراعه، وكأنه مخدة من الريش وليس مئة كيلو طحين! فقوة إصراره لم تكن محصورة بالقوة الجسدية فقط، بل بلهفة شديدة إلى العلم والتحصيل

العلمـي كـان يفتخـر بـأولاده ونجـاحهم المدرسـي، دائـم الحركـة والعمـل فـي أعمال شاقة خلال النهار لرعاية مزرعته الخاصة والإشراف عليها وتأمين استمرارية التناسل الحيواني لأبقار المنطقة والجوار، و كان يحسـن اختيـار عجول مزرعتة ويتقـن تربيتهـا.

نجم آخر من الفولكلور النبطاني، من الوجوه التـي كانـت تبعـث الـدفء والرفاهية في بيوت النبطيـة خـلال أيـام الشـتاء البـاردة، وعلـى مـدار السـنة وعلى الدوام، وبالسرعة في التسليم وكذلك بتسهيلات الدفع، إذا نظرت إلى ملامح وجهه وهو يرتـدي لبـاس الفرسـان الخيالـة الأصـليين، و علـى رأسـه قبعـة" بـادن بـول" تخيلـت نفسـك بأنـك أمـام (انطـونـي كـوين) يقـوم بأشـهر أدواره في فيلم كاو بوي أميركي.

رسمت الأيام على خديه وعلى جبينه معالم الرصانة والمعاناة، فتشـعر بأنه قادم من بعيد، مـن خلـف الأيـام، بعـد أن قطـع المسـافات الطـوال خـلال سفره المضني، لكنّ العزيمة لم تخنـه فنشـاطه مـا زال فـي ريعـان فتوتـه، و هو على استعداد لمتابعة المسير.

إنـه الحـاج أبـو نمـر المـدني، بـائع الكـاز والمـازوت، يقـود حنطـوره خـزان الوقود من مازوت وكاز ، ينفخ بمزمار مركبته فتطمئن وتهدأ نفوس ربات البيوت، وتكون المشكلة قد حُلّت وتمتلأ البيت دفئاً وارتفع في الهـواء دخـان الصوبيا وهدر بابوبر الكاز في المطبخ مزغرداً، فـلا حـرج إن كانـت ربـة البيت تملك اللازم من النقود، أو تطلـب مـن أبـي نمـر بـأن يُمهـل الـدفع إلـى الأسبوع القادم أو أن يمرَّ على راعي البيت في دكانه في نهاية جولته، فأبو نمـر قـد أدىً مهمتـه وقـام بواجبـه معبـراً عـن حبـه لهـذه البلـدة فـي تـأمين الرفاهية والمسـاهمة بتسـهيل أسـباب المعيشـة، فمـا سيحصـل عليـه مـن مـال آجلاً أم عاجلاً لا يسد الرمق بعد دفع ثمن المـواد للمصـدر، رحـل العـم أبـو نمر وترك بصمة من بصمات رجالات هذه البلـدة الـذين أحبّوهـا فخدموهـا بطيبـة وعـزم، فاسـتحقوا التـذكر والتكـريم والاحتـرام، وشـعارهم كـــان: "حــرص وشهــامة ونخــــوة"

زفّـــة العـــروس

طقوس ومناسبات ومراسم كان لها في النبطية بروتوكول خاص، يُحتفىَ بها بالطريقة نفسها تقريباً من حي إلى حي، ولكنها كانت فريدة عما سواها مما يحدث في غير هذه البلدة، هنالك لمسات خاصة بالنبطية.

ما أكثر القصابين في لبنان، "فنَفَس" بيت البدوي كحيل وأولاده كان يعطى ويضيف إلى اللحمة من تحت أيديهم نكهة خاصة، وخصوصاً لحمة الكفتة المجبولة بالبصل والبقدونس والمشوية على كانون الفحم، وجمره الناعس في دكان علي البدوي كحيل. اسأل المُجرب، فلن تجد معارضاً واحداً لهذا الرأي من جميع أهالي النبطية، خلطة السفيحة - أي اللحم بالعجين (من تحت أيادي علي البدوي وأخوانه كانت مشتهى أصحاب الذوق الرفيع) السفيحة في النبطية لها طعم خاص وشكل خاص، وما يكفي لإثبات ذلك، هو ما كانت تؤول إليه النبطية في نهاية كل أسبوع تتوافد إليها أعدادٌ كثيرة من القرى والبلدات المجاورة وصولاً إلى صيدا، و زيارة الأولاد (هم من أبناء النبطية المقيمين في بيروت) ويُحكى بأنه في القديم كانت زيارة الأولاد هذه يقام لها احتفال رسمي، يخرج فيه أهالي البلدة بالأعلام والسناجق والطبل والدف والزمر، حتى مفارق حبوش وكفررمان، لاستقبال الأولاد على المشارف (وقيل بأن ذلك فقط في ذكرى عاشوراء).

بعد عطلة الأسبوع وإزدحام أسواق النبطية بالزوار والزائرين الوافدين إليها للزينة والتمتع والراحة، يأتي يوم عرس النبطية الأسبوعي- نهار الأثنين.

النبطية عروس تُزفُّ كل أسبوع منذ القدم، وبما أن أحد شروط العرس هو الإشهار وحضور الشهود والمعازيم، فلا دعوات رسمية كانت توزع بل كان العرس حافلاً بمن حضر ويحضر، وفود منطقة حاصبيا ومرجعيون كانوا يلبسون الزي التقليدي "القبوعة" على رؤوسهم، والقمصان البيضاء تعتلي الشراويل الفضفاضة السوداء، كانوا كرجال الإكليروس، وحرصاً منهم على المواعيد الدقيقة كانوا يتوافدون مساء يوم الأحد، لأن مراسم العرس التقليدية تبدأ بهم، فيصطفّون على جانبي الطريق من مدرسة الزهراء إلى قرب مستشفى الدكتور علي كلوت حالياً، فور وصولهم تبدأ مراسم التحضير والاستعداد، فترتفع وتمتد هضبات من التفاح والسفرجل وأكوام الفواكه الموسمية من الرمان اللفاني والحلو وأكياس اللوز والجوز كانت تأخذ مكانها إلى جوار تنكات الزيت والزيتون الأسود والأخضر بعناية وحسن هندام، بإشراف الوصيفات المصونات

اللـواتي التفـت رؤوسـهن بمناديـل بيضـاء نقيـة اللـون، وعلـى أجسـامهن جلابيـب فضفاضـة سـوداء، بعـد عمليـات التنظـيم والتوضـيب تـأتي علـيهم (أمنة نعاس) وفترة راحة حتى مطلع الفجر، فينكشف الغطاء الذي يستر الديكور ويحميه من الندى، ويبدأ العرض الرسمي بوصول وفود أهالي كفررمـان، الـذين يأخـذون مكـانهم فـي فسـحة بشـكل زاويـة قـرب كـاراج المقدم، مقابل دكان الحاج توفيق محيي الدين ومتاجر الحاج رضا جابر شمالاً، وإلى دكان الحاج جواد فقيه وصالون الحاج حبيب كحيل جنوباً.

المكان المخصص لوفود كفررمان، ليس وليد الصدفة بل كان مدروساً لخيارين، الأول إيجاد مسافة فاصلة ما بين جناح أهالي حاصبيا وأهالي قاطع النهر، ليس لمنع الاختلاط بل حرصاً على سهولة الوصول إلى المحلات التجارية والدكاكين التي كانت تفصل بين الجهتين، وترك الساحة ما بين الجامع الجديد ومحلات الحاج عبد المنعم الشوكيني (كاراج أبو عفيف جابر سابقاً)، والحاج حطيط وكاراج وهبي مرتعاً للسيارات التي تؤمن حركة الاتصال ووصول الشهود والحضور من المناطق الجنوبية: زبـدين، الـدوير، حـاروف، أنصـار، جبشـيت وعبـا، الشـرقية، النميريـة.. فخـدمات التنقـل والانتقـال يضـاف إليهـا الخيـار الآخـر وهـو السـبب الاسـتراتيجي، لوجـود محـل الحـاج توفيـق محيـي الـدين الـذي كـان بمثابـة قنصـلية معتمـدة مـن قبـل إمـارة كفررمـان، وفيهـا إدارة وفـرق الصـيانة ورعاية مصالح وشؤون مشاريع كفررمان الاستثمارية في النبطية، بما فيها مصلحة مياه نبع الطاسة فالفنيون والتقنيون المشرفون على الصيانة وحسن سير العمل في هذا المشروع الحيوي الضخم كانوا كلهم من خبراء كفررمان، المنتدبين للإشراف على الصيانة والشؤون الهندسية وإصلاح الإعطال.

موقع جناح وفد كفررمان لم يكن رمية من غير رام، بل تخطيط واستراتيجية، جعلت من دكان الحاج توفيق محيي الدين مركزاً لبيع قطع الأكسسوار للصناعات الدقيقة المشتقة من مستلزمات توزيع المياه، حنفيات وسكورة وقساطل وأكواع، ومركزاً للإستعلامات وتلقي الشكاوى وتأمين الإسعافات الأولية من فرقة التدخل السريع، بعد الإطلاع على اللوح الأسود حيث المعترض يكتب اسمه بالطبشور على لوحة سوداء، يتم التدخل بعدها تحت إشراف الحاج العم أبو حسين سلطان ورعاية السيد محمود الذي أصبح اسمه (محمود الماي)، وفد كفررمان وبناء على ما تقدم، يتخذ ركنه المختار، وكان مسؤولاً عن تقديم الكوكتيل والمقبلات للضيوف والشهود الوافدين، من الفجل على جميع أنواعه المكبل والبلبل

والمطاول الأحمر والزهري إلى الهندبة "العلت" و القرّة و أنواع الحَر والفلفل الأحمر منها والأخضر، وكفيار قلب الطير والسلق والملفوف والقرنبيط وغيره من منتوجات التراث (الميذني) وسهل وادي كفررمان وحقولها، ومما جعلته الأيادي الرشيقة الكفرمانية تراثاً بلا منازع، له معجبوه وروّاده من مختلف الطبقات والأذواق، العجيب الغريب بالأمر أن جناح كفررمان كان مقصد الجميع للتزود بالحَر والفلفل الأحمر وقليل من أهالي كفررمان من يتناول هذا النوع من المقّبلات ولربما كان نادراً (وجب التأكد).

الساحة الصغيرة ما بين دكان السيد شريف مكي ودكان هاني مهنا ومدخل البريد وعيادة الدكتور علي بدر الدين إلى دكان الحاج محمد قديح وكاراج شعبان أخوان ودكان الحاج محمود الصيداوي ودكان الحاج أبو علي فقيه ودكان حسن كامل كحيل و"فوشون" النبطية الحاج جواد فقيه كانت مخصصة كمدرَّج لإقلاع وإنطلاق مركّبات التنقل، منها السريع الكونوكوردي إلى ميفدون وشوكين، ومنها الكلاسيكي بمركبات الأيربَس بأتجاه كفرصير والقعقعية وعدشيت، حتى برج قلاوايْ وفرون والغندورية، قرب المدرَّج يقع دكان محمد قديح وعلى رصيفه جناح "العكباوي" من منكوبي فلسطين المحتلة من قرية (عكبرة) في منطقة صفد الجليل.

يتربع "العكب" على حِرام من الصوف وأمامه ماكنة الجلخ الكهربائية، وإلى جانبه تحفة نادرة أبت إلاّ أن تُهَجَّرَ مصاحبةً له وتضامناً معه.

عند حدوث عطل طارىء في الكهرباء يستعين "العكب" برفيقة تهجيره لتلبية الزبائن.

الجلخ التقليدي بدولابه الخشبي الكبير المشابه للدرّاجة الهوائية ذات العجلة الواحدة التي يستعملها بهلوانات السيرك، تدور عجلة جلخها، عندما يقوم "العكب: بتحريك رِجْله اليمنى نزولاً وصعوداً ضاغطاً على ذراعٍ خشبي، طرفه مُثبَّت في أسفل القاعدة بمفصلٍ، وفي طرفه الآخر شُدً قشاط من الجلد يَلتفُ رأسه حول "الكورون والبينيون الأكسنتريك"، مع حركة قدم ساق "العكب"، تدور الرحى مصحوبة بحركات رقص كلاسيكي يتمايل فيها رأس "العكب"، بانسجام تام مع حركات يديه، مصحوبة بسمفونية عزفٍ موسيقي، ويتسرب النغم هادئاً مصحوباً بأسهم نارية.

جناح "العكب" ورفيقة دربه التقليدية، هو جناح الموسيقى التصويرية، وهتافات الباعة و المعلنين، هو النشيد الأوبرالي والكورال المصاحب المتمم لها.

الساحة المتروكة، من أمام دكان محمود كمال إلى محلات الحاج عبد الكريم الصباغ وولده حسن، كانت للحركة وتسهيل الدخول إلى الدكاكين والمحلات و لأسباب خاصة، و هي مراعاة خواطر (حاتم وأبو مهيوب)، وكان لهما جناح خاص ودائم طوال أيام الأسبوع على زاوية دكان الحاج سعيد دغمان، يتوسع وتتنوع معروضاته نهار الاثنين، وفيه جميع أنواع الطيور من مربى الدلال إلى الحمام الزاجل.
البيدر كان مركز إيداع مهر العروس، وعند بني قحطان المهر كان إبلاً وجمالاً وأنعاماً من ماعز وغنم وحمير وبغال.
الجمع والحضور بين هرج ومرج، يتلاقون بين سلام وحديث، يتنقلون بين أرجاء الأجنحة، حيث الذبائح ومتممات الولائم خصص لها جناح على حِدة واتخذت من سوق اللحم مركزاً لها كي لا يعكَّر صفو المشاركين دخان المشاوي والكوانين، قرب ساحة الرقص الكلاسيكي التقليدي، الراقصون يتمايلون بخفة بين تماثيل سمراء اللون قصيرة القامة ملفوفة الرداء حول العنق والرأس، تمتد أيادي الراقصين إلى داخلها يقبضون على حبيبات الدر الصفراء والبيضاء ويذرفونها فتتساقط كشلال صغير من سلاسل الذهب، قصير مساره غير منتظم الحركة بحسب رغبة الراقصين وهواهم، ومن تمثال قابع إلى آخر.
ساحة الرقص هذه تمتد من زاوية دكان الحاج موسى الرضي صعوداً إلى قرب دكان وصالون أبو علي الحلاق، ثم تنحرف يميناً حتى زاوية دكان الحاج ﷴ حسن صباح، وبعدها تأخذ طريقها نزولاً حتى دكان أمين قميحة، بعد مرورها بمدخل الخان سابقاً ودكان الحاج سعيد الزيون فران المختار، يحيط بهذه الساحة دكاكين وكالات التأمين والإدخار الطويل المدى، من قمح وعدس وحبوب ومشتقات البرغل والسميد والطحين أبيض وأسمر وذرة.
جنوبي هذه الساحة، ومن أمام دكان الحاج سعيد العبدالله حتى مركز الصيانة والتصليح العجلاتي لحبيب طه، والكهربائي لصاحبه عبد الرضى بيطار، تقع محطة تجمع القطارات التي تؤمن تنقل الوافدين، من شريط الكرامة والصمود و قلعة شقيف أرنون شاهدةٌ على صبره وتحمله الشدائد والصعاب، محطة القطارات هذه يتنقل ركابها باتجاه الأرض التي اغتصبها أحبار تلامذة النازيين، مروراً بالنبطية الفوقا وكفرتبنيت، القليعة، مرجعيون، بلاط، وقسم من البقاع الغربي وحاصبيا، شبعا وإلى الخيام، عديسة، كفركلا، الطيبة، حتى بنت جبيل.

من الناحية اليمنى لسوق الغلة ومن أمام سينما الكابيتول، توجد وكالة السفريات والخدمات العامة، وبورصة الفحم والصنوبر والجوز، وفرع معتمدية العيش المشترك، ومركزها دكان رشيد الصباح، ومنها ُتؤَمَّنُ الخدمات إلى الجرمق والعيشية وكفرحونة وعرمتى وقيتولة وجزين، وبقربها متاجر آل حامد من حيدر ومحمود ومحل أبوسمير للصيغة ومجوهرات العروس(بعد أن يقوم أبو سمير بدفع كمبيالة التحية و السلام إلى حيدر حامد).
دور الأزياء والثياب الداخلية والخارجية، ولوازم الجهاز من أدوات تزيين ومخدّات وأواني المطبخ والأدوات المنزلية، من محلات التجار جابر وزيدانو سلوم وملي و بيطار من جميع الفروع والأصول، ياسين وحسون ومن بدر الدين وعواضة، شرف الدين والشريف، ولا يكتمل الجهاز العرائسي إلاّ بماكنة الخياطة من عند الكسرواني شرط أن تكون من ماركة سنجر، وتنتشر في الساحة أمام المحلات، العشوائيات من البسطات، حيث تتغندر بينها الوصيفات للشراء والاستعراض، ويتواجد بينهم الشباب من الجيل الصاعد، للعرض والتعرض وكثيراً للمعاينة وحسن الاختيار لشريكة المستقبل، مناداة الباعة زغاريد تُرغب من يريد الشراء وتغمز لمن كان عن الشراء بعيداً.
"النملية"- حمزة الصيداوي قد أحسن نشر خشبها، وأبو مروان قد أتقن صنع مكونات غرفة النوم، وتلميعها.
وكما هي عليه المدن الكبرى هناك ما يسمى (السنترال) - أي المحطة الرئيسية لقطارات جميع الاتجاهات، كذلك في النبطية، عابرات القارات كانت حكراً على رشيد حمزة المقدم، ودخل على الخط رشيد نصار بهمة العبد عباس جابر دون الدخول بالتفاصيل، والمركبات الخاصة(الجت) كان نصابها معقوداً لكاراج الاتحاد، تحت إشراف أبو أحمد وأبو رائف، ومن أمام وكالة (أجيب غاز) لصاحبها كامل ضاهر وولده برهان، كان مدرذَج أقلاع المركبات الخاصة إلى الكفور وإلى حبوش وعربصاليم وجرجوع وعين بوسوار وحومين الفوقا والتحتا وجباع والجوار القريب والبعيد من جزين إلى مغدوشة، والأكثر حظاً بالتنقل، كان أهالي حبوش وكفررمان فكل الطرقات توصلك إلى روما وموسكو.
دقت الساعة وحلَّ وقت الظهر، دخلت العروس هودجها، فالحفل كرنفال، ولكي يكون بمستوى "مهرجان كان السينمائي" المنصة أمام سينما الكابيتول، زُيِّنَ محيط (الكوشة) بجرار من الفخار والخزف من محلات أبو أحمد سلوم، موسيقى التكنو السابقة للعصر تصدح أصناجها مصحوبة

بمواكبة نفخ وزفير وضربات متناغمة من كير ومطارق مصدرها دكاكين النحاسين المحيطة بدارة بهيج بك الفضل.
(موسيقى التكنو قبل أنتشارها في أنحاء العالم انطلقت من النبطية "عذراً للمبالغة").
قبل الإنصراف يمر الحضور لتناول "حلوانة" العرس من حلوى وشراب، ديماسية الصنع، بدرالدينية التصنيع، شقراء اللون جابرية المنشأ بمشاركة حسن حمزة ،
كيف لا أحبك أيتها العروس المتجددة كل صباح يوم الإثنين من كل أسبوع.
فأنت قريبة مني رغم البعد، وليس عن عبثٍ تسكُّعي في أزقّة باريس.
لا تغاري يا حبيبتي "ما الحبُ إلآ للحبيب الأولِ"، لقد وجدتُ في باريس أوجه شبَهْ لك وما ذلك إلاً نسبي...........

الصبر و الصبير

كان يا ما كان، في يوم من أيام نيسان، زلة من الزلات، نقشها البال بلا نسيان، في هذه البلاد، كثيرة الخلق والعباد من صالحين وأوغاد، الخارج خرج، والداخل قد عاد، تجد الغني العتيد ومن الفقراء العديد، فيهم الشقي ومنهم السعيد والناس بالرجفة تزيد، فالبرد قارس وشديد، استيقظت باكراً في الصباح، وديك الحي ما صاح، تغمرني نشوة وارتياح بعد حيّ على الصلاة حيّ على الفلاح، دخل إلى القلب انشراح، أقفلت خلفي باب الدار وتوجهت لمحطة القطار، فوجب عليذَ الانتظار لأني وصلت إليها باكراً، وللمواعيد لست فاكراً، تراكمت دقائق فوق دقائق، ومواعيد القطار حقائق، وما مكثت إلاً ساعة تملّكت بنفسي الشجاعة، وصعدت بلطف ووداعة في حافلة، من هَبَّ ودَبْ حاملة، فيها كثير من الركاب، من صاحب كشكول و جراب، ساعٍ إلى رزق أو أسباب ، من عمال وطلاب، ومن سُكَّعٍ وأغراب، و من محطة إلى محطة، راحت العين بغطة، ولساني يقول حِطّةٌ حِطْةٌ، وعندي هذا عادة، يملأ قلبي سعادة، أردده إعادة وأتبعُه زيادة، بأدعيةِ التوكل والتبتل، كلما سعيت للتنقل، أتوجه بالتوسل، وكلما عبرتُ باب أم ركبتُ عباب، أو كنت في غياب، فهي من أدعية السفر وتجلبُ الخيرَ وتُبعدُ الطفر، وحرز لمن نال وظفر، فهي عندي بلا نهاية، أوليها التمهل والعناية، فصارت كما الوسواس الخناس، يوسوس في صدور الناس، و ينخر بها كالسوس في الأضراس، و دفعاً عني شر ما خلق، أستعين برب الفلق وبالله الواحد الصمد، للتعوّذ من الحاسد والحسد، مسترسلاً بالإعادة والترداد، وفي المحنة بأزدياد، ونفسي إلى الشر تنقاد، من ضد إلى أضداد، ومن مُنكرٍ إلى فساد، بإصرارٍ وعناد، وعن حسن السيرة أنحاز، فالنفس ليست بصفاء، عندها الدعاء والرجاء، هدفاً لنيل الطلب، والله غالب من غلب، فتجدها من منقلب إلى منقلب، حتى صارت في حال مماثل، كما كان كفيف المعرة قائل:

إلى الله أشكو أنيني كل ليلة إذا نمت لم أعدم طوارق أو هامي

فإن كان شراً فهو لا بد واقعٌ وإن كان خيراً فهو أضغاث أحلام

حدث عطل في التكييف، وبرذعتي سمكها خفيف، فالتفت أطرافي تلفيفاً بتلفيف، حتى صرت ككتلة حجمها نحيف، وبعدها وصل القطار للريف،

نزلت مسرعاً بتشهد وتشهيد ورحت لهذا أردد وأعيد، فما قصدي لهذه البلاد، إلاّ رغبة بالمزاد، والحصول على درة، نعارة كانت أم جرة، مر عليها الزمن، وتآكلها العفن، تروي بصمت للتاريخ، أطرافها مليئة بالتفسيخ، لها ماض وتأريخ، يحوم حولها الرواد وسعرها إلى ازدياد والمنادي يُرغِبُ بها بترداد، فيخطفها المُلِحُّ بعناد، وصوت السمسار يدوي: "على أونا على دوّي".

مر منتصف النهار، وأنا ممَّن حولي أغار، فهم في الخدمة شطَّار يحسنون الاختيار، ولفنون المزاد هم أحبار، يتقنون الأخذ والرد، و يتكلمون بتحريك اليد، فيصمت أحدهم ويَحيد، وبعدها لا يرفع المزيد، وينال الحاجة من لها يريد، حتى نفدت البضاعة، وذهب الوقت إضاعة وأنا أعلل النفس بالتأني، وأوهمها التمني، وبذلك خاب ظني، فلم أستطع إظهار فني، وما أنا إلاّ بذلك مغرور، وما عندي بالساحة زرزور، فرجعت مدحوراً مقهور، في رحلة الرجوع، دب العطش والجوع، وداهمني التعب، فرحت ألوم نفسي وبعتب، فأجابتني نصيب، فالرمح لا تصيب، إلاّ إذا تعلمت الرماية واشتدَ ساعدك كفاية، فسيكون لك حسنَ نهاية، استمر ثم استمر، فعليك المهارة ستنهمر، وتصبح من الشطَّار ، ولكن بعد قليل من الانتظار، فقلت لها هيهات هيهات، قالت لا تبْك على ما فات، فلا تناله إلاّ بالصبر، عدتُ إلى الترتيل، ربي اجعلني بقسمك راضيا وعلى مصابي صابرا .

تحركت في النفس النواة الباقية، وسعت مضغة الخير فيها نحو منبع الهداية لتنهل منه تعاليم الصبر ودروسه فأصابها الخجل واعتلاها الحياء، عندما وجدت الصبر وما هو عليه وكيف وعلى ماذا يكون، فليس الصبر كالثوب، تلبسه وتخلعه بحسب الأهواء، هو الصبر في الشدة والرخاء، في الشدة هو الرجاء وفي الراحة هو الشكر والدعاء، وللصبر رائد بل روّاد، ومنهم من ألحَّ وأجاد وراح بنعمة السماء ينقاد، حامداً شاكراً بلا عناد، هو الصبر مجبولٌ بالنداء، إني مغلوب رددها نحو العلاء، فأتاه النصر من السماء، فحملته ذات الألواح والدُسُرْ، إن بعد العسر ُيسر، وانهمر الماء كالسيل وقضي الأمر بعد أن طفح الكيل.

الصبر، صبر من سمع النداء، فاقتاد ابنه للفداء، فجزاءُ صبره كان هبة وضحية، ومن السماء وافته هدية، فشكر ربه طالباً حسن المآب، فجعله الله الخليل الأوّاب .

الصبر، صبر سبط يعقوب، ألقاه أخوته في قعر جبّوب، فصَبر وهو في الأسر وابتعد عن الفحشاء في القصر، فهمذَت به تُرَاودُه، وقدَّت قميصه تعانده، و بظلم وكيْد، وضِعَ في رجليه القيد، فشكر حامداً، بعدها

أُخرِجَ إلى النور، واستلم زِمام الأمور، فحقق الله حلمه وهو صغير، وخرَّ أمامه أحد عشر من الكون الكبير.

الصبر صبر من ضُرب جسده بمرض، فبات شاكراً وما اعترض، فشفاه الله وما انقرض.

الصبر، صبر من ابتلعه الحوت، فراح صابراً داعياً كي لا يموت، فجزاه الله بما صبر ونجّاه من الظلمة وما كفر.

الصبر، صبر الكليم، داعياً الرب العظيم، فآذاه القوم وقالوا ذميم، فقرَّبه إليه الله القدير، فنادى إني لما أنزلت إليَّ من خير فقير.

الصبر، صبر بنت عمران، حملت بلا دنس، من روح، لا بشر ولا أنس، فرموها بالبغي والنجس، أسكتهم الطفل يسوع، وانهمرت منهم الدموع، وللقربان أشعلوا الشموع.

الصبر، صبر محمد الأمين، خاتم الرسل والنبيين، لما تحمَّله من الجهلة الكافرين وفتنة المشركين، وما تأذى به من المنافقين، ولجهاده في سبيل الدين، منارُ الهدى والصابرين، الحامدين الشاكرين.

الصبر، صبر ابن مسعود، في صدره تكسَّر العود، وهو يتلو كلام المعبود .

الصبر، صبر ابن ياسر عمار وما فعل به وبأهله الكفار.

الصبر صبر أبي ذر إلى ما آل اليه المقر.

الصبر صبر بلال لما تحمذَل من ظلم وطغيان، وبعدها كلفه الرسول بالإذعان....... فشتان ما بين الصبر والصبير!.

بلد الشيخين وفتى العلم

تربطني صداقة بالكاتب و الأديب والمؤلف المسرحي انطوان غندور. توطدت هذه الصداقة بيننا في نهاية الستينيات من القرن الماضي، كنت أعمل في صندوق المجون، قبل فترة عملي في أبو ظبي وبعدها.
كان الأستاذ انطوان يتردد على مبنى تلة الخياط بصورة شبه يومية، وبحكم عملي كنت على اتصال دائم به، وكان يتواجد في القسم الذي كنت مشرفاً عليه، لمراقبة أعماله في مرحلة التنفيذ والمونتاج، فاعتاد الجلوس على مكتبي(نادراً ما كنت أستعمله لأنني كنت مجبراً على الحركة والتنقل)، ويوماً بعد يوم اتسعت دائرة المعرفة فيما بيننا، ورحنا نلتقي خارج مبنى التلفزيون، و كان يطلعني على مشاريع أعماله الجديدة، وأرافقه في تنقلاته وخصوصاً خلال تدريبات مسرحيات "أخوت شانيْه" في مسرح الفينيسيا، ومراراً عند صديقنا المشترك الفنان محمد قدورة، أو في زيارة إلى دارة كفررمان بدعوة من محمد بك الزين، وبعدها يكون الغذاء في سوق النبطية عند علي البدوي، أو عند أبو علي أبو الخدود.
الأستاذ غندور ظريف طريف، أحب النبطية وليس للتهكم أو التشنيع بل كان محط كلامه لي كان " متاع النبطية".
انطوان غندور كان بصدد إعداد مسلسل إسمه (أديب وقصة) يجتمع مع الأديب كاتب القصة ويجري معه حواراً، وبعدها تعرض القصة على شكل حلقة تلفزيونية. ولقاؤه بالأديب كان عادة في جو تكريم وحفلة غداء أو زيارة إلى بلد ما، وبحسب ما تسمح به الظروف كانت الدعوة لي موجهة لمرافقته، وكانت الرحلة إلى سوريا للقاء الأستاذ الأديب الطبيب عبد السلام العجيلي فرافقته فيها، وعند وصولنا إلى دارة الدكتور عبد السلام العجيلي قام انطوان غندور بالتعريف عن مرافقيه فقدم الأستاذ الفنان محمد قدوره بأنه رسام ونحات وصياد سمك من عين المريسة، وقدمني فقال: متاع النبطية، قلنا حرام خليه يشوف حضارة بلاد الشام فجبناه معنا.
تبسم الدكتور العجيلي وقال: من النبطية بلد الشيخين ولا يعرف حضارة بلاد الشام!.
وتغير الحديث وانتقلنا إلى العمل والغداء، وأنا أفكر بالنبطية بلد الشيخين ولم أكن قد سمعت بهذا التوصيف من قبل.
وعند الإنصراف وخلال فترة التوديع طلبت (مُدّعيا بأنني أعرف ذلك) من الدكتور العجيلي أن يشرح للأستاذ انطوان من هما الشيخان، فقال

انطوان مقاطعا أبو بكر وعمر، عندها أجاب الدكتور العجيلي: لا لا بل الشيخ سليمان ضاهر والشيخ أحمد رضا، عضوا المجلس اللغوي العربي.
وخلال رحلة العودة، خطرت ببال انطوان غندور فكرة، بأن يتعرَّف على أعمال الشيخين و مسار تاريخهما، وكتابة سيناريو أو قصة من ضمن أعمالهما الأدبية، تطوعت بمهمة جمع المعلومات والمصادر والاستفسار، كان ذلك في منتصف عام 1975.
ذهبت إلى النبطية قصدت الدكتور طريف رضا وهو حفيد الشيخ أحمد، فأفادني بأن مؤلفات الشيخ أحمد ومراجعه الأدبية موجودة في مكتبة مدرسة الزهراء وكذلك الشيخ سليمان.. ذهبت إلى السيد معين جابر، لأن مكتبة مدرسة الزهراء مقفلة و كتبها ليست في متناول اليد، شرحت الموضوع للسيد معين وكان نائباً لرئيس البلدية، وكذلك نائباً لرئيس جمعية المقاصد الخيرية، وتمَّ الرأي على أن يأتي الأستاذ غندور إلى النبطية ويَطَّلعَ على ما تركه الشيخين.. وتراكمت حوادث وأحداث وأفرغت النبطية من سكانها وتهجروا وبعدها بمدة قصيرة تهجرت أنا من لبنان، وتغيرت الأمور ونُسي الأمر.
ولكن الذكريات والحنين، أعادت الموضوع، فراح يطفو على صفحة الذاكرة، وخلال زياراتي الصباحية ومن خلف نافذتي، كنت أتنقل في شوارع النبطية، أزور بيوتها متذكراً حوادثها وأحداثها، و كم من مرة توقفت أمام محطة زهير المقدم أستعيد خلالها ما يكمن في باطن ذاكرتي، وما كان عليه هذا المكان في الخمسينات من القرن الماضي، أشباح هيكل منزل قرميدي السطح، الى جانبه بستان من الليمون، شيدت عليه مستشفى الدكتور علي كالوت في مطلع الستينيات؛ للدار مدخل (بوابة) له قنطرة تطل عليك منه بركة ماء صغيرة، فيها نافورة توقفت عن العمل منذ سنين، تقابلك درجات حجرية على جوانبها شمعات صخرية، إلى جانب مطلع الدرج غرف منخفضة كان يسكن فيها الحاج أمين والد صبحي بدر الدين- الخطاط والمشرف على سينما ريفولي، ويعيش معهم أخوه وأولاده، قبل هدم البناء وانتقالهم إلى السكن في دار قريبهم السيد معين جابر قرب بيت الحاجة أم جهاد.
في المرحلة التي تحتفظ بها ذاكرتي، كانت الدار مسكونة من قبل عائلة المرحوم الدكتور محمد علي رضا والد الدكتور طريف والمهندس رئيف.. دار واسعة، صالونها مُطعَّم بالنقوش، أبوابها لها مناظر وقناطر عالية، مبنية منذ القدم بحجر صخري بحسب تصاميم بناء كورسيكي، إيطالي النفحة شرقي المعالم، وكان في النبطية عدد قليل مشابه لها، ومنها بيت

الشيخ سليمان ضاهر وبيت الحاج حسن نصار في المحافر وبيوت آل شاهين في حي الميدان قرب الكنيسة وبيت الحاج كامل وهبي وكذلك دارة محمد بك الفضل، تخونني الذاكرة أحياناً فيصعب سرد تفاصيلها، يُخيَّلُ إليَّ بأن هذه البيوت، قد تم تشيدها في حقبة زمنية واحدة على نمط واحد باختلافات بسيطة، ولربما كان المهندس هو نفسه، ولكني أذكر المرحلة التي هدمت بها الدار، ليقام مكانها بناء تجاري حيث هي محطة السيد زهير المقدم حالياً.

كذلك دارة الشيخ سليمان كانت شبه مهدومة في الثمانينيات ولربما قد تم هدمها بالكامل، كم من الحسرات تملكتني وأنا أتذكر هذه المعالم الخالدة ومنها (فرساي النبطية) منزل السيدة أم رمزي قرب عين الحورانية، وكيف امتدت يد الأقدار لصروح تاريخية كهذه، كان الأجدر لها أن تكون مزارات ومتاحف، تجمع بين أركانها ذكريات ومخلفات رجال عظام، أعمالهم سَطَّرت حروف تاريخ الماضي وأمل المستقبل... ليت بني أمي يعرفون ما كانت تحمله هذه الصروح من حضارة ودليل رقي، وما أبلغ ما قال جبران: **ويل لأمة تهدم معالم حضارة ماضيها!**.

أحداث مؤلمة وظروف قاهرة كان من جرائها ما كان وما استجد، ولكن العبرة يجب أن يستفاد منها، و" كي لا تضيع النبطية "، هنالك مسؤولية ملقاة على عاتق أبنائها، وفيهم- والحمدلله -، من نهل من العلم درجات عالية وأصبح على قدر وفير من المعرفة والمقدرة، فالعودة إلى الأصول هي خطوة نحو الأمام، فمن المستحيل إعادة ما تهدم، فلا أسف كبير على الأمور المادية، بل هناك أعمال وأفعال كان لها أثرها في أصول هذه البلدة وجذورها.

دارة الشيخ سليمان ضاهر كانت في حي البياض في طلعة عين الحورانية وسط بستان أقطُتع أحد أطرافه، ليشاد عليها منزل الشاعر الأديب أحمد سليمان ضاهر.

بعد الاستفسار، تهدمت دارة الشيخ سليمان، ونقلت بعض من مجلدات راعيها الى مدرسة الزهراء، واحتفظ الأستاذ عبد الله سليمان ظاهر بالقليل، ومنه كانت مراجع كتابه المدرسي الشهير "تاريخ لبنان".

دارة الشيخ أحمد رضا مرت عليها الفورة النفطية، وتم هدمها ليقام مكانها محطة لتزويد الطاقة من كاز ومازوت وبنزين (كازية باللهجة السورية)؟ أحمد الله بأن الدكتور عبد السلام العجيلي لم يأخذ علماً بذلك!

الشيخ أحمد رضا كان خال المخترع و فتى العلم الكهربائي حسن كامل الصباح، الذي لاقته المنية وهو في قمة عطائه، وبعدها تم استرداد رفات

جثمانه، ليرقد بين ربوع أهله وعشيرته، أرتاحت الرفات في غرفة دائرية تحت قبة وسط حقل، محاصر بأبنية سكنية وتجارية وحوانيت.
للضريح مدخل ضيق يطل على شارع سمّي بأسمه (وذلك بقرار وزاري في عهد رياض الصلح وبعدها ابتعدت الدولة والبلدية، بعد وضع نصب حجري في أول الشارع الذي سمي باسمه عند مدخل البلدة).
مرقد العلم والنور ما قام بزيارته وفد رسمي في ذكرى وفاته، ولا حتى زيارة من طلاب المدارس ليكون حافزاً لهم وقدوة يقتدون بها، سوى السيدتين الفاضلتين الحاجة زهرة والحاجة زينب الصباح؛ و بعد وفاتهن، أهمل المزار، وندرت الزيارات.
لاعتب على أحد، بل حسرة في القلب كلما تذكرت بأنَّ الرفات قد استُرِدّت من نيويورك، فيا ليتهم تركوه راقداً قرب جبران خليل جبران في أجمل وأكبر حديقة عامة في العالم، وفي ذكراه، لكان عمدة نيويورك وكبار أعيان بلديتها يقومون بتكريمه في حفل سنوي، يوم ذكرى وفاته، تحت وقع أنغام الفرقة الموسيقية العالمية لبرودواي....
و "ويل لأمة لاتحسن تكريم عظمائها"
أرجو أن لا يؤخذ كلامي إلى أبعادٍ لا أقصد متاخمتها.. في صيف عام 1962، قام الدكتور مكرم حجعلي، وبمساعدة من الدكتور جهاد جابر، وبمساهمة متواضعة و مشاركة مني، والحضور المميز للعزيز منذر قديح، والصديق المرهف ماهر حجعلي، جمعنا الموجودات التي كانت في منزل العائلة خلف محل فؤاد العبدالله وصالون قاسم الشوكيني للحلاقة، (و تم ذلك تحت إشراف الحاجة زينب شقيقة العلامة العاملي)، ومن بينها السرير المعدني من النحاس الأصفر، وكان له فوق الفراش أعمدة في الزوايا، ومنها يتدلى ما كان يسمى (ناموسية، حاجز واقٍ من البرغش) تغطي الجوانب والسقف، ، وفي عداد المحتويات، كان مجموعة من الرسائل المكتوبة بخط يد حسن كامل الصباح، وكانت رسائل موجهة إلى والده الشيخ علي، وإلى خاله الشيخ أحمد رضا، وإلى أصدقاء، وكان بين تلك الأغراض بيضة نعامة كبيرة الحجم، والعباءة والحطة والعقال، وخزانة من طابقين، ويفصل الطابق العلوي عن الطابق السفلي مرآة وعلى سطح القسم السفلي كانت بلاطة من الرخام، قمنا بنقل ما وجدناه على ظهر حمار تم استئجاره، من الحاج قديح.
المعرض كان في الطابق الأول من مبنى السيد أنيس فهد ، وكان المبنى حديثاً وغير مستعمل من قبل ، ويقع في النزلة من قرب محل معين جابر،

و كان بمجاورة منزل الحاج حمود فران، وبعدها أصبح مكان المعرض مكاناً لمكتبة البلدية تحت إشراف السيد زاهد بدرالدين.
خطيب يوم الافتتاح كان المربي عبد اللطيف فياض، لأسباب عديدة ومنها أن زوجته الأولى كانت شقيقة حسن كامل الصباح (أم الدكتور هاني فياض).
وبين ذهاب وعودة إلى بيت الحاجة زينب، وخلال التحدث معها، سردت ما يلي:
كانت والدة حسن كامل الصباح، جالسة على المصطبة عند مدخل البيت، وعلى ركبتيها كان يستريح طفليها حسن كامل الصباح وأخوه حسين، راحت الوالدة تتحسس مرة رأس حسن ومرة رأس حسين، فسألها حسن : مين رأسه أكبر أنا أم حسين، نظرت الأم مندهشة، وأعادت التحسس مدعية التقدير وأجابت: رأس حسين أكبر، أنتفض حسن كامل الصباح وأشار لها بيده إلى الجبل المقابل وهو تلة الرويس (لم يكن وقتها ما يحجب الرؤيا والمشاهدة) : شايفة جبل الرويس أنا رأسي أكبر من جبل الرويس!.
و سمعت يومها بحادثة (يا غراب البين يا غراب البين ....).

يوسف بك الزين

الطبيعة الجغرافية جعلت من النبطية بقعة أرض منخفضة تحيط بها تلال وقمم من الجهات الأربع: تلة المحفرة في حي البياض امتداداً حتى زبدين المرتفعة، وتلة القمر بين شوكين وميفدون مروراً بجبل قبيس وصولاً إلى قمة الرويس وامتداداً إلى تلة الصالحية ومزار محمد شميلة، وصولاً إلى تلة علي الطاهر والتفافاً إلى خلة الهوا وتلة كفررمان حيث مبنى الريجي وباتجاه كفر جوز، لتقفل الحلقة في تلة عش الغراب وكرم الدحروج والعودة إلى المحفرة في حي البياض.

لا نهر يعبر ولا ينابيع تنساب بل عيون من المياه الخجولة، و مخزون الآبار المتجمع من هطول الأمطار، العروس النائمة في شح وعطش، الأنهار المحيطة بها أخذت طريقاً لايعكِّر صفو غفوتها: نهر الزهراني تخاذل وابتعد، لعجزه عن تسلق تلال الميذنة وكفررمان، أما نهر الليطاني فوقفت بوجهه تلال الجرمق وتلة طُهْرَّة والهضاب المقابلة، قرب كرم التين العسلاني ومكان المشحرة " لتصنيع الفحم".

العروس تتيمم وتستعين" بِحِقٍ" للوضوء من قطرات عين الحورانية وعين قبيس و"غَرْفَـةٍ" من بئرين في وادي القنديل، وأنعامها ترتوي من تجمع مياه الأمطار في بُركٍ مياهها آسنةٍ في وقت الشدة و فصل الصيف (والصبايا تتغندر عا درب العين).

ارتفعت قامة يوسف بك الزين وأبت الضيم، واستعانت بقانون الجاذبية وتدفق المياه نحو المنحدر مروراً بمرتفعاتٍ منخفضة عن مستوى ارتفاع المصدر، بحسب قانون الأوعية المتصلة، فتكاملت المعطيات الطبيعية مع طموحات العزم والشهامة والنخوة المجبولة بالوعي والكرم، وأصبح الحلم حقيقة، فانسابت مياه نبع الطاسة بغزارة من حنفياتٍ داخل بيوت كفررمان والنبطية، وما أصدق قول ابن كفررمان المهاجر في بلاد المكسيك (أسعد خليل سلامة) حين كتب لأخيه بتاريخ 24 أذار من عام 1925م حيث قال: إن سعادة يوسف بك الزين قد أحيا الأرض، بقدرة الله، بعد موتها وذلك بالماء التي أتى بها من مواضعٍ وَعِـرةٍ، ونحن لم نحتج إلى دليل بأن سعادة البيك ممن أنتدبتهم القوة للعمل على رُقي البشرية".

يوسف بيك الزين كان رجلاً شجاعاً مقداماً و الوعي كان لديه سابقاً لعصره.

إسم على مسمّى

ما يلفت النظر في النبطية هو الكنية التي التي كانت تطلق على أسماء المدارس:

مدرسة الزهراء ومدرسة الراهبات ومدرسة الأمركان و المدرسة العلمية، وكانت كلها من المدارس الخاصة، وكانت تُعرًفُ بأسماء الجمعيات المشرفة عليها والتابعة لها.

أما المدارس الرسمية التابعة للدولة، كانت تُنعتُ باسم المدير المسؤول، مدرسة أحمد جابر، مدرسة سميح شاهين، مدرسة فريحة حجعلي، مدرسة ليلى نصار ....

والسبب في ذلك هو أن المدارس والتعليم كالزراعة نوعان: على بعل وعلى سقي**!**.

المدارس الخاصة كانت على سقي، لأنّ المتابعة لها كانت محصورة ضمن دائرة صغيرة مهما كبرت لن تصبح بكبر مهام وزارة التربية، والمدارس الرسمية كانت على بعل.

المدارس الخاصة كان الإشراف عليها قريباً من تمويلها (أقساط وغيره). والمدارس الرسمية لا سقاية مباشرة لها إلاّ ما أنزله الله من خير ميزانية الدولـة، والرقابة عليها كانت بالمراسلة دائماً وأبداً إلاّ في حالات نـادرة يستطـلع فيهـا على الأمور مُفتشٌ من قبل الوزارة مكلَّف بالإشراف على مئات المدارس في جميـع أنحاء الجنوب، تلبية الإحتياجات المادية وما يتطلبه حسن سير العمل لاحول ولا قوة للمفتش بها.

المدارس الرسمية كانت عبارة عن بناء ورواتب معلمين وهذا ما كانت تؤمنه الدولة مع قليل من الطبشور والعدة والعتاد الموسمي بحسب ما تقتضيه الموازنة العامة للدولة، حتى أعمال الصيانة للمباني كانت تحت شعار: زيد يرث وزيد لا يرث، مسؤولية نجاح نمو أشجارها المغروسة (الطلاب) متوقفة على ما كان يتمتع به السادة المعلمون من كفاءة وضمير مهني، وعلى همة السيدالمدير.

خدمة الدولة هي خدمة السخرة من عدة أوجه

نشكر الله على أن مدارس الدولة في النبطية كانت في أيادٍ مخلصة استحقت التقديروالعرفان بالجميل، فجاء النعت بالتسمية.

الشيءُ بالشيءِ يُذكَر:

نظراً لصعوبة التجوال حينها، كانت وزارة التربية، و للاستفسار عن حالة المدارس الرسمية ترسل في بداية العام الدراسي تعميماً مطبوعاً إلى جميع المدراء، وعلى كل منهم أن يجيب على استفسارات الوزارة وطلب ما تحتاجه مدرسته من عدة وعتاد وصيانة، تمر السنوات والتقرير المطلوب هو بعينه، ولا حياة لمن تنادي في استجابة المتطلبات.
السيد نور الدين بدرالدين، ضاق ذرعاً بذلك فأجاب شعراً على التعميم:

ملاحظـاتٌ سئمنا من كتابتهـا ومل ترديدُهــا في كـل تقريـــرِ
ما قيمة الجهـــد في تنظيم مدرسـة إن لم نكافأ بتعـزيز و تقديــرِ
وما يفيـد كــلام في نواقصهــا إن لم تــزود بهــا من دون تأخيـرِ
وما تفيـــد مطاليب بحاجتِهـا إن لــم يبـادر لترميـم و تعميــــرِ
وكيـف نرقب تأثيـثاً ومن عــوزٍ نضيقُ ذرعــاً بـصندوق الطباشيـرِ
أما الطبيبُ فـلا تُــرجى زيارتُــه إذ لا يجـيءُ إلينـا غيــر مأجـورِ
ما من جـديـد فيغـرينا بجدتــهِ ويـزدهيـنـا لإثبــاتٍ وتسطـيـــرِ
فنسخةٌ من تقاريــري التي سَلــفت تكفي مثـالاً ليوم النفـخ في الصـورِ

التعليم والزراعة متساويان في الجهد والمجهود، يعود نجاح الغرسة ونموها إلى قدرة الاهتمام بها في المراحل الأولى، بدءاً بيوم غرسها، ثم ترافقها العناية والرعاية فتنمو وتكبر، وبعدها تترك الأمور لولي الأمر والتدبير.
جرت محاولات عدة لتحريش جبل الرويس في النبطية لم تأتِ حصيلتها بما يجب
لأسباب كثيرة من مرحلة الزراعة والغرس والمتابعة فيما بعد.
كُلِفَّ الشيخ جعفر الزين بتحريش تلة كفرجوز المواجهة لمدخل النبطية من ناحية كفررمان، وكان معه فريق عمل قليل العدد والعدة ومخصصات خجولة، ومن الصحيح، لربما كانوا يتقاضون بدل أتعاب، مهما كان قدره، فالأكيد أنه كان متواضعاً بل وحتماً كان كذلك.
نجاح نمو حرش الشيخ جعفر الزين كان سببه المتابعة والحرص الشديد ممن استمر بعمل السخرة جالساً على شرفة منزله يراقب والمنظار بيده، يتفقد قامات أحبته تنمو وتشمخ عالية بعزة وافتخار من أشرف عليها، ومن ارتفع صوته صارخاً ليُبعد راعياً تجاوزت أغنامه حدود الروضة والحرم، تفرح أشجار الحرش كلما قام راعيها وحاميها بزياراته الدورية المستديمة،

وتتمايل أغصانها تحية له معبَّرة عن شكرها له بالنيابة عن أهالي الأرض التي زرعت فيها.
كان الملك الحسين بن طلال يتردد بصورة دائمة وكلما سمحت ظروفه، على مطعم صغير مشهور بطبخ وتحضير أكلة المنسف (مطعم أبو أحمد في جبل عمّان).
انقطع الملك لفترة (لاتزيد عن السنة لأسباب خاصة) لم يتلذَّذ خلالها تذوق المنسف عند أبو أحمد، وفي مساء أحد الأيام ركب الملك سيارته قاصداً جبل عمّان للتفقد والمرور بمطعم أبو أحمد، فوجد الطريق المؤدّية إليه قد تغيرت وجهة السير عليها وتغيرت معالم الشارع بأكمله، أشجار على الجانبين وإشارات مرور ومصابيح إنارة، وعلى مدخل الشارع لوحة كتب عليها بالخط العريض:(شارع معد بن بطي ابن معاد)
أعجب الملك حسين بما أصبحت عليه حالة الشارع ، وراحت أجهزة مخابرات الدولة وبإيعاز منه، التحرّي عن اسم المحتفى به! فترة قصيرة بان السبب وبطل العجب: معد بن بطي هو خال أمين العاصمة، وكان محترفاً ماهراً يعزف الربابة!!.
إلى السيد أمين العاصمة (البلدية) في النبطية، أتوجه بالشكر، و إلى جميع الأعضاء في المجلس البلدي متمنياً أن تصير أشجار حرش الشيخ جعفر الزين كما صارت عليه الربابة في عمـان.
(حادثة الربابة رُويتْ لي من الصديق العقيد الطيار جهاد أرشيد قائد سرب طائرات الهوكرهنتر التابع لسلاح الجو في أبو ظبي، وهو شقيق الأميرة فريال، الزوجة الأولى للأمير محمد بن طلال شقيق الملك حسين).

الواجـــب والعقيـــدة

المصابُ أليمٌ، والوقعُ جللٌ، الفقيدةُ الغاليةُ رمزٌ وشعار، الرمز كان التفوُّق العلمي والمقدرة ، والشِعارُ كان العقيدة والإنتماء.
نعم... نحن في النبطية أصحاب مبدأ وعقيدة، مناسبة كهذه لن تمر بلا اكتراث وتقدير، بل يجب أن تأخذ حقها.
شهيدة العلم والتقدم التكنولوجي جادت بروحها، ونذرت نفسها قرباناً على مذبح المطرقة والمنجل.
وليكن معلوماً لدى الجميع بأن شرعة حقوق الحيوان، انطلقت مسيرتها من أمام منزل بهيج بك الفضل في النبطية في الرابع من شهر تشرين الثاني من عام 1957، ولِتَخْرس الألسنُ المتنكرة لحبنا للحيوان والكلاب العالمة الرائدة في غزو الفضاء، ومنعاً لكل التباس لما كان يقومُ به إسماعيل الغَرَبِي، و بتكليف من البلدية في إستئصالِ الكلابِ المسعورةِ المتقاعسةِ عن النضالِ والكفاح .
بعد أطلاقِ الصاروخ السوفياتي سبوتنيك رقم (1) لغزو الفضاء ونجاح هذه العملية الأولى من نوعها في العالم، وبسرية تامة، تم أطلاق الصاروخ سبوتنيك رقم (2) في الثالث من تشرين الثاني من عام 1957 وعلى متنه أول كائن حي الكلبة لايكا.
(لايكا باللغة الروسية تعني "النبّاحة" وهي كنية لكلاب صغيرة الحجمِ ذكية الطباع) أربعٌ من الساعات مرت على انطلاق الصاروخِ المأهول، حدث خلالها عطل في جهاز التحكم الحراري داخل المقصورة، على أثره لاقت حتفها رائدة الفضاء الأولى وشهيدة العلم: لايـــكا.
تمَّ شحذ الهمم واستعدَّت الوفود من كفررمان وكفركلا ومن الأمصار القطريـة الأخرى، تجمَّع الحشد ما بين دكان محمود عبدو سليم و دكان قاسم الصباغ وانطلق الموكب المهيب يتقدمه محمل محمول على الأكتاف، موشح بالسواد، عليه صورة الفقيدة الغالية.
جابت المسيرة الضخمة الشوارع الرئيسية في البلدة ، والمشيعون بصفوفهم
المرصوصة المنتظمة، يهتفون (بحسرةٍ و نِواحٍ و حُزنٍ شديد):

يا لايكـا يا مسكينـة   إنت بالسمـا رهينـة
عا فراقك يا حزينـة   سكرت بواب المدينـة

لسنا من دعاة احتكار حرية التعبيرعن الرأي، ولا نحتاج لإثبات ذلك، لأن النبطية كانت معقل مزيج من الديموقراطية والتنوع الفكري والعقائدي، والثغور الأخرى كانت المراكز الأستراتيجية للوكالات الحصرية المتنوعة وبعض الخلايا المستترة التابعة لثغور أخرى، كفررمان كانت(كفر موسكو) ملحقاتها كانت في عربصاليم وكفركلا وعديسة.
الدوير وحبوش كانتا (كفر الناصرية) وتوابعها عبّا وجبشيت وكفر تبنيت والزواطر وأرنون ويحمر الشقيف. النبطية الفوقا (كفر تحيا سوريا) ولها فروع معتمدة في أنصار والدوير والعيشية والجرمق والقليعة ومرجعيون وجرجوع؛ أما جباع فكانت سوق عكاظ، زبدين والشرقية (كفر الأمة الواحدة ذات الرسالة الخالدة).
سيارات "الفولكس فاكن" البيضاء، عيون الدولة وآذانها تتنقل من ثغر إلى أخر بخفة وبهمة أبو سعيد وحسن .
في النبطية كان دكان أبو حيدر عبدو جابر مركز الأعلام الناصري والبث المباشر لخطب عبد الناصر ونشرة "صوت العرب" وتعليقات أحمد سعيد ومحمد حسنين هيكل، وغرفة المطالعة التابعة له كانت مكتبة هاني الزين، ومكتبة محيي الدين محيي الدين كانت المركز الثقافي لحزب البعث على أنواعه.
معتمدية الاتحاد السوفياتي كانت موزعة بين دكان قاسم الصباغ وحانوت موسى الرضي.
محلات السيد محمود بيطار كانت مفوضية عميد الإذاعة والتوجيه للحزب السوري القومي، حتى المقاهي كان روادها من أصحاب العقيدة الواحدة نظراً لضرورة سرعة التواصل.
ومن اللالفت للنظر كان وجود منتسب واحد فقط لاغير للحزب التقدمي الاشتراكي التابع لمختارة كمال جنبلاط (الأستاذ المحامي علي محمد حسن صباح).
عقائد مختلفة ومتنوعة، وفي كثير من الأحيان ينتقل المنتسبون إليها من معسكر الى آخر بحسب المزاج والنهج التصحيحي.
نادراً ما كان الاختلاف في الرأي نزاعاً بل وجهات نظر، حدثٌ عابر انبرى فيه أحمد سعيد من صوت العرب متوعداً ومهدِّداً (الملازم أحمد أحمد طقش) كان المستهدف مهنته لحام، صادف وجوده في صالون المختار حبيب جابر، وكان يرتدي جاكيت كاكية اللون عسكرية التفاصيل وبنطلون الخيالة (مشابهاً لزي الدرك اللبناني، وكانت تباع تلك الملابس في أسواق النبطية شريطة أن لا تحمل أية شارات عسكرية) وبينما كان

المزيِّن مهتماً في حلاقة ذقن الزبون أبوعلي أحمد طقش، دخل مندوب إذاعة صوت العرب المصرية لإجراء مقابلات استطلاع للرأي في النبطية بعد الانفصال السوري عن الوحدة مع مصر.
طلب المندوب الإذاعي مقابلة المختار، ولسوء حظه لم يكن المختار موجوداً في صالونه ومكتبه، التفت المندوب إلى كرسي الحلاقة فبانت له أطراف جاكيت أبو علي وسرواله، ظنَّ أنه حصل على صيد ثمين.
اقترب بمذياعه ممن اعتقده ضابطاً في الجيش و سأله عن رأيه بما حدث، أجاب أبو علي بأن الوحدة بين سوريا ومصر ولدت ميتة بسبب البعد الجغرافي، وراح بعدها بلباقة لسانه يشرح له وجهة نظره بذلك، والمندوب يسجِّل الحديث، انتهى المزين من عمله في(قش ذقن أبوعلي) خرج بعدها أبو علي، بعد دفع بدل الأتعاب والبخشيش .
كان المزين من الأخوة الفلسطينيين، سأله المندوب عن اسم الزبون وعن رتبته العسكرية، حبكت النكتة والمزحة مع المزين، فأجاب بأنه الملازم الأول طقش، وعلى ما يعتقد بأن أسمه أحمد طقش.
المندوب مصري الجنسية وتيمنناً ب (علي علي عامر) أفاد مديرية تحرير الأخبار في صوت العرب بأن محدثه كان الملازم الأول طقش أحمد طقش.
(أُعطِيَ الخَبرُ لأبو طَبَر) أحمد سعيد، فراح يهاجم الملازم طقش أحمد طقش ناعتاً إياه بالجهل، وما هو إلاَّ ركنٌ من أركان المكتب الثاني اللبناني، ومن أتباع (بيبار الجمييل) و مما قاله أحمد سعيد:
(خسئت يا ملازم طقش أحمد طقش)!.

الحدث والمستحدث

قصاصات صغيرة كنت أدوِّن عليها، ما كنت أسمعه أو ما كنت أراه من حولي (هي عادة عندي منذ فترة الطفولة) وبالأخص من محاضر جلساتي مع طيِّب الذكر الأستاذ إبراهيم حيدر فران _ هو قريبي و نسيبي.
ولكن تواصلي معه لم تكن لتسمح الظروف به، أول مرة قابلته فيها كان عمري أربع سنوات، يوم أخذت والدتي بيدي، قاصدة منزله قرب البيدر في بيت العم حيدر فران، يومها كان مديراً للمدرسة الإبتدائية، والدافع لذلك كان محاولة تسجيلي في هذه المدرسة قبل بلوغي السن القانونية (للواسطة واستغلال صلة القربى)، بعد شرح الموضوع له من قبل والدتي، توجه بحديثه إليَّ وقال:
"هي أول مرة بشوف ولد صغير قاتل حاله ليروح عالمدرسة، يا عمّو أولاد كثير بتهرب من المدرسة بهالبلد قبل ما يصير معهم حتى السرتفيكا!"
ثم توجه بحديثه نحو والدتي، وقال لها بأنه على أهبة السفر وسيهاجر إلى أبيدجان (شاطىء العاج)، بعد استقالته من وظيفته واصبحت إدراة المدرسة الإبتدائية بعهدة مديرها الجديد الأستاذ أحمد جابر.
وأنهى حديثه " إن شالله خير، بكرا الصبح بنشوف شو بدنا نعمل".
بعد أشهر قليلة، هاجر أبو تمام وترك النبطية تاركاً إياي في شعبة الصف التمهيدي على مقعد من طاولة من الخشب فيها أربعة مقاعد(بنك) في غرفة على يمين مدخل المدرسة جنب الدرج في الطابق الأرضي تحت صف السرتفيكا وكان يُعرف باسم صف محمد سرحان، محاطاً بعطف ورعاية "ابو ناهض" المربي الأستاذ حسين قديح.
ومن بعدها كنت اقوم بزيارته بصحبة أهلي عندما كان يأتي إلى النبطية من فترة إلى آخرى متفقداً الأهل، واولاده في المدرسة الداخلية التابعة لمدرسة الراهبات في حي الميدان.
مرت الأيام بصعبها وحلوها، إلى أن جمعتنا أرض ليبرفيل في الغابون تحت سماء واحدة.
وصلتُ إليها قبله بسنة، ثم صرت سكرتيراً له فيها؛ وكان رئيس الجالية اللبنانية و رئيس فرع الجامعة الثقافية اللبنانية في العالم للغابون وكنت أمين سره، وكم من مرة لم يكتمل نِصابُ الجلسات الأسبوعية، فكنت أسهر معه للتذكر والتحدث عن النبطية.

سألته عما كانت عليه النبطية ماقبل الحرب العالمية الأولى، فقال:
في عهد الحكم التركي، بما كان يسمى الأمبراطورية العثمانية، جبل عاملة كان دائماً من ملحقات ولاية من الولايات، و تحت نير الظلم والحرمان والويلات من فرمانات ما أنزل الله بها من "السلطان".
من حكم قراقوش والجزّار وحكم الغلمان والخصيان، ودائماً(تشكرات أفندم كانت جواباً لـِ أدب سيس ولن) وكلمة (برنْجي) ما كانت تقال إلاّ إذا دُفعتِ الجزية ومعها الهدايا من البغال والمال.
والنبطية، لم تكن على أفضل حال، فالقهر والذل كانا يخيّمان في كل النواحي التي يحل بها عيسى (الحاكم دار "جلاب المصائب"، وكان اسمه عيسى سيف).
الشيخ محمد مروة من مواليد عام 1879 في بلدة الزرارية، ترعرع في بلدة سلعا إحدى قرى جبل عامل، قال مخاطباً عيسى:

الا قُلْ لعيسى إن وجدتَ له أثــراً   خفِ الله واصرف عن جماعتك الفقرا
حَكمتَ فــلا عدلٌ بحكمك فيهم   وجرْتَ فلم تترك على مؤمن سِتـرا
لكـل مليــــكٍ دولـــةُ ونهايـــة   سِــواك لقد أفنيتَ في حكمك الدهـرا
فلـم لا تراعـي جانــب الله فيـهمُ   فقد صبروا حتى لقد طُعِموا الصبـرا
وكــم ذي عيـال قد حللـتَ بداره   وأعلقـت في أذيـالـه النـابَ والظُفـرا
ألـم تنظـر الأطفـال في كسـرِ بيتـه   من الجوعِ قد أمستْ وجوههُم غُبــرا

أكمل أبو تمام حديثه عن المجاعة والتجنيد الإجباري ومصادرة وسائل النقل من كل حدب وصوب، ثم أنشد: (ما قاله عبد الكريم صباح مشتاقاً لأخيه محمد سعيد)

عاصي حمى ونهر الفرا ونيل الصعيد   مـا بيطفـــو نـار قلبـي والوقيــــد
من بعد ما سافرت يا محمد سعيد

سألته ولماذا الهجرة، فأجاب:
الضيق والعوز والهرب من التجنيد الإجباري، فكل من بَلَغَ رشده تمَّ تجنيده عِنوةً وإكراهاً، منهم من استدَركَ الأمر وفرَّ هارباً خِلسةً أو معطياً رشوةً ميمماً وجهه نحو أميركا اللاتينة من بلاد المكسيك وتشيلي والأرجنتين، أو نحو أميركا الشمالية وكندا، وبعضهم نحو أفريقيا السوداء، و ذلك لمن استطاع إليه سبيلاً، باعَ عدد كبير من أهالي النبطية أملاكهم لخلاص أبنـائهم من نير العبودية والتسلط، وخرجت مباريم الأساور ومجوهرات الأمهات من مخابئها لدفع (النيلون) وغيره من متطلبات الإبحار نحو

المجهول، على متن بواخر من عدة جنسيات، مُدَّة الرحلةِ كانت طويلة وفيها توقُفٌ في كثيرٍ من المحطات.
وبعدها حصلت أمور متعددة في تاريخ لبنان، ومنها الانتقال من عهد الانتداب إلى عهد الاستقلال، وغيرها من تَغيُّرَاتٍ في البنى التحتية. بالطبع كانت نحو الأحسن... تفاعلت بتأثيرها العاداتُ والتقاليد نحو الأفضل، وكذلك الأمور الاجتماعية والمعيشية، أصبحت القوانين والإدارة الرسمية للدولة تطل برأسها الخجول نحو العدل والمساواة، ولو بكثير من الإجحافِ وقليلٍ من الإنصافِ كلما تَوجَّهت عيونُ الدولة العوراء نحو الجنوب، فلم يكن بالإمكان أحسنُ مما كان (الأعورُ أفضلُ حالاً من الأعمى).
وكانت النبطية محط رحال البعض من الإيرانين وكذلك من العراقين، ولربما كان السبب، عائد الى الزياراتِ التي كان وما زال أهالي النبطية يقومون بها (قبل وبعد فريضة الحج) الى العتبات الشريفة، في إيران والعراق، بما يسمى زيارات الأئمة عليهم السلام، أمكنة أضرحتهم الشريفة موَزعة بين البلدين.
وكان طلابُ العلمِ والفقه الديني في جبل عامل يتّجهون نحو النَّجفِ الشَّريف أو نحو قُمْ.
وقيل بأنه كانت تتواجد عائلات من اصول ايرانية في منطقة النبطية وجوارها في عهد السيطرة العثمانية.
سألته عن العائلة تنهَّد وقال: "بالصيف ضيعت اللبن"؟.
تنهد بعدها وأضاف:
عائلات النبطية بشكل عام كان بينها علاقات قرابة ونسب، ومنها تشعبت عدة فروع فآل فران كانت فروعهم آل الزيون وآل سلوم، وعلى صلات قرابة ونسب مع آل الصباح وآل بيطار وآل الصباغ وآل نصار.
جَدُّ، والدك موسى علي أحمد فران، كان شقيق جدي لوالدي ولعمي الحاج حمود فران، وشقيقاً لمحمد فران والد جدك لأمك الحاج حسن، وشقيقاً لجد أحمد بدوي فران.
وكان آل فران من المزارعين ويملكون بعض الأراضي في منطقة المحفرة (لما صار يُسمى حي البياض)، وبير السفاري وعش الغراب، بإتجاه بلدة الكفور والمنطقة المطلة على كفرجوز وتنحدر من كرم اللبن حتى عين الحورانية من الجهة الغربية.
توفي في مقتبل العمر تاركاً زوجته "خاتون" و من البنات، ناهيل، وحاجة، وقنوع، ومن الصبيان الأبن البكر أحمد، وعلي الابن الأصغر المدلل ....

هاجر أحمد إلى تشيلي ومعه عدة شبان من النبطية من آل الصباغ، وهاجر ابن عمه أحمد بدوي فران إلى كندا، وصار اسمه بيتر بيكر.
(صدر في جريدة الشرق الأوسط، يوم الأربعاء 1 تشرين الأول عام 2003، العدد 9073، مقالة للأستاذ سمير عطا الله:
الشيخ محمد حرب والنائب أحمد الفرّان
كتب مراسلنا القاري كمال قبيسي قبل فترة ان النائب الكندي اللبناني الاصل مايك حرب عين عضواً دائماً في مجلس الشيوخ في خطوة هي الاولى من نوعها. وذكر ان مايك من ميخائيل. واتصلت بالزميل الكواكبي وقلت له ان مايك حرب هو صديقي محمد محمود حرب وليس ميخائيل وانه ليس اول لبناني في مجلس الشيوخ الكندي بل سبقه اليه السناتور بيتر بيكر او احمد بدوي الفران الذي ترجم اسمه الى بيكر. وفي اليوم التالي اتصل كمال بالنائب حرب الذي اكد له ان نصف معلوماتي صحيح، اما النصف الآخر، اي ان لبنانياً من النبطية قد سبقه الى مجلس الشيوخ، فهو غير صحيح.
وهالني الامر. ليس لأن كمال قبيسي على حق او نصف حق، بل لأنه اذا ثبت كلامه وكلام محمد حرب، فهذا يعني ان عليّ ان اعيد النظر في ذاكرتي. كان علي ان اقبل كلام محمد حرب لعدة اسباب، اولاً معرفتي بهدوئه وتواضعه المطلق، والثاني لانه يضع يده على ارشيف وسجلات مجلس الشيوخ الذي اصبح عضواً فيه.
اذن، من اين جئت باسم بيتر بيكر؟ ولماذا عيّنته في مجلس الشيوخ الكندي؟ وبموجب اية اسانيد واي شهادات؟ لقد بقي في ذاكرتي ما كتبه الزميل رفيق خليل المعلوف عن زيارة الى بلاد الاسكيمو اوائل السبعينات، حيث التقى في "الربع الخالي الجليدي" اللبناني الوحيد المهاجر الى هناك منذ العام1907. وروى المعلوف في "ملحق النهار" قصة مقابلة ممتعة مع احمد بدوي الفران الذي احبه اهل الاسكيمو وانتخبوه نائباً عنهم في البرلمان. ومع الزمن ظننت انه اصبح عضواً دائماً في مجلس الشيوخ.
لكن يبدو ان القبيسي وحرب على حق. فالفران، او المستر بيكر لم يقطع المسافة القصيرة بين قبة البرلمان الفستقية وبين مجلس الشيوخ. لكن العاصمة الكندية اقامت له منذ السبعينات تمثالاً يشهد على بطولة اولئك الرواد الذين قطعوا البحار والمحيطات والصحاري الجليدية لكي ينتهوا في بلاد الاسكيمو. وكانت سيرة الفران نموذجاً لملحمة من ملاحم الهجرة في القرن الماضي. فلا يعرف احد اي برّ واي بحر عبر الى ان وصل الى نهاية العالم وآخر القطب. ومن هناك ظل يعود الى لبنان، بين حين وآخر.

وظل احمد بدوي الفران، او المستر بيتر بيكر يقرض الشعر وهو في ذلك اللامتناهي الجليدي «حيث اليوم هو الغد وحيث الارض لا نهاية لها».
ومن شعره:

طال اغترابي وآمالي تعللني	لا طيب عيش ولا صفو له ارد
واصلت سعيي مجتازاً على سعي	اطوي الفيافي من صقع الى بلد
فلا وجدت صديقاً في الزمان ولا	ترجى صداقة انسان الى احد
ورمت طول حياتي كي انال هنا	بئس الحياة فأين العيش والرغد

ذهب احمد بدوي الفران الى آخر العالم بالبواخر وعلى الزحافات التي تجرها الكلاب. وتعلم لغة الهنود فأحبوه. وفي سرّه ظل يحن الى جنوب لبنان. ويقرض الشعر ولا يجد من يقرأه عليه. وكرمته كندا على انه احد روادها الكبار، اما بين اللبنانيين فكان هناك الآلاف من المهاجرين الذين عبروا القارات كالطيور الاسطورية، ولذلك ظل اسم الفران مجهولاً، الى ان اصبح الزميل رفيق خليل المعلوف، اول صحافي عربي يقيم كوخاً مؤقتاً من الجليد في بلاد الصقيع الابدي.
*أحمد بدوي الفرّان هو شقيق الحاجة رمزية حجعلي فران "ام كاظم"...............)
وللعودة إلى حديث ابو تمام:
"خاتون"، بعد هجرة ابنها "البكر" أحمد، جعلت من الضعف قوة لإعالة بناتها وابنها المدلل الاصغر علي، الذي كان لا يكترث لصعوبة العيش في حينها، فراح يبعثر ما تركه والده، وكان يملك قافلة من الجمال تتوجه في رحلات تجارية نحو حوران في بلاد الشام لنقل البضائع ذهاباً وإياباً.
وفي إحدى الرحلات وخلال مروره بمدينة حلب، تعلّق بحب صبية اسمها "كاترين"، واصطحبها معه إلى النبطية، بالسر، وأسكنها في خان سعيد نحلة؛ فراح رفاق رحلته يطلقون عليه لقب " أبو كاترينا".
بقيت كاترين في النبطية لفترة طويلة، إلى أن عَلِمتْ خاتون بها فقامت قيامتها وأجبرته بردِّها إلى بلدها حلب، رجع بصحبتها ومكث عدة اشهر في حلب، وباع قافلة الجمال وبددَّ ثمنها، ورجع بخفي حنين إلى النبطية.
يَبيعُ على هواه كلما كان بحاجةٍ للمال، ومكيالُ القياسِ لديه كان (الشملة) يَذرعُ بها كيفما شاء ولمن شاء ودَفعَ الثمن، لما يسد به شغفه ولهوه متنقلاً من مقهى إلى آخر، (الشملة هي زنار من القماش كان يُلفُ به الخصر فوق القمباز).
وبضغط من والدته خاتون تزوّج من قريبتها من الصرفند من آل كاعين.

لم يمضي على زواجه سوى أشهر قليلة قبيل نهاية الحرب العالمية الأولى، وبداية إنهيار الأمبراطورية العثمانية، ضربت المجاعة في سفر برلك اطنابها، وسيقت الفتيان والرجال إلى التجنيد الإجباري وخدمة السخرة في فرقة الإنكشارية، (وعبثاً حاول التملص بدفع الرشوة، وبأنه المعيل الوحيد لعائلته).
وتوجه مع فرقته إلى دمشق. وهناك روايتان من قبل رفاقه في الفرقة العسكرية من ابناء النبطية:
الأولى تقول بأنه تعرَّف على صبية شامية.
والثانية تجزم بأنه قد أعاد صلته بكاترين بعد إنقطاع ما يقارب الثلاث سنوات؟.
وبعدها كانت وجهة السير نحو بلاد اليمن، ولم يمض على وصوله إليها إلاّ القليل، قضى نحبه فيها ودفن هناك، وبعد مدة وصل خبر وفاته إلى خاتون الثكلى المفجوعة، بوفاة كنتها وقريبتها، في مرحلة وضع ما في بطنها، وكان تَوَام صبيان، اسمتهما الجدة: حسين علي فران وموسى علي فران.
ترعرع اليتيمان في كنف جدتهما التي كانت لهما الأم والأب والمعيلة.
وفي عام 1917م، حضر إلى النبطية الميرزا ابراهيم، وبصحبته إبنه بهجت وإبنته مريم، وراح يبحث عن أرض يشتريها ليُشَيِّدَ عليها منزلاً له في النبطية، فوقع الخيار على قطعة أرض مما تبقى لخاتون، تمت الصفقة، وباشر بوضع مداميك البناءعلى تلة مرتفعة في حي البياض من قرب التينة البقراطية المحاذية لمنزل خاتون والتابعة له، حتى السمَّاقة وهضبة آبار التبة من الناحية الشرقية، وغربي حدود منزل الحاج محمد نصار والد رشيد نصار(الأستاذ وجيه بشارة هو حفيد الحاج محمد نصار) وشمالاً إلى حدود بيت الشيخ قاسم حامد وبستان محمد سعيد صباح.
بعد إتمام الميرزا بناء منزله والإقامة فيه ومصاهرته للنبطية من آل فخر الدين، قام بزراعة شجيرات الزيتون والتين، وكان شديد الحرص والعناية في رعاية مزروعاته.
وفي يوم من الأيام شَردتْ العمشة بقرة خاتون، تاركةً معلفها، استعادت خاتون حسرات همومها، وعبثاً حاولت العثور عليها، وبينما هي تفتش من ناحية إلى أخرى ومن بئر في التبة إلى غيرها، انتصبت أمامها قامة الميرزا، وبصوت رخيم جهوري النبرة قال: في تبة خاتون بياخذ بقرة، ما في تبة ميرزا بيذبح بقرة.....

وبلا تردد أو تفكير، أجابته خاتون: تقبر التبة وصْحابها، البقرة عم تطعم يتامى شو طلعلنا من الأرض وبلاويها. وعادت خاتون ويدها تجر رسن العمشة!.
رحلت "خاتون"، وتطوعت العمّتين "ناهيل و حاجة"، برعاية الغُلَامَيْنِ اليَتِيمَيْنِ فِي بيروت، حيث إقامتهن، إلا أَنْ َبْلُغَا أَشُدَّهُمَا.
استودع والدي في خدمة آل الغلاييني ليعمل ويتعلم مهنة الحلاقة في صالونهم بالقرب من التياترو الكبير................
الدار الترابية في النبطية، بغرفتيها و شجرات التين والزعرورة والزنزلختة، افتقدت لمالكيها، بتركها في عهدة المؤتمن على زراعة ماتبقى من الأرض حولها، و"عش الغراب" و"بير السفاري".
العمة "ناهيل"، كانت تحمل راية بقية الميراث، وتشرف على ريعها، فزياراتها لم تنقطع، بعد ان اقتطعت لنفسها موطء قدم في النبطية، و بقيت على تواصل مع انسابها، وأبرمت العقد مع ابن عمها الحاج حسن، لتزويج عمي ووالدي من بناته، بشرط عودتهما للإقامة في النبطية، وسعياً لتنفيذ بنود العقد المبرم، تم تكليف الحاج رشيد نصار بالإشراف عل بناء سكن الإقامة، وما كان مستوجباً لذلك، قام الأخوين من بيروت بدفع تكاليفه... وبني المبنى على نمط قطار بثلاثة حافلات ومقطورة خدمات منزوية في مؤخرته.
وكانت العودة بعد فترة تهجير قسرية، من عام 1918 إلى عام 1942....

كنت حدثاً في السادسة من عمري، وكنت يومها في الصف الثالث الإبتدائي، وكان معلمي المربي الاستاذ الياس شاهين.
رجعت من المدرسة وسمعت صوت والدي، وعلى غير عادته أن يَرجِع في وقت مماثل. تفاجأت بالأمر، وجدته مع شخصٍ غريب لم تره عيناي قبلاً، الحديثُ بينهما كان ودياً، طلب مني والدي بأن أتقدم لتحية عمي أحمد، لم أكترث لصفة العم التي نطق بها والدي، بل كانت عندي صفة للإحترام لكل رجل من أصحاب والدي وغيرهم.
تقدمت نحو الضيف لتحيته كما أمرني والدي، ناداني باسمي مرَّحباً بي، واغْرورَقتْ عيناه بالدموع، تَعجبتُ، مَددتُ يدي لمصَافحته، شدَّني إليه وراح يَحضُنني ويَضمُّني إلى صدره، ويقَّبلِ جبهتي. ألقيتُ نظرةً نحو والدي، فرأيت عينيه دامعتين، وراح يُحشْرِجُ قائلاً: هذا أخي أحمد، قدم لتوه من الشام ، راعني الأمر، فأبي ما تعوَّدت أن أراه منفعلاً، تجمَّدت قدماي، حِرتُ في أمري، والدي كان بكامل الجدّية يتحدَّث معي، وما

تعودْتُ عليه أن يُمازِحَني، أمْسَكَ بيدي من قال عنه أبي بأنه عَمِّي، وكيف يكون لي عمٌ غير عَميَ حسين"، أيُّ سِحرٍ هذا! ومن أيُ قُمقُمٍ خَرجْ؟ تَبصَّرتُ بوجْهِ أبي، تَلَعْثَمَ لِساني عندما هَمَمْتُ الاستفْسارَ منه عمّن جاءَ يُشاطرُ عَميَ حسينُ مَحبَّتي، أشهد أنها حقيقة وليستْ قِصةُ أفلامٍ من قُصَصِ الأفلامِ المَصرية، لا وليست فصلاً من فصولِ الكاميرا الخَفية.
من حقي أن أعرفَ، إن كان صحيحاً أنه عمي، لماذا لم أسمعَ بذلك من قبل.
أنظر تارةً مُحدِّقاً بوجهِ أبي وطَوْراً بوجه من هو عَمِّي، ملامحُ الشَبهِ مُتقَارِبةٌ. من أين لي المعرفةُ بعلمِ الفِراسَةِ، ومتى كنتُ خَبيراً بها؟ وفجأةً دخلتِ الغرفةَ عمَّةُ والدي "حاجة" وكنت أُحِبُها كثيراً تيمناً بمحبة والدي لها. بادرتني العمَّةُ بتقبيلها لي، وكلماتٍ لم أنسها.
(الشبه الخالق الناطق) أخي علي. هدأ رَوعي. أردَفتْ بأنها هي من أتت به إلينا، وبأنها وأخواتها كُنَّ على علم بأن أخاهُن "علي" له ولد في الشام، حيث تنامى إليهن قصص وخبريات عن مغامرات جدي- الجدُ الذي لم يَره أبي وعمي حسين، وكذلك عمي أحمد. هي كانت على علم بعلاقته بكاترين، لأنَّ زوج عمتي "حسن بدير" كان يأتيها بأخبارٍ يسرِدُها رِفاقُ جَدي، عمي أحمد لم يكن على علمٍ بأن والده مازالت جُذورَه فينا، بل كانت والدته كاترين تعرف بأن أبا إبنها من النبطية، لقد عاشت فترةً فيها، وكانت تقول لإبنها بأن والده توفى قبل مولده في الحرب.
أمضى العم أحمد فترة أسبوع في النبطية، ثم قفل عائداً إلى دمشق بعد أن نقدني ورقة مالية هي ورقة الخمس ليرات، تكرَّرت زيارات عمي أحمد لنا لسنوات قليلة، عرفت مما كان يرويه لي بأن أحد أبناء النبطية، المقيمين في بيروت، كان يتردد عليهم خلال زياراته إلى دمشق، وبأن كاترين كانت تحتفظ بسرها الدفين الذي باحت به وهي على فراش الموت، وأعطت العم أحمد عنوان رفيق الصبا و خليل الصفا. قَصدَهُ العم أحمد فاهتدى بواسطته إلى زوج العمَّة "حاجة"، وحصل ما حصل.
العم أحمد كان أعزب، وكان يعمل في مقهى والدته بمساعدة خاله.
في العاشر من شهر شباط من عام 1956، وصل جثمان عمي أحمد (توفّى إثر نوبة قلبية) ليوارى الثرى إلى جانب قبر جده لأبيه في مدافن النبطية القديمة، قرب السروة العالية في زاوية جبانة النبطية القريبة من مدخل بيت حيدر كحيل.

عن أبو العلأ المعري:

غيــرُ مُـجدٍ في ملّتــي واعتقـــادِ   نـــوح بـــاكٍ ولا تَـرنّـــم شـــادِ
وشبيــهٌ صــوتُ النَعـيِ إذا قـيـس   بصـوت البشــير في كــل نـــاد
رُبَ لَحـدٍ قـد صـار لحداً مـراراً   ضاحـكٍ مــن تزاحـــم الأضـداد
والذي حــارت البريـــة فيـــه   حيــوانٌ مستحـدثٍ من جمـــــاد
سر إن أستطعت في الهواء رويداً   لا أختيــالاٍ على رفـات العبـــاد
تعـب كـلـها الحيــاة فمـا أعـجـب   إلا مــن راغــبٍ فـي أزديـــــاد
صـاح هـذي قبورنا تملأ الأرض   فأيـن القبـور مـن عـهـد عــــاد
خفف الــوطء مـا أظــنُ أديـــــم   الأرض إلا مـن هــذه الأجســاد

البيـــدر

وكما كانت عليه الحال، في جميع قرى الجنوب، ومنذ القدم، كانت البِركة (وهي عبارة عن خزان طبيعي منخفظ جغرافياً عنما يحيط به).
العنصر المعيشي (ولربما كان الوحيد) الذي منه تسقى الأنعام، وفي بعض الحالات لقضاء الحاجة من غسل أوان وثياب.
في النبطية كان البيدر، قطعة من الأرض منخفضة عما حولها تتجمع فيها مياه الأمطار في فصل الشتاء، بل كانت أشبه بمستنقع، تأسن مياهه في فصل الربيع، وتجف كلياً في فصل الصيف.
وللبيدر في النبطية حكايات وحكايات، ومنها أن صاحب ملكية هذه الأرض لم يكن من أهالي أو سكان النبطية. كان من أهالي صيدا، وكان سمه الدبَّاني، و يجهل معظم أهالي النبطية اسمه الثلاثي، أما كيف انتقلت ملكية هذه الأرض إليه، فالشرح فيها يطول ويتشعب، والروايات في ذلك مختلفة، ولكنَّ الثابت والأكيد هو أن الدبَّاني كان صاحب قطعة الأرض هذه ولديه السند العقاري الذي يعطيه الحق بالملكية القانونية.
البيدر كان مهملاً ومتروكاً من قبل مالكيه، بل مستباح الاستعمال من قبل الغير، فلا من يعترض ولا من يمنع، استعملت قطعة الأرض هذه لعدة أغراض، فكانت ساحة تباع فيها المواشي يوم الاثنين من كل أسبوع، ومحطة الاستراحة واللهو لفتيان النبطية وقاطنيها.
وفي كل سنة من شهر محرم، وفي العشرة الأول من أيامه، يأخذ البيدر طابعه الديني ويتحوَّل إلى ساحة الإمام الحسين (عليه السلام)، بعدها يعود الأمر إلى ما كان عليه سابقاً، إلا أن داهمت النبطية الصحوة العمرانية، واستفاقت البلدية من غفوتها، وبعد إعادة تشييد الصرح الحسيني الجديد، وجدت البلدية ولربما خجلاً أو إلحاحاً ممن طلب توسيع الشارع الممتد من أمام مدرسة الزهراء سابقاً مروراً من أمام الحسينية، ومنها حتى منزل توفيق جابر، ثم انعكفت وصولاً إلى زاوية محلات الحاج توفيق محيي الدين، أما الناحية الرابعة المحيطة بالبيدر بقيت عثمانية التصميم والعرض، والله أعلم بالسبب! وفي سبيل تنفيذ هذا المشروع عمدت البلدية إلى اقتطاع الأرض اللازمة من قطعة أرض البيدر التي يملكها الدبَّاني، (استملاكات البلدية في سبيل توسيع الطرقات تجوز قانونياً)، وصل الخبر بالعلم أو الإعلام إلى صاحب الأرض، فشد ركابه نحو النبطية، سراً للإستعلام، تجوَّل حول ملكيته المسلوبة والمهملة من قبله ولربما المنسيّة،

وبعدها لجأ إلى القضاء، فكان قرار المحكمة أن يبقى الأمر على ما هو عليه، ولكنْ بالسماح للمالك تسييج أرضه بحدودها المتبقية، عندها حضر الدبّاني في وضح النهار إلى النبطية، فكان له "إستقبال حافل"، والحشود الغفيرة تلطخت أياديها بعصير حبات الطماطم، ونكهة مح صفار البيض، والهتاف كان وباللهجة الصيداوية:
(أجى الدبّاني تيخاذ البيدر ويزرعو رماني)
بعد هذا الاستقبال الواعد المتوعد، قفل الدبّاني ناجياً بجسده، وألتجاء ثانية للقضاء.
فأنبرى له صاحب السماحة الشيخ محمد تقي الصادق، وتم تكليف المحامي الأستاذ محسن سليم إبن الغبيري، وكان من أشهر المحامين في لبنان، ونظراً لقدسية استعمال البيدر في شهر محرم، وبناءً عليه حكمت المحكمة باستملاك الدولة للبيدر والتعويض على الدبّاني، وبأن تُلحقَ ملكية البيدر بوقف الحسينية (أحمد بك الأسعد لم يكن في حينها بعيداً عن القرار ونزاهته**!**).
وانتهى الأمر، بعدها بسنوات قليلة، إلى أن باشر سماحته بالمشروع الجديد، وبتشييد مجمع تجاري على ضلع من أضلع البيدر، من أمام منزل حيدر فران وبواجهة منازل توفيق جابر وعيادة الدكتور علي جابر ومنزل أخويه حيدر و رضا جابر، حتى الزاوية المقابلة لمحل معتمدية كفررمان، ومنها نزولاً حتى محطة المقدم، وما كان قبلها منزل العلامة الشيخ أحمد رضا.
وهذا المشروع العمراني الحيوي أنشئت فيه محلات تجارية للإيجار، وبداخله ومطلاً على أرض البيدر، أرتفع صرح الجامع الجديد، (من ناحية كازية المقدم)، ومدرسة الإمام الحسين بمواجهة منزل حيدر فران؛ وفي الطابق الأول تم لاحقاً تشييد مستشفى وكان اسمه المستشفى الحكومي، وأصبح لفترة تحت إدارة الجيش وبإشراف الرائد علي رشيد نصار (طيب الذكر والذكرى).
بعد هذا لم تنتهي حكاية البيدر والمحاكم فصولاً، فأقيمت دعوى من جديد المدعون فيها: أبو منح، وأبو علي، وأبو محمد، وأبو علي آخر أيضاً، وجميعهم كانوا من أعضاء جمعية المقاصد في النبطية.
أسباب دوافع الدعوى، كما تقدم بها رافعوها كانت: عدم قانونية استعمال الوقف لأغراض تجارية. الأستاذ محسن سليم، كان محامي المدّعى عليه، فصال وجال، وحمل وهاجم، فرُفِضت الدعوى لعدم صلاحية المدّعي، وبقي الأمر على ما هو عليه، بالتكريس القانوني.

ردة الفعل كانت،(لرد الاعتبار لسماحته ولكي لايتجراء أحدٌ آخر على فعل كهذا)، مظاهرة صاخبة شارك فيها الكثير من أهالي النبطية، يتقدمها أفخاذ الشيخ وسائر أفراد الدائرة الأولى، وخلفهم الأهالي وفي المقدمة كان "الرَّياس": نمر الزيون، وجميل وشكيب وأديب نحلة، وأبو العبد نحلة أيضاً و حسن شريف، وقاسم قديح، والسيد محمود بدرالدين وأبن عمه السيد علي، وعبدالوهاب وأخوه السيد علي، وزميل الدراسة ناجي، وهم من آل بدرالدين أيضاً، وحشد كبير من أصحاب الهمة والشهامة والولاء، فجابت المسيرة الشوراع المحيطة بالساحة العامة، وتوجه الغضب الساطع نحو مدرسة الزهراء، والهتاف الصاعد المتوعد كان: عدو الشيخ عدو الله

كـان الزمان وكـان

أين كنا وكيف أصبحنا؟ بالبال سؤال، أَغضبٌ هو أم إهمال، شو غيّر الأحوال؟؟

في عهد الإنتداب الفرنسي، وبلا حنين للرجعةِ إليه، لأنني سَعيتُ جاهداً و بملء إرادتي لأكون في ظله، أهي نزعةُ أو رغبةُ عمالةٍ للاستعمار، لا ثـم لا ، بل هي ردةُ فعلْ، فأنا مازلت أحب وأقَّدر ما كَتبهُ الفيلسوف المفكر عباس محمود العقــاد.

ولكنني كنت دائما معترضاً على ما قاله عندما كان(يتمشى) في ميدان التحرير في القاهرة ليلة جلاء قوات الاحتلال الإنكليزي عن الأراضي المصرية، نظر من حوله، فوجد الناس في بهجة وسرور، ومنهم من راح يدوس بنعليه ورود وأزهار الحديقة العامة القريبة من الميدان، (كان ذلك من الممنوعات بل من المحرَّمات تحت نير الإستعمار الإنكليزي)

تأمل العقاد بما يدور حوله وقال : تمتعوا بآخر أيام الإستعمار. سيأتي يوم سوف تندمون عليه.

لكنني مقتنعٌ ، قلباً وقالباً، ومردِّداً دائماً القول المأثور :

بلادي وإن جارت علي عزيزة وأهلي وإن ضنوا علي كـرام

ومراراً ترتابني الكأبة والحزن كلما تذكرت:

إن رَحَلْتَ عن قومٍ وقد قَدِروا على أن لا تَرْحلَ فالراحِلونَ همُ

ما كنت يوماً منتمياً أو مؤيداً لنهجٍ سياسي أو عقائدي، عقيدتي كانت ما فُطرتُ عليه، مُوَحِداً ديناً ودُنيَا ، لم أكن مُهَّدداً ولا كنتُ مُطارداً، ولا مُطَالباً ولا مَطلوباً. دعاءٌ كنتُ أستعين به : ربنا لا تحملنا ما لاطاقة لنا به.

قـدرٌ مَكْتـوبْ

زيارتي الصباحية المعتادة اليوم، لاسلبيات فيها، بل ستكون تحت شعار مصري: (كله تمام يا فنـدم والأشياء معـدن) .

في طفولتي كانت الكهرباء في النبطية، لا تقنين ولا انقطاع خلال الفترة المعهودة والمعروفة مُسبقاً من القاصي والداني، عطلٌ أو انقطاع،

الإعتراض الفوري يقوم على استدراكِه بعد قليلٍ من حُدوثِهَ، العيونُ الساهرةُ موجودة ، والألسنة لا تَرحم!

(هَيْزعَةْ وسَحْجةْ: حيدر أكل شوربا ونسي يضوي الكهربا) جاهزة ومتأهبة،

" الله لايُعَلِّقْ حَدَا بِلسانْ حَدَا والأسى مابينتسى"
منذ منتصف العشرينيات، كانت الكهرباء داخل البيوت والشوارع الرئيسية من المَغربْ حتى منتصفِ الليل، يُضافُ إليها أربع ساعاتٍ صباحية، فيها تعم الكهرباء البيوت والمحلات (ما عدا خط البلدية المخصص للشوارع).
"والذي ما عندو عتيق ما عندو جديد"، القناديل جاهزة من عيارات مختلفة و"أبو نمر" بائع الكاز، همته قوية، "السِراجُ كان له مقاسات وتوابع من فتيلٍ و« مَكَنْسمَة"، والقزازة المُناسبة لمقاس السراج من نمرة واحد إلى نمرة خمسة، القناديل كانت لمن يريد إحياء الليل والسهر، وللطوارىء إن جد عطل طارىء، والشمع كان للاحتياط في فصل الشتاء وخاصة لشهر شباط، و من أين لكم هذا ؟
(إن أحبَّ الله عبداً حببَ عِبادهُ به):
سيد فاضل كانت لديه مشاريع استثمارية لها أبعاد ربحية مجبولة بخدمة إجتماعية هو"المسيو منسى" أصله من بلدة الكفير قرب مرجعيون(في فترة الإنتداب الفرنسي).
تجاوبت بلدية النبطية، وتعاملت بعقلية مستقبلية، ولكنَّ التنفيذ والتجهيزات أخذت بعض الوقت، من رئاسة محمد أفندي شاهين إلى رئاسة بهيج بك الفضل بعدها هدرت الموتورات "الليستر" ومُدَّتِ الشبكات وانتصبت الأعمدة الخشبية منها والحديدية التى كانت على شكل الجسور و كانت تستعمل لتقوية أسطح الباطون و توضع من حائط إلى حائط مقابل، في منتصف سقف الغرفة فتحمل ثقل الباطون بالتعاون مع حيطان الغرفة الأربعة، وعلى الأعمدة توزعت مصابيح الإنارة العامة.
مركز موتورات الكهرباء كان على زاوية الأرض التي بُنيَ عليها لاحقاً المدرسة المهنية، لجهة مدرسة الزهراء القديمة، على مقربة من بير القنديل الكبير، وذلك لتكون الموتورات قريبة من نقطة التزوّد بالماء، لزوم التبريد المستمر لضمانة حسن الأداء، طاقة التشغيل هي من المازوت..
كفى ثم كفى، فنحن الآن نتعايش مع المعطيات القديمة نفسها ولم يتغير علينا شيء، ولكن كان عندنا موتوران وفي عصر الكمبيوتر وغزو

الفضاء أصبح في كل منزلٍ تقريباً موتور، و للأشتراك في كل حي من أحياء البلدة موتورات... وإلى الأمام سر.
(بحسب منظمة الطاقة العالمية تبيَّن بأحصاءٍ تقريبي بأنَّ معدَّل النمو الموتوراتي للطاقة في لبنان فاق عشرين ألف مرة عن معدل النمو الموتوراتي في بنغلادش والدليل الحسي على ذلك: إن الموتورين الإثنين اللذين بالأمس كانا هنا، اليوم قد كثروا).
(لاسلبيات بالموضوع، فالكلام هنا على معدل ارتفاع نسبة التنمية)
وقبل العودة إلى ما أتذكره عن الكهرباء القديمة، يجول بذاكرتي خواطر شخصية لم تكن معاناة بل لذة ومتعة كلما خطرت ببالي، كنت في صفوف المرحلة الإبتدائية.. أتذكر بأنني كنت أذرع الطريق(عفواً الزاروب) ذهاباً وإياباً، مابين طلعة حي البياض ومنزل رئيس البلدية المربي الفاضل عبد الطيف فياض حاملاً كتابي، أتوقف في مرحلة الذهاب والإياب تحت مصباح الإنارة العامة، وكان هنالك منه أثنان، واحدٌ مثبت على عمود عند مدخل الزاروب، والآخر على (شلفة) جزء من عمودٍ مثَبتٍ على الحائط عند مدخل منزل رئيس البلدية.
تَوقُفي كان لقراءة عدة جُملٍ من كتاب أحمله، أتابع بعدها رحلة الذهاب أو العكس مردداً تلك الجُملِ لحفظها بصماً ومراراً بفهم وإدراك لما تحمله بين طيات كلماتها. إختياري لهذا النمط، لم يكن بدافع التركيز والانفراد، ولا حتى ممارسة رياضة المشي، بل كانت له أبعاد أقتصادية، خشية إرهاق العائلة (ولو بقليل) بأعباء نمو فاتورة الكهرباء، فيكفيها ما هي فيه**!**
(المصباح الموجود أمام منزل الرئيس السابق لبلدية النبطية، تم انتزاعه في وضح النهار بعد انتهاء ولاية من كان في خدمة رئاسة بلدية النبطية وقبلها كان من أعمدة صرحها العلمي أم المدارس).
انتقل المصباح بعدته وعتاده، من أمام منزل عبد اللطيف فياض، ليعتلي عموداً من الحديد (الجسريّ الشكل) كان مزروعاً في طرف حقلٍ ليس ببعيد عن مدخل بيتنا، على يسار الأوتستراد،(الممتد من زاروب طلعة حي البياض حيث ينتهي أمام منزل طيب الذكر عبداللطيف فياض)، ومن هذا البرج كانت تتغذى، كهربائياً، منازل الجيران: بيت الحاج كامل وهبي وبيت الحاج محمد حشوش، وبيت الحاجة لطفية فياض ومنزل شقيقها عبد اللطيف فياض ومنزلنا المتواضع المحاصر بما حوله، وقَصُرتْ بطولها رحلة الذهاب والأياب.
لاسلبياتٍ ذُكرتْ، بل نظرةُ تفائل للّحاقِ بمسار التقدم والحضارة، المرتكزة قواعدهُ على تقصير المسافات، و التقليل من الجُهد وحصر النفقات،

باستهلاك أقل قدرٍ من المحروقات، حفاظاً على البيئة وحصر التلوث والرفق بطبقة الأوزون.
انتهى عقد الاستثمار المعطى للسيد منسّى، وانتقلت ملكية المؤسسة إلى شركة كهرباء لبنان، وبقي الموتوران، تحت رعاية القدرة الإلهية وهمة: حيدر كحيل وأبو حبيب سعد، وحبيب وحسيب طقش، و حسين علي كحيل أبن شقيق حيدر وشقيق المربي حسن علي كحيل (المتحوِّل من صرح أم المدارس إلى صرح الثانوية).
كلمة حق من الواجب قولها، الأستاذ محمد سرحان و الأستاذ ابراهيم عياش و الأستاذ حسن علي كحيل، وبرعاية وحرص المربي أحمد جابر، هم سببُ الشعار المعروف :
نجح بالمية تسعين إلاّ اسكندر ها المسكين!.
(ثلاثة صفوف للسرتفيكا كانت في عهد ولاية أحمد جابر لأم المدارس، كان يشرف عليها الثلاثي المبدع وهي: صَفُ ابراهيم عياش أبن مختار حاروف، وصَفُ حسن علي كحيل،(وكانا في الطابق الأول من المبنى، في الواجهة المطلة على المدخل الرئيسي)، والثالث صَفُّ محمد سرحان، وكان في الجهة اليمنى المقابلة لغرفة الإدارة .
تحت صَفِ محمد سرحان كان هنالك" قبو" له باب يطل على فسحة ترابية عند المدخل العام، وكانت له نافذة صغيرة في الحائط الفاصل بين حرم المدرسة وزاورب يؤدي إلى منزل جميل بيطار ومنزل "الشباب" المير نواف وغالب وغازي المقداد.
وفي هذا القبو(الحيطان"، الآخران لامنفس لهما).. وفي هذا الركن الفسيح الكبير خطوتُ الخطوة الأولى في مسار محاربة الجهل، هذا الركن كان عندي من رحاب الجنة (بلا قياس أو مقاربة، بل وصف تشبه وتشبيه لرحابة صدر المشرف عليه الأستاذ أبو النواهض من "ناهض" و "نافذ" و "ناجي"، الفاضل الأستاذ حسين قديح)، الدرج العريض المحصور بين" القبوين" قبو صف "القطاقيط" وقبو آخر لا منافذَ له إلاّ المدخل إليه وكان مركز الأمن والحراسة ومقصف (كافيتيريا) التغذية و"المقرشة".
طاقم تنفيذ التعليمات والخدمات فيه، كان عائلي التركيبة القانونية. رئيس مجلس إدارته كان الشيخ صالح عواضة، وعضو المجلس وولي العهد خليفة الرئيس كان ولده "أبو العلاء". أهداف المركز الأمنية كانت قانونياً منوطة بالشيخ صالح، وعلى الأرض وفي الواقع، كان أبو العلاء من يقوم بها، مستعيناً بوالده خلال فرصة الساعة العاشرة، عند الإزدحام (عجقة الطلاب) وكثرة الطلب، ولسرعة التلبية وقمع الإحتجاج ومراقبة الدخل.

عندها يتصدر الشيخ صالح كرسي القيادة خلف طاولة من الخشب منخفضة، تسد باب المقصف منعاً للدخول، وفي داخلها جارور، يبقى مفتوحاً لتسهيل عملية القبض ورد الرصيد في الحالات النادرة، لأن ما هو في جيوب المستهلكين "قدراً بقدرٍ يا بن موسى"، فالخمسة قروش كانت السعرَ الموَحد المُصرَّحِ به لدوائر مراقبة الأسعار، لثمن "كمشة" الترمس أو كمشة "القضامة" الحلوة أو المملَّحة، الملفوفة بقرطاسٍ من ورق الجرائد، أو كامخ ومكموخ براحة الحلقوم و من البسكوت، الاختيار يجب أن يكون سريعاً ودفع الثمن يسبق التسليم.
وتمتد أيادي المتبرجسين القادرين(من بين أشلاف الحديد المزروعة في حائط تصوينة الحرم) لتناول متطلباتهم "وليس المطلوبات" من البسطات (بعد أن سُمحَ بالتواجد لها خارج حدود الصرح)، و فاقت خيارات الاختيار أبعاد متواجدات "حُوينتَ" مؤسسة الشيخ صالح وولده محمد للتجارة المتخصصة (مع قليل من التنوع) ببيع الترمس المُصنّعِ محلياً بعد نقعه للتحلية وتجنّب مرارة طعمه، في كيس كان لحفظ الطحين مازالت آثار الكتابة عليه (تقدمة من الشعب الأميركي، خمسين كيلو صافي)، خلال فترة التحلية والتحضير كان الكيس الأميركي الصنع وبداخله الترمس البلدي، يتدلّى بعد ربطه جيداً بحديدة فتحة "الحاووز"- خزان المياه، الموجود على يسار المركز المشترك، حائط طرفه الأيسر جزء لا يتجزء من تصوينة المبنى، وحنفياتٌ من نحاس أحمر مشكوكة في واجهة هذا "الحاووز" - الخزَّان، منها كنا نشرب ونرتوي هنيئاً مريئاً.
واجهة الصرح تطل على شارع حسن كامل الصباح (أسمٌ مغايرٌ لتقدير المُسمَّىَ).
خارج حدود التصوينة تتواجد البسطات العشوائية، ولفترة خاطفة تمتد من العاشرة إلاّ ربع، حتى العاشرة والربع ، يومياً من كل دوام رسمي، وعلى هذه البسطات تتواجد أنواع عديدة من الحلويات من معمولٍ بالجوزِ والفستق و من السكاكر على أنواعها من(منضمينة وعلاّكة وحبيبات الشوكولا الملفوفةِ بورقٍ مُذَهَّبْ) ومن شمندر مسلوق يُرشُ عليه الملح عند التسليم ومن عرانيس الذُرَةِ المشوية أو المسلوقة بحسب المواسم، ومن مناقيش الزعتر وسندويشات المربى بالزبدة على نوعين فقط (المشمش والخوخ) أو من سندويشات المرتديلا أو لحمة بالعلب (الكورن بيف أكزتيرة النوع أرجنتينية الصنع) ومنها ما هو الملفوف سلفاً لسرعة الخدمة وحفاظاً على البيئة و"الثروة الطبيعية"، يُعادُ استعمال ورق الجرائد للفّها .

البسطات كانت مؤسسات فردية، التكوين والخدمة، وكان من بعض القائمين عليها حسيب عبدو جابر بعد سفر أخيه حلمي إلى أفريقيا (حسيب أبو العز عزام" كان زميل الدراسة في المرحلة الإبتدائية) و نداء الترغيب ولفت النظر عنده كان:
" قَــرِّبْ يا ولـــدْ قــرِّب ".
(لن أذكر أسماء الباقين لأنني لا أتذكر منها إلاّ الألقاب).
التسوق من البسطات كان باهظ الثمن ومخصصاً لمن لديه إمكانية الدفع، و بقي الكثير من الزبائن الأوفياء بخمسة قروشهم للمؤسسة الأم، القضية قضية مبدأ فقط لاغير! وكنت من بينهم.
ولطالما ذكرت ورددت كلمة "التصوينة" وهي الجدار المحيط بالمبنى، لأنه عند انتمائي ودخولي في عداد البراعمِ العابرة في نقطة انطلاقها من أم المدارس، عندها لم تكن التصوينة موجودة، بل كان مدخل الصرح كما يقال: (سَدحْ مَدحْ) لايفصله عن الشارع إلاّ سياج شائك من الشريط المعدني، تتوسطه درفتا بوابة خشبية، يعجز فيها "باسكال" (مبتدع نظريات التوازن وقوانينها وتحديد نقطة إرتكازها)، لما كانت عليه حالة إرتكاز درفّتيها، حيث يرسم أسفلها علامة النصر إن أُقفلتْ، وإن فُتحتْ تباعدت علامة النصر بمعبرٍ مسطحٍ بين أطرافها، يمر من خلاله من أراد لنفسه النصر، بدخوله صرح أم المدارس وقبوها (نصرٌ لا يحمل بين طياته مادة الإدعاء والتكبّر).
كان جرس مدرسة "أم المدارس" هو الجرس الأصيل، وأصل ما يجب تسميته بجرس، وتسميات(المنبهات) الأخرى إدعاءٌ لا مصداقيةَ فيه، تقومُ بما يُشبهُ ما يقومُ به الجرسْ، جرسُ أم المدارسِ أبو الأجراس مجتمعةً، مصنوع من نحاسٍ سميكٍ، مصبوب بقالبٍ على شكلِ ما صارَ يُعرفُ بالجرس، تتدلى من داخل فجوته حَلَمَةٌ مُثبتةٌ في رأسِ شكله الهرمي من الداخلِ بسلكٍ معدني، و للجرس من الخارج ذراعان مستطيلان، قاعدتهما مربعة الشكل.
يرتكز الجرس، محمولاً بذراعيه ومن الطرفين، داخل ثقب بداخل قاعدةٍ خشبيةٍ من كل جانب، تم تثبيتُ القاعدتين على الحائطِ بمستوى علوّ مناسب من منسوب مستوى سطح الأرض.
في رأس هرم الجرس حلقة مُفْرَغة يُربطُ بها حبل من مرسِ ليفٍ، إذا شُدَّ الحبل من طرفهِ الثاني، راح الجرس بِنصف حركة دائرية حول محور ذراعيه بإتجاه الحائط (المثبت عليه الجرس محمولاً بقاعدتيه)، فتلتطم

الحلمة المتدلية، (عمودياً بفعل وزنها وبحسب قانون الجاذبية المستنبط من سقوط التفاحة على رأس نيوتن).
وعند تَلاطُمِ الحلمة مع وجهتي الجرس الداخلية، في مرحلة الشد "والرخي"، تتعالى دقاتُ الجرسِ معلنةً توقيتَ موعدِ الدخول والخروج من و إلى الصفوف.
(دقات الجرس هي النغم بأم عينه وليست برنين، ولَزِمَ القولُ قُرِعَ الجرسُ وليس ضُرِبَ، والرنينُ هو حصراً للجرس الكهربائي والضربُ لمن عصا)
الحاجز الشائك ليس بذي قوة ردع كافية لحماية الحدود، ولا حتى منع التسلل، إنتقلتْ من خلاله، جحافل الرعاع الغزاة، (كل من تسلل هو من الرعاع الغزاة في كل زمان ومكان).
سُرِقَ الجرس، جشعاً وطمعاً بقروش معدودات، وفي صباح اليوم التالي وقع المحظور ودخلتْ الصفوف بالصراخ و ضرب الكف بالكف بعد استدعاء من كانت الشبهة تحوم حولهم وباختيارٍ دقيق من قِبَلِ ناظر المدرسة الأستاذ غالب الشيخ أحمد رضا، و بعد دخول الطلاب إلى الصفوف بدأ التحقيق مع المشتبه بهم، الأبرياء حتى ثبوت التهمة، عبثاً حاول الناظر استدراجهم للإعتراف، متنقلاً بينهم ، بعد رصفهم بخط مستقيم لا حراك فيه ولاحتى الهمس، ضاق ذرعاً الأستاذ من لعب دور" شارلوك هولمز" و "كولومبو"، وبعد أن بُح صوته، غاب لفترة ليستعين بوسائلِ التحقيقِ المتطور(الضرب بلا تركِ أثار للتعذيب) عندها مر "محمد و محمد ذاته"، نظر (المزدوج المثنى) إلى الصف المرصوف فتبين له أن الأغلبية منهم من رفاقه. ("المزدوج المثنى" لم يكن من طلاب المدرسة و لديه نظرة خاصة للعلم و رؤيا ساخرة للمُتعلّمين، وكره شديد للمُعلِّمين، فقرر أن يُعلِّمَ نفسه بنفسه وترك الفن للفن وأعْتزَل التَّعلُّم في المدارس، ليعمل في مجال اكتشافات اديسون الكهربائية).
أبت نخوةُ الشهم، المرور مرار الكرام، برفاق دربه وأخوانه بالصفا، توجه نحوهم للاستفسار، باغَتهُ رجوع الأستاذ غالب، فأنضمَّ الى الصف مُكمِّلاً له.
رجع الأستاذ غالب مستعيناً بقطعة من الخشب (قسم منما يسمى مورينة) كانت من حطام مقعد قد تكسر(رِجْل من أرجل البنك الخلفية)، وراح يستدعي كل فرد من عناصر الصف المستقيم، وبدأت مرحلة التقويم، بصرخة من الغالب القاهر:

(مـد إيـدك يا....) يقترب المدعو ليشبعه الغالب ضرباً على يديه، بضربات تتناسب مع حجم جسم المتهم البريء. بعدها يقول له (إنقبر على صفك ولاه..) ثم يأتي دور غيره إلى أن وصل الدور في نهاية المطاف إلى المزدوج المثنى، الأستاذ مُنهكٌ ومُتعبٌ، لم يلاحظ وجودَ دخيلٍ مندس، فتابع ما كان يقوم به، والمثنى مُطواعٌ ومتحملٌ لما ينهالُ عليه من ضربٍ وشتيمة، إلى أن إنهدّ حَيلُ الأستاذ غالب، وأصدر له الأمر بالذهاب إلى صفه ، تبسم المزدوج وأجاب: "مش قـاعد بالمدرسـة"
(ولكم في القصاص حياة) وبناءً عليه ، لا سلبيات ذُكِرَتْ؟
بل سرحت ذاكرتي، وذهبتُ بعيداً عندما ذكرتُ وتذكرتُ، عندها راح خيالي الذهني، بتجربة إختبار لمعدل مقدرته المتبقية في داخل دائرة التخزين العقلية، والسبب في ذلك، بأنني ما قصدت يوماً نشر تدوين ما يجول بخاطري من ذكريات أحبها، أحمل الكثير منها في ذاكرتي، وقليلٌ منها في قصاصاتٍ من الورق، كلما رُحتُ بنسخِ المكتوبِ فيها، تجمحُ بي نفسي، وتَجُرُّ عقالي، فأنصاعُ مسترسلاً، بل وكيف لي أن أدخل الحرم العلمي، أول خطوة لي في الألف ميل! وهل يحق لي أن لا أتجوَّل في رحابِهِ.
عن الشريف الرضي:

تُذكرُني ما حَالتِ الأرضُ دونَهُ   ألا إنَّما سَوَّلْتَ للدمعِ أن يجري

وبالعودة إلى الكهرباء، بعد عام 1960، بدأت أبراج عواميد الكهرباء تناطح السماء، وتغيرت الشبكات في المنازل، و تواجدت الكهرباء طيلة الليل والنهار، وذلك بفضلٍ من الله، والمشاريع العمرانية الحديثة للبنية التحية في جميع أرجاء لبنان، كان ذلك في عهد الرئيس "الغْرِيبْ" اللواء فؤاد شهاب.
وخلال فترة عملي الأولى في صندوق المجون، كان بادروس برطميان مسؤولاً عن قسم التليسينما. وذات يوم في خلال أستراحة، دخلنا بها معاً بالتذكر والتذكار، فسألني عما صار عليه خان سعيد نحلة.. تعجبت للسؤال! عندها أخبرني بأنه كان يذهب إلى النبطية صباح كل يوم جمعة من الأسبوع لعرض حفلتين، واحدة في الصباح للنساء والثانية بعد الظهر للرجال، عندما كان يعمل في مؤسسة اللبان السينمائية، وكان ذلك في أوائل الأربعينيات.. وبعدها أنشأ حسن بيطار أبو العبد، وأحمد السيد عباس بدر الدين، داراً للسينما فوق دكان معين جابر، وكانت تُعرف بأسم (سينما دنيا) و كانت تسمى سينما أبو أمين، الكراسي كانت من الخيزران،

والدخول إليها، كان القطعة النقدية وهي(الربع)، وقبل بدء العرض بقليل تصبح العشرة قروش سيدة الموقف. ولهذا السبب، كانت الوفود تصل متأخرة لمشاهدة العرض، وعندما يأخذ أبو أمين(غطَّة) يتعالى الصفير وعلى لسان الجميع كان الهتاف:(الصوت يا بو أمين).
ابن بلدة عيحا البقاعية في البقاع الغربي واسمه الحقيقي رشرش، يجوب الشوارع في الصباح هاتفاً ومعلناً و(مخشخشاً) بجرس صغير وصارخاً يقول: اليوم ولا كل يوم، الفيلم الكبير انتقام الغوريلا، أو طرزان في الأدغال، أو رابعة العدوية....... وغيره.
محمد علي حسين الصباح وأخوه حسين، كان لديهما شركة إنتاج سينماء واسمها (صباح أخوان للسينما) لاأدري إن كان معالي الأستاذ أنور والمهندس طلعت شركاء فيها! وفي أحد الأيام حضرت صباح ووديع الصافي لتصوير مشاهد لفيلم سينمائي في دارة محمد بك الفضل. ومرات عديدة أقيمت حفلات غنائية في فصل الصيف، على أرض ملعب مدرسة الراهبات الجديدة، وكان يحييها سميرة توفيق وفهد بلان ورندة مزهر(من مواليد النبطية هي وأخوها موريس) وكان صوتها ناعماً جداً، وخصوصاً عندما كانت تغني(بو علي يا بو علي بحبك أكثر من حالي).
أنشأ أولاد علي حسين (كما كان يطلق عليهم أهالي النبطية) دار سينما في النبطية، وكنيتها "سينما الكابيتول لأصحابها أولاد علي حسين"، وبقيت دور السينما حكراً لبيت الصباح الدليل على ذلك سينما ريفولي، وكانت تحت إشراف عادل الصباح، والحاكم بأمره في سينما الكابيتول كان عبد الله حمادي ابن المختار، الحاكم المتحكم بالتعرفة، صبحي بدرالدين في سينما ريفولي وبعده أبو شعلان.
أقفلت دور السينما في النبطية، وتعهدت المحطات الفضائية بتوزيع الثقافة إلى البيوت، وراحت الحفلات الغنائية والمسلسلات على أنواعها، وكثرت المحطات ونقاط التوزيع بالكابل و الالتقاط (ب الدش) من الأقمار الاصطناعية (قمت بتركيب أول لاقط ساتيليت في شوكين سنة 1988، ولربما كان الأول في لبنان (لاقط فردي ومنزلي) ومنه تم بث الدوري العالمي لكرة القدم على جميع الأراضي اللبنانية، لأن محطة العربانية التابعة للدولة كانت خارج الخدمة بسبب الحرب (أول محطة أرضية للبث والالتقاط من الأقمار الاصطناعية للتلفزة والإذاعة والإتصالات الهاتفية في لبنان كانت محطة العربانية، ومن أوائل المحطات في الشرق الأوسط تم تشغيلها في عام 1970، وأشرف على إدارتها رئيسي السابق ومدير الهندسة في شركة التلفزيون اللبنانية "الهرم العلمي" نقولا لطفي، وأول

محطة بث هوائي تلفزيوني في جنوب لبنان قمت بدراستها وتركيبها، كان عمود إرسالها بأرتفاع خمسين متر عن سطح تلة من تلال الجبل الأحمر، مابين شوكين وزبدين (أيار عام 1989).

كم أتمنى أن تعود دور السينما إلى ربوع الجنوب، لأن مشاهدة العرض السينمائي متعة ثقافية، لما أصبحت عليه صناعة السينما في هذا العصر الحديث، إن كان من ناحية الأخراج والمؤثرات الصوتية وضخامة الإنتاج! ولنترك المبتذل منها للمحطات الفضائية.

دور السينما تنقل مُشاهِدها الى عالم فيه كسرٌ للروتين، وتُقَدِّمُ الفكرة المتوخاة من الحوار والمَشَاهِد بتأثيرٍ يتجاوز تأثير التلفزيون، مهما تنوعت المواد في برامجه. التلفزيون يأتي إليك والسينما أنت تسعى إليها متحكماً بقدرة خيارك ولا فرضٌ عليك مكرهاً أو ملزماً، تستطيع السينما أن تجسِّد لك التاريخ والجغرافيا والأحداث، ولا تجوز المقاربة بين مشاهدة روائع إنتاج (مصطفى العقاد) في دار السينما، أو النظر إليها من خلال تلفاز داخل غرفة في البيت.

التركيز في محاولة فهم المغزى المقصود هو للسينما الراقية في مواضيعها، وما أفلام مصطفى العقاد (محمد رسول الله وعمر المختار) إلاّ الدليل على ذلك.... ولندع جانباً ولو لساعات، الإدمان في تناول سخافات "ستار أكاديمي" و"بُـوسْ الواوا"!.

وكما كان يقول بادروس بارطميان: (بابا حرام مصروف كهربه من شان شي هيك)، سيقول البعض ولربما الكثير: لدينا أمور مصيرية أهم، والأجدى بنا الاهتمام بها، ومعالجتها، أجيب وأقول نعم وألف نعم، ويجب علينا الاهتمام ومن كل النواحي، ونكون دائماً في تقاربٍ من معطيات العصر، فاللحاق بعد كثير من الابتعاد حتميته الفشل، وأن َنبعُد عن الهدر والاستهتار بما نحصل عليه بحقٍ أو بغيره، وأن نبتعد عن التكلم بالمحمول من غرفة إلى غرفة داخل المنزل الواحد، أو استعمال المحمول للتحدث، والمتحدثون متواجودون على طاولة واحدة!.

الصيد الثمين

تمور في مخيلتي، من حين إلى آخر، رَحلاتُ الصيد عند "أبو ممتاز" حسن كامل "الهمداني" الصباغ.
تحملني الذاكرة إلى النبطية، ويحط بي الرحال(محمولاً على بساط من الخيال) أمام دكان أبو ممتاز، في وسط الساحة العامة، بين متجر والد الدكتور نسيب بيطار وبين متجر الحاج أحمد الهمداني الصباغ.
متجر الحاج أحمد كان مركزاً تجارياً له مكانة عالية، وعصباً رئيسياً من عناصر الإقتصاد النبطاني، بما كان يحتويه من مواد التموين المتنوعة، من جبنة الكرافت الدانماركية الُمعلَّبة بعُلبٍ من التنك مستديرة الشكل، أو بصندوق خشبي صغير مستطيل الشكلِ، ينامُ بداخله كيلو من الجبنة الصفراء، ملفوفاً بلحافٍ من النايلون، إلى جانب أكياس الرز والسكر، وعلب السمن النباتي السائل من مصنوعات معامل غندور ومعامل جبر البيروتية، وعلب راحة الحلقوم الكرتونية المستوردة من معامل "البساط" في صيدا وعلى الأرفف تَصطفُّ علب"شاي الولد" الخشبية و"كروزات" علب كبريت"المدفع"، وقواطع التماسيح علب شفرات "الناسيت" لحلاقة الذقن، وأنابيب صابون الحلاقة ومعجون الأسنان من "جيليت" و"سينيال"
.
(كان متجر الحاج أحمد كمتاجر عديدة تتشابه فيما بينها، لما تحتويه، ولكنها لا تتشابه بالفحوى، "ومنها محلات رشيد نصار و محلات حسين حجازي، ومغارة علي بابا لصاحبها شيخ بندر التجار أمين قميحة، وشعارها "لدينا كل ما تطلبه من البابوج حتى الطربوش، أطلب وتمنى فجميع طلباتك متوفرة وبوفرة" وتجد فيها الكثيرمن أصناف الحبوب والمعلّبات، والمعجنات من معكرونة وشعيرية وحلاوة طحينية، والدبس والطحينة، والمكسرات من لوز وجوز وصنوبر، بما فيها الفستق والمعمول ومستلزمات الخياطة وعدة النجارة وأدوات الحدادة، ولوازم الحلاقين وأكياس الورق للف بضاعة الدكاكين، ومغلّفات الرسائل وكل ما يطلبه السائل، من عاشق ومعشوق وإبر"الميبر" والطناجر والصحون، وصواني الألمنيوم والقصدير وتوابع لوازم السنكرية وفيها "الحنتيت والمنتيت" وحجر "الشَّبْة" والقفل ومفتاحه والبخور على أنواعه، وجميع لوازم السحروالسحرة،"المَسْوة" والعلك الشامي، وجميع أنواع "القضامي"

والِنشا، وقزايز السراجات، ولوازم الكندرجية والبويجية من فراش وكماشات، وأقلام التلوين واللوح الحَجار و ماكنة لنسخ الفوتو كوبي).
متجر الحاج أحمد، كان له نكهة أخرى، وله قيمة مضافة يمتاز بها عن غيره ، ويُزادُ إليها إضافاتٌ أخرى، شخصية الحاج أحمد الدبلوماسية البروتوكلية، ولباقة حديثه ورهافة الحس لديه واللطافة، وصِفاتٌ طيبةُ عديدة، كان يشاطر الحاج أحمد فيها الكثير من تجار النبطية، القيمة المضافة الخاصة بمتجر الحاج أحمد كانت تتصدر مدخل الدكان، وتُعطِيهِ الصِفَةَ الرسميةَ، والشاهدُ على ذلك اللوحة المعلقة في زاوية المدخل، المكتوبِ عليها (غرفة الهاتف للعموم).
وفي زاوية من زوايا مدخل المتجر، لناحية فرن الحاج عبود بيطار، ومن خلف مكتب خشبي، ومن على كرسي من الخشب له مسندٌ للظهر، دائري، كان الحاج أحمد يُديرٌ شؤون متجره الأميري بكبين التلفون وحصرية بيع الطوابع الأميرية.
الكابين له ثلاثة واجهات زجاجية داخل إطار من الخشب بني اللون، والناحية الرابعة ملاصقة لحائط الدكان.
بمواجهة مكتب الحاج أحمد وفي وسط الكابين كان الهاتف للعموم، المصنوع من الباكليت الأسود السميك ومن على جانبيه، تتدلى السّماعة التي تلصق بالأذن، ومن طرف آخر يتدلى المذياع الذي يلتقط صوتَ المتحدث (والرذاذ المتطاير من ريقه).
وعلى طاولة مكتب الحاج أحمد، هاتفٌ آخر يشبه "خف الجمل"، من رأسه تتدلى السّماعة بشريطها المجدول، جسم خف الجمل له مسكة صغيرة يتم برمها باليد للتعليم لمركز السنترال، المذياع له شريط مجدول متصل بجسم الهاتف، وكان يعتلي عموداً قصيراً، مُثَبتٌ على قاعدة مستديرة من الباكليت الأسود، كان يشبه مذياع إذاعة "هنا برلين".. ففي دكان الحاج أحمد تَركَ مخترعُ التلفون "غراهام بل" أدواتَ تجارُبِهِ الأولى.
بين متحف غراهام بل، ومحل محمد عباس بيطار وأهرامات الشنط الكرتونية منها والجلدية (من بلاستك السكاي الناعم الممتاز) والبيارق المتدلية من السقف، شراشف التخوت والطاولات وحرامات الصوف بألوانها الزاهية، والشراشف الشامية القطنية بلونيها الأزرق والزهر، يقع "المول" دكان حسن كامل الهمداني الصباغ، أبوممتاز، شقيق الحاج أحمد،("المول" مركز فيه تجمعات محلات متنوعة النشاطات التجارية).
"المول" كان متنوع وجهات الاستثمار، في مدخل الدكان كان المكتب، وفيه وعليه وحوله ملفات القضايا والمراجعات والسندات العقارية، يقابله

خزانة عالية، في قسمها الأعلى الزجاجي، تُعْرضُ أسحلة الصيد المختلفة من الجفوت ومنها "السبربوزي " "والمتجاور" بفوهاته، وبواريد الخلع من قياسات مختلفة ، وموديلات متعددة، وتحت خزانة العرض المقفلة دائماً، (ولا تُفتَحُ أبوابها في غياب أبو ممتاز عن المحل، لأنه الوحيد، الذي كان لديه المفتاح، وكان فيها أصابع الديناميت لزوم المقالع الصخرية).
تحت الخزانة كانت هنالك رفوف، تتوزع عليها علب الخرطوش ومراطبين زجاجية فيها الخردق، والكبسون، والبارود الأصفر، وتتدلى من مسامير دقت بهذه الرفوف، فراشي "القشق"، وتحتها كانت خزانة المفرقعات.
المول كان كبير المساحة، خلف الدكان ومن فتحة باب عريض أمامه درجات ثلاث، كانت مستودعات أكياس الزعتر والقمح والعدس والحمص وغيرها من الحبوب التي يقتات منها بنو البشر، وإلى جانبها "خيشات" التبن و أكياس الكرسنة وبزر القطن والشعير، وجميع أنواع العلف للبهائم والحمير.
وفي طرف المستودع وتحت الدرج المؤدي إلى عيادة ومعهد طب الأسنان بإشراف الدكتور محمد صباح أبو أدهم (تَخرَّجت دفعات كثيرة من هذه الكلية ومنهم، أبراهيم الحاج حبيب بيطار، وعمل بعدها في دولة الكويت، و"الدكتور" حيدر بيطار، وكانت مختبراته في حي الميدان قرب بيت علي حسين صباح ، و"الدكتور" ابراهيم كحيل).
تحت الدرج المذكور المتاخم لفرن علي الطحطح، كان هنالك باب صغير، من خلاله يتم الدخول إلى خلف المستودع، وفي ناحيته معقل كتيبة الأنياب الوديعة و مقر إقامة أفرادها الأشاوس من الكلاب السلوقية المؤصَّلة، والمُدرَّبة و المُطِيعة والمُدلَّلة، وأعْيُنِ المُوكَّلينَ بها على ذلك ساهرة، الماء والطعام، والعناية الفائقة مستمرة ودائمة.
يصل أبو ممتاز إلى دكانه ومكتبه وياخور كلابه، في صباح كل يوم، يُلقي نظرةً على دفتر مواعيده، ثم خزانة الأسلحة وبعدها المستودع، وكلما اقترب من الياخور يتعالى النُباحُ والعِواءُ، من داخله، لأن الكلاب في عجلة من أمرها لمعرفةِ ما هي عليه حالة هندامه ولباسه! إن كان اللباس الرسمي تحوَّل العِواءُ إلى نحيبٍ و همهمة ملؤها الخيبة والحزن، فاليوم يوم محكمة وعمل.
وإن كان اللباس، وفي الرجلين الجزمة، وسترة الصيد تعتمر القميص والصدر، والجربندية معلقة بالكتف، راحت الكلاب تتمايل رقصاً بلهفة إليه.

(فَرِحْت به، رَقَصتْ على قَدَمِهِ، اليومَ عاد، وكأن شيئاً لم يكن، و نَسِيتْ حِقدَها كله.. من قال بأنها حاقِدةٌ عليه)- معذرة من الكبير الكبير نزار قباني".
في النبطية كان هنالك الكثيرون ممن كانت هواية الصيد عندهم" أمراً مهماً "، وعلى سبيل المثال لا الحصر أذكر منهم أبو رضا وأخوه رشيد رضا، الأستاذ أحمد فخرالدين الذي كان ماهراً في صيد طائر الفري، وقليل الحظ في صيد السُمُنْ، أما أبو صافي كمال بدرالدين شقيق نائب حاكم البنك المركزي الأسبق الدكتور عبد الأمير، وياسر وعماد والدكتور محمد، و(المأسوف على شبابه السيد حسين).
أبو صافي كان ماهراً بصيد السُمُنْ "خَسِعاً بصيد الفري" كما كان يقول عنه غريمه المنافس.
وكان صديقي وزميلي في الدراسة ومنذ الصفوف الإبتدائية الدكتور محمد الحسيني مولعاً بالصيد منذ الصغر، وكان يقوم بنفسه تصنيع دباشك أسلحته، و"مكنسما" بواريده، وحتى مواسير مدافعها، وديوك الكبسون لها، محمد الحسيني كان والده الفاضل ممن خدموا في النبطية وطاب لهم فيها المقام وكان موظفاً في إدارة حصر التبغ والتنباك، فتحياتي للدكتور محمد ولحضرة القاضي الجليل أخيه عبد اللطيف الحسيني عضو مجلس القضاء الأعلى، وإلى أخيهم حمزة.. كان منزل آل الحسيني في بناية حسن كامل الهمداني، وفي شقة مجاورة لمنزله، فهل أنتقلت هواية الصيد من أبو ممتاز إلى محمد بالعدوى!.

لست أدري، أهو من حسن حظي، أو لسوء طالعي، تَمّتْ إعارتي للعمل في إمارة أبو ظبي! دعوةٌ كانت، مفعمةٌ بالإرهاق المضني، لربما لقسوة المناخ، أو من المباغتة الملحّة لمتطلبات العمل، حيث كان الشعار "نَـفِّذْ ثم لا تعترض"، الإعلام وتوابعه (وخصوصاً في دول العالم الثالث)، الرسمي منه والخاص، ما هو إلاَّ أبواق للدعاية لما قام به دام ظله الحاكم والقائد.
رجال الإعلام هم من النخبة (التبّيعة) المتتبعة والمفبركة لنظريات وبطولات لا علم للحاكم بها ولا السلطان؛ ورغم ذلك تُنْسبُ إليه وحده بواكير نجاحاتها....
خدمت في أبو ظبي وكنت من طاقم الإعلام، ولكن في المجال التقني لا دور لي في صناعة الخبر وتركيبته، بل كنت ممن يقوم على تأمين الوسائل الفنية الضرورية لتوصيله دون التأثير بفحواه، وممن يسهر ليلاً ونهاراً، ساعياً في تجهيز معدات وتوصيلات تقنية لحفلةِ أنسٍ وسمرٍ

وغناء، تُبَثُ عبر الأثير، لتوصل هدفها الترفيهي المُعلَنِ وغيره، كنت فيها أستسخفُ نفسي، لأنني كنت مسخراً قدرتي وقدراتي المتواضعة بالعمل، لإنجاح ما كان يقول عنه بادروس برطميان (بابا حرام مصروف كهربه منشان شي مثل هيك).
خلال فترة مساري المهني ولا أقول مسيرتي، لأنني كنت ممن يجب عليه أن يَضْرُبَ بسيفِ السلطان، لأنه يأكلُ من خبزه .
هكذا كنتُ، ولكن شواذ القاعدة كان ليلة العيد الأول لإعلان دولة الإمارات العربية المتحدة في اليوم الثاني من شهر كانون الأول" ديسمبر " من عام 1971.
عندما امتدت يدي لمصافحة كوكب الشرق السيدة أم كلثوم بعد الوصلة الأولى من حفلة أحْيَتْها في هذه المناسبة، وخلال فترة إستراحتها بعد الوصلة الأولى أستُدعِيتُ و بناءً على طلبها، وتقديراً منها لما قمت به من جهد خاص في المساهمة، ومع غيري من فريق العمل، لتوفير ما يلزم لنجاح الحفلة من الناحية الفنية، ونال رضاها .
مددت يدي مصافحاً يدَها، وقبضتُ باليدِ الأخرى مُطبِقاً على يَدِهَا بعد أن قالت:
"آه مِنَّك يا لبناني إنْتَ"!.
العقد الذي كان حول عنق سيدة الطرب، هو من اللؤلؤ الطبيعي الخليجي الصرف، هدية من الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة، وكان قد قام بتقديمه لها قبل مثولي في جناحها الخاص بدقائق قليلة.
ولقد بيع العقد من مدة قريبة بالمزاد العلني في صالة " كريستي اللندنية " وبمبلغ باهظ جداً.



الصيد الثمين

Sud nord

كان الأستاذ اسكندر أرقش مشهوراً بسرعةِ البديهة، وكانت لديه مقدرة فائقة في إيجادِ المصطلحات، واختصارِ الأسماء، بدلائل فيها سهولةُ الحِفظ و التَذْكُّر، وجعل من الرموز بدائل لما يَصعَب قوله.
هو يحترم الأستاذ سميح شاهين ويقَّدر له مكانته ومقامه، لاخوفاً منه ولا مهابة، بل لطالما سَمِعَ بألقابٍ عديدة، يُطلِقُها البعضُ من هنا وهناك، بل كانت تسميات علنية لاتُخفىَ على أحد، فصفّ" العجول" كان واضح المعالم والموقع، يتغير طلاب الصف من سنة دراسية إلى أخرى، وتبقى التسمية واللقب، محمولة على أكتاف الطلاب السابقين، وتُلصَقُ على جباه الوافدين الجدد.
أرقش لم يكن ضليعاً باللغة العربية، وكان على خلق وتربية عالية، شعارها الحشمة واحترام الغير، ولربما ما سَمِعَ يوماً بعبد الله بن المقفع، ولا بأصل ومصدر "كليلة ودمنة"، ولربما كان الفيلسوف الهندي "بيدبا" عنده مجهولاً، أو لم يكن موجود لا هو ولا دبشليم الملك.
تقمص التشبيه والتشابه الفكري من بيدبا إلى ابن المقفع ومنه إلى أرقش، الأسد كان الملك، والعجل كان من الرعية قد بلغَ من الكِبَرِ عِتياً.
فجاءت تسمية" الأسد" للملك الأستاذ سميح شاهين، من لدن من تتحكم بتفكيره الحكمة والأخلاق، لربما رميةٌ من غير رام، ولكن التسمية أواللقب كانت من أرقش، ولطالما كان أرقش يهدد كل أرعن منا (للتخويف فقط) عندما كان يقول:
" إذا زَعْبتَكْ لَبَرًا بِيكمْشَك الأسد "!
"إذا" الشَرطِيةْ، هي للتخويف من كمشة الأسد، وليست خوف أرقش من الأسد.
في السميحية كانت السلطة المركزية منوطة بالأسد، ولكن سلطة المراقبة كانت بالتكافل والتضامن بين الأستاذ أبو وديع رحَّال والأستاذ نور الدين بدر الدين، كما هي عليه الآن الحسابات المصرفية المشتركة (and or).
"أبو وديع" عنوان التواضع وعلو المكانة، التقدير والاحترام له كان من الجميع، وكان فخوراً بمناداته "بأبو وديع" الوداعة التي كان يتحلّى بها تفوق ايَّ صفة تضاف إلى المناداة أو التسمية، (أبو وديع هو ملحم رحال من مواليد بلدة عازور في قضاء جزين ، وكانت كنيته النبطانية "العازوري" وهو والد الأستاذ وديع رحال"العازوري أيضاً" وعم رفيق

الدرب، والطفولة، المهندس سمير رحال، وهو الوحيد من رفاقي في النبطية ، الذين تابعت معهم سوياً الدراسة في المرحلة التقنية).
المعضلة كانت في ملعب أرقش، وليس من قبل الأستاذ السيد نور الدين بدر الدين كانا زميلين على علاقة طيبة واحترام متبادل، والأستاذ أرقش بتربيته الرفيعة وتهذيبه المرهف، لم تسمح له نفسه بمناداة "الأستاذ السيد نور الدين بدر الدين" كما يناديه به الجميع من الأساتذة (ولربما بعض الطلاب أيضاً) " خَبطْ لَزقْ" السـيد نـور.
لم يسمح أرقش أن تَعْبُرَ هفوات هذه التسمية أذنيه، وذهب باحثاً مستفسراً، لماذا تم إختزال"الأستاذ السيد نور الدين بدرالدين" وصارت فقط "السيد نور" وعلى أي معادلة في رياضيات الجبر استندت؟
فالمسمى هو معلم في هذه المدرسة، ولقب الأستاذ حق معلوم، أما "السيد" وحسب مفهوم أرقش، لقب مناداة لكل رجل، وذلك من أصول المخاطبة والتهذيب، الرجل اسمه "نورالدين" وهو من عائلة" بدر الدين"، ولماذا ولأي سبب تم التلاعب بالدين وبدرالدين! توصل أرقش بعد البحث والتدقيق بأن آل بدر الدين من الأسياد السادة، ومن أصحاب الحق بالخمس شرعاً، فبدل أن يُعطى ويُزاد الرجل الجليل يُؤخذ منه. أين ميزان التعادل والمساواة، بل وكيف استقر توازن شعار العدالة والحق المشروع. رفض أرقش التسمية، وكي لايقال عنه، إنه المخالف الوحيد المعترض، أي شواذ القاعدة، راح بالتفكير ليُعطيِ زميله وصديقه، حقه الشرعي بالتسمية، ولكن بأبعادٍ تفوق ذلك، وجعل من التسمية رمزاً يليق بالمسمى، ولكن من خلال مفهوم خاص به، ينال رضاه علمياً، وله نفسه النطق الكلامي، وباللهجة المحلية النبطانية، فقَبِلَ بالتسمية ولكن في إطارٍ ما يرمز هو إليه، وقُضِيَ الأمر "بحَبْكةٍ" من "حَبكَاتِه" الأرقشية. (sud nord شمال جنوب)
كما تكون عليه البوصلة، لتحديد طريق الهدف الصحيح، والسير بالإتجاه الصائب. زيارة اليوم ستكون في رحاب السيد نور، أمير الأدب الفكاهي العاملي.
وحصراً، لن تتخطى حدود النبطية، فالبحر واسع وعميق وأنا لا أتقن فن العوم، لذا سأبقى في جوار من أحببت، لأحتمي في ظلاله، كما كنت أفعل في طفولتي.

الأدب العاملي، كما قال فيه وعنه الأمير شكيب أرسلان، في مجلة "العرفان" العدد 14 من عام1945 :

(لم أجد أصدق من قريض أبناء جبل عامل صورة للشعر العربي الصميم، ولا أخلص منه عرقاً في نسب اللغة التي امتازت بها سعد وثقيف و سفلى هوازن وعلياء تميم، ولقد أراني أشرب ولا أرتوي حتى إذا وقعت في يدي بعض قصائد العامليّين شبعت كبدي ريًا وامتلأ دماغي بياناً عبقرياً، نعم هو الشعر الذي ينبغي إن يبقى في العرب مرفوعاً شعاره، مضيئاً مناره، زاهراً نوَّاره، مهتزة أوتاره، حتى لا تتنكر اللغة على أهلها ولا يختلط هجينها بفيقها ونكسها بفحلها).

السيد نور، أعجزُ أن أصفه بوصفٍ أو صفة، بل سأتركه لنفسه، حيث قال في رسالة وجهها إلى الشيخ علي مروة:

" ترغب إليَّ في أن أزودك بشيءٍ من شعري الفكاهي لإثباته في مؤلف تنوي جمعه، وقبل إجابة مطلبك أودُّ أن أطلعك على الناحية الشعرية الخاصة التي يعرفني بها المقرَّبون فقط، وهي الشعر القصصي المنطلق من كل قيد، المصور لحوادث غرامية واقعية أو خياليَّة، دون تحفظ أو إلتزام بقيود العرف والعادة، أو إن شئتم بالآداب العامة، بل انطلاقاً في القول على السجيَّة من غير تورع عن تسمية الأشياء بأسمائها...ولئن كانت (ليلى بعلبكي) قد بعثت بسفينتها إلى القمر في الآونة الأخيرة، فلقد أطلقت سفينتي إلى المريخ قبل ولادة ليلى بزمن طويل، ولئن كان من غير المستساغ الآن نشر هذه الآثار أو تلاوتها في المجتمعات العامة فمن يدري! فلربما يجيء زمن يكون فيه الجهر به مألوفاً عادياً، كما كان أيام عمر بن أبي ربيعة وبشار وأبي نواس و الجاحظ وسواهم ممن سلكوا هذه الطريقة، ومن الذين كانوا يطلّعون على شعري أستاذنا الشيخ علي الزين "رئيس عصبة الأدب العاملي" يومئذٍ، وقد أطلق عليَّ لقب (عمر بن أبي ربيعة). والإنسان مهما يكن قوياً وعاقلاً فإنه يستضعف حتى ويستسخف أمام الإطراء، ويُصَدِقُ كل ما يقال فيه، وهذا ما أصابني فقد خدعت بأقوال الشيخ علي، وأعتقدت أني أصبحت عمر بن أبي ربيعة الحديث، ولم أتورع عن التلميح إلى هذا..........

أولاً تسمية ولدي خَطَّاب، وثانياً في قصائدي المشار إليها والتي سأقدم لك ما احتشم منها وهي لا تخلو من عنصري اللطافة والفكاهة اللذين سيتميَّز بهما مؤلفكم العتيد، آملاً أن تحوز على رضاكم مع ما أشفعها به من شعر المناسبات الفكاهي.

أماَّ شعر المراسلة فأكثره مثبت في مجموعة السيد جعفر الأمين، وهي عندكم الآن وبإستطاعتكم إختيار ما يرق لكم منها.

الداعي نور الدين بدر الدين

لن أزيد حرفاً على هذا (الأوتو وصف) ولكنني سأردد ما قاله السيد جعفر:

إليك (أبا الخطاب) ترجع بي الذكرى وتبعث بالأطياف حالمة سكرى
تعود الى ماضٍ حبيب حببته وأخوةِ صِدقٍ عشتُ بينهم دهرا
فكانوا لآلامي المريرة بلسماً وفي أُفق عيشي أَطلعوا أنجماً زهرا
سراةٌ عُفاةٌ كلٌهم أريحيةٌ بطيبهم فاضت ديارهمُ سحرا
نسيتُ لديهم كلَّ حيفٍ لقيته وأنقذتُ نفسي من جهنميَ الحمرا
وصرتُ أُحسُّ القلب يعمرُ بالرضا و أنَّ نواحي النفس قد مُلئت بُشرا
فروحٌ وريحانٌ وصحبةُ ماجد وألوانُ فن لا أُطيق لها حصرا
بها خصّني ربي فأسرى بعبده إلى دار نعماه تبارك من أسرى
وبورك مسريّاً به دون غيره ليبدل بالإعسا من عيشه يسرى

السيد جعفر الأمين كان مدرساً وزميلاً للسيد نور، تنقل السيد جعفر من بلد إلى بلد بحكم وظيفته، ووصل إلى حلبا في عكار، وكثير من قرى جبل عامل، وأقام فترة لا يستهان بها في ربوع النبطية، وكانت تربطه صداقة متينة مع السيد نور.
السيد جعفر هو من أهالي بلدة شقرا، وكان ناقماً على الأوضاع القائمة دائماً وأبداً (مقريف).
ولكنَّ ذلك لم يمنعه أو يحجبه عن المواقف المرحة ومجالسها، وله صولات شعرية، وفيها الفكاهة والدعابة والنقد والهجاء، ووصلت به الحال إلى أن يهجو نفسه:

حياتي كلُها شؤمٍ بشؤمٍ وحظي حظُ خفَّاش وبومِ
استعضت عن الجمال بقبح وجهٍ وبالتنعابِ عن صوت رخيم
وباليأس المميت عن الأماني وعن طيبِ البشاشةِ بالوجوم
إذا طلع النهار يطير قلبي ويسكن في حمى الليل البهيم
فليس بخادعي لألاءُ فَجْرٍ إ ذا ما لاح عن جرحٍ أليم
فإنَّ الله لمَّا أنْ براني تصوَّر شكلَ شيطانٍ رجيم
وما طبعي الذمامة غير أنّي بليت بكلِ مكروه ذميم

القواسم المشتركة بين السيد نور والسيد جعفر كانت كثيرة، و منها لعنة التنقل من مدرسة إلى مدرسة ومن قرية إلى قرية، بحسب مزاج المسؤولين عن وزارة التربية، وفي كثير من المرات كان نقلهم (ردة فعل للتربية).

كان السيد نور في مدرسة (الزرارية) والسيد جعفر في مدرسة (كفرصير) رغب السيد نور بالذهاب مع تلاميذه الى القاسمية في زيارة للمشتل الزراعي، وتم الاتفاق على أن يأتي السيد جعفر مع تلاميذه من كفر صير إلى الزرارية، وينتقل الموكب مجتمعاً نحو القاسمية، حدث مانع للسيد جعفر فتخلف، وبقي السيد نور طيلة النهار بانتظاره، بعدها أرسل له السيد نور العتاب التالي:

لمَ لمْ تَفِ فيما وعدتَ وتحضرُ ... وتحيد عن سنن الريا يا جعفرُ
هل خفتَ من حَرِ الهجير و لفحِه ... حتى أنثنيتَ عن الوفا يا أسمرُ
أم هل خشيتَ على التلامذة العنا ... فمضيتَ في سوء المصير تُفكّرُ
فاركب ودَعْهم يركضوا بركابِكم ... (ولإجرِكمْ) إن شوّبوا أو هوجروا
فقد انتظرتُك للغروبِ و قد وهى ... جَلَدي ولم أبرح لنحوك أنظرُ
حتى إذا هجم الظلامُ رجعتُ من ... غيظي أثور ومن صَنيعي أسخرُ
أرثي عشاءً قمتُ في تحضيره ... أبناءُ (شقرا) مثله لم ينظروا
لو كنت تعلم بالزغاليل التي ... طُبختْ ومنها أبيض و محمّرُ
لأ تيت في عجل وذبت تحرقاً ... لمّا ترقرقَ في الكؤوس الأحمرُ
وكذا الرفاقُ قد استعدّوا للعشا ... متأمَلين بجيشكم أن تحضروا
فقراؤهم طبخوا الطعام مشكّلاً ... وبذلك اليوم السعيد تبهوَروا
وإذا الزبائن قادمون و كلّهم ... بلقا طلائع جعفر مستبشرُ
حتى إذا انقطع الرجاءُ ولم يَعُدْ ... أملٌ لهم بمجيئكم فتقهقروا
قالوا تُرى ذاك المعلِّمُ كاذباً ... في وعده أم أنه مُتَكبِّر
ولقد هجوتُك دون خوف ساخطاً ... وحكمت بالإجماع أنك (أزعر)

كان رد السيد جعفر سريعاً:

ماكنت كذَّاباً ولا أنا (أزعر) ... تنفي الحقيقةُ ما تقولُ و تُنكرُ
تأبى ليَ السوآتِ نفسٌ عَفَّةٌ ... وسريرة بيضا وقلبٌ أطهرُ
لو كان يدري الناسُ بعضَ فضائلي ... لغدوتُ أرقى عندهم و أُبخَّرُ
و لو أنني قد عشتُ في زمنٍ مضا ... صلُّوا عليَّ مع النبيِّ و كبَّروا
أتقول عني أزعر و مشَقِّط ... مهما جريت فعن لحاقك أقْصرُ
إن كنتُ نورياً فإنك أنور ... أو كنتُ طبالاً فأنت مزمرُ
أنا أدري لم غاضبتني و هجوتَني ... وعلامَ أنت محرحَر و مزنطَرُ
أتروح تَفخَر بالعشاء و تدَّعي ... كرماً وأنت كما يقالُ مخوّرُ
لكنما وهناً يتعتع مقولي ... حظٌّ (الحقي) بذي الحياة (مُعثَّرُ)

لو أنَّ عنتر مثل حظي حظّه قسماً لما قهر الفوارسَ عنترُ
ولما جنى من ثغرِ عبلة قبلةً ولما انجلى عن (إليتيها) مئزَرُ
فإذا ابتليت بأزعرٍ خلع الحيا فالدهر قبلك (يا معَرَّصُ أزعرُ)

مقتطفات من المساجلات وماهي إلاَّ بعض من (المقبلات)

السيد جعفر :

حكم نِعالك في رقاب الحُسَّد حيث التقيت بهم ولا تتردَّد
نازلهُمُ لا تخشى فعلِ نعالِهم إن قاوموك وفي المُنازلة أصمُدِ

السيد نور:

لانعل نصفع فيه وجه المعتدي إمَّا عدا و نردُّ كيد الحُسَّدِ
ما حيلتي مع مَن يروم لي الأذى ومن الذي استخلصته فرغت يدي

السيد جعفر:

في القلب من ذكرى الأحبة نار ما جنَّ ليل أو أطلَّ نهارُ
تمضي بي الأيام وهي مقيمة ويشفُّني الإعياء وهي أوار
قدسيَّة ما شاب زيت سراجها مَينٌ ولم يسقط عليه غبار

السيد نور:

لا الناي يُشجيني ولا المزمارُ أو يستبيني صبوةٌ و عُقار
ذهب الزمان بجدتي وتعادلت في ناظريَّ الأصباح و الأسحار
لا تزدهيني من دناي مباهج تهفو لها من دوني الأبصار
بلد كهذي هل يحق لأهلها أم تستطيب مناخها الأحرار
كذب و تدليس و سوء أمانة وهم على صِغَرِ النفوس كبار
لا شيخها يُرجى صلاحٌ عنده وكذلك الناطور و المختار
فأدر لها ظهراً ولا تحفل بها فلأنتم الصَّلاح و الأطهار
وارتع بشقرا حيث تزدهر الربى و السائمات حليبها مدرار
فعلى (مزابلكم) يطيب الملتقى ويَلذُّ بين كرومكم مشوار

السيد جعفر:

لا تـأملــن بتبديــل و تـغيـــر   فلـن تبــدل في مجـرى المقـاديـر
وكيف تأمل في إنهاض من خُلقوا   مجـوَّفيـن خلـوا من كـل تفكـيـر
عُـدّوا على الناس نـاسـاً إنما لهـم   (جسـم البغـال وأحـلام العصافيـر)

(نتفة) من غزليات السيد نور:

سـلام أرق مـن الـنـرجـس   نُهديـه مـع بائعـة التـرمـس
عيـونهـا أذكـت بصـدري الهوى   فيـا لفعــل الأعيــنُ النُعَّـس
جلستُ أبغـي الوحي من بؤسهـا   ورحـت من آماقهـا أحتسـي
وضعتُ هذا الشعر ذكراً لمن   عسـاه ذكـرَ الـوَّد لا ينتـسِ

وفي حلف زفاف صديقه إبراهيم فران (أبو تمام) أنشد السيد نور وقال:

يحلـو بذكـر الغانيـات عـذابـي   وبهنَّ يصفو مطعمي و شـرابي
مهما لقيـت لأجلهـنَّ من العنـا   وحملتُ من هـمٍّ ومن أوصـاب
ما مـرَّ يوماً ذكرهـن بخاطـري   إلاّ وسـال لـذكـرهـنَّ لُـعـابـي
إني نـذرتُ لهنَّ ما ملكت يـدي   وجعلـتُ وقفـاً صحتي و شبابـي
ولئن بخلت على الأنام بِدرْهِـمٍ   فلهـنَّ ما في الجيـب دون حساب
وإذا خوى جيبي وجئن بمطلبٍ   لرهنت قصــدَ رضائهنّ ثيابـي
إذ لا أُطيق لهنَّ ردَ مقــرَّرٍ   فكلامهـنَّ مع الكتــاب كتـابـي
عمر تقضّى في العزوبة قاحلاً   ما بين حــب كــاذب و تصـابي
ما زلـت في بيدائه متنقـلاً   متفـرغـاً لمجانــة و دعـــاب
ومتى عرفت من الزواج نعيمَه   فأنقـل محاسنـه إلى العـــزاب

(ضحكت بفعلتها على ذقني) للسيد نور:

اعلـم أخـي إما تسـل عنــي   إنَّ السعــادة قد دنـت مني
في قربنا حسنـــاءُ ناهـدةٌ   هي بنـتُ خالتِها على ظنـي
حوريـة ببهـــاءِ طلعـهـا   هبطتْ علينا من سما الفــن
الـوردُ نـامٍ فــوقَ وجنتـهـا   و رُضابُها من خمـرة الــدَّنِ
وقعت بنفسي موقعـاً حسنــاً   و حــلا بعيـنـي خالُــها البني
فشرعت أخطر حول خيمتها   كالديك يخــطر خارج (الإنِ)
ولزمتها حتـى نمـا و سـرى   داءُ الهـوى بفؤادها اللـــدنِ

ونضت لثوب حيائـها غـدت   تُبدي التـودُّدَ إن تُحَــــدِثَنِ
أدركت أن الوقت حان و قـد   دان القطاف و آن أن أجنــي
بيناً أقول لها ارحمي كلفاً   أمسى بحبك شارداً ذهنــي
وإذا حريـمي بغـتـة ظهرت   فكأنهـــا من عالـم الجـنِّ
(وبعد الذي والتي أكمل السيد نور)
وهناك لمَّا أن بصرتُ بها   ودموعُـها كالعـارض الهتـنِ
قدمـت أعـذاري و قلـت لها   عفـــواً منـاي تأكــدي مني
ما عشت لا أهوى سواك ولا   نفسي تطيـب لهـــدم ما أبني
فاستأنست لنجاحــها و لقـد   ضحكـت بفعلتــها على ذقنـــي

كان السيد جعفر الأمين معلماً في أم المدارس، أراد السيد جعفر القيام برحلة مع طلابه إلى نبع الطاسة، طلب من كل طالب أن يأتيه بموافقة خطية من ولي أمره،
كان من بين طلاب الصف فؤاد عبدالله كحيل، كانت الموافقة من والده عبدالله
(وهو من أصحاب السيد جعفر)، شعراً قال فيها عبدالله كحيل :

إنَّ الرياضة فيها كل منفعــة   للبيض والسود والأقزام في الصغر
فيها النشاط وللأولاد صالحـة   لقد قبلنـــا بـــها يا (أقبح النَّــورِ)

وورد إلى السيد جعفر موافقة خطية مكتوبة شعراً من أبو شكيب رشيد حيدرجابر
(والد الطالب شكيب جابر) وكُتبَ الرد في عيادة الدكتور علي بدرالدين أبو سينا.
الدكتورعلي (ابن سينا النبطية) كان شاعراً وأديباً وخطيباً لامعاً، (وهو النائب اللبناني الوحيد في تاريخ لبنان الجديد والقديم الذي استقال من مجلس النواب معترضاً على وضع سياسي سائد، وقال: كرامة بلا نيابة خير من نيابة بلا كرامة).
كانت موافقة أبو شكيب:
أرى فرقـة الكشـاف للنـشء حافـزاً   لإدراك ما من شأنـه رفعـة الـراسِ
فــدع (سجداً) إيـاك تأتــي لأرضه   وحاصر مع الأولاد في نبعـة الطاسِ
رضيـنا بما قدمته من شروطـــها   فسافر على أسم الله يا (أجمل الناسِ)

عند وصول الرسالتين إلى السيد جعفر، كتب إلى عبدالله كحيل:

إن الرياضة فيها كل منفعـــــة كما ذكرت لأنثى النـاس و الذكــر
وفي الطواف لكشف الأرض فائدة لمـن يروم اطـلاعاً من بني البشـر
هذا لمن كان في يسر وفي سعـــة وكان (يلبـط) حيط البيـت من بطر
وضاق ذرعـاً بمال راح يكنُـزُهُ فيتلف المال بالترحـــال و السفــر
ومـا أظنـك تبغـي من موافقـــة على التنقـــل بيــن البـدو والحضر
شمُ الهـواءِ و كسب العلم أو أمـلاً بـرؤية (النجل) لايهتم بالخطـــر
لكنما خطـرت في البال خاطــــرة فذكـرتك بعيـش الأنـس و السمـر
وإذ يعـز على المحـروس رؤيتــه كما يـراه ذوو الأموال و الأســر
أردت تعليمه قتـل الزمـــان علـى طريقـة البــدو والأكـراد والنَّـــوَرِ
فتنشـد الشعـر إما ســار مرتحــلاً كما رووه قديماً عن(علي الأكري)
بالأمس كانواهنا واليوم قد رحلوا يا راهب الدير خلصني من الطفر

(وين كنا و وين صرنا) والسبب في ذلك، هو ما ورد في شعر السيد جعفر وذكره لعلي الأكري .

الرئيس محمد جابر كان من الأسكافيين المشهورين في النبطية والجوار. كان يَصنعُ الأحذية الجلدية الفاخرة، عند الطلب، وبحسب مقاس القدم لكل زبون، وكان يعمل عنده "علي الإيراني" وكنيته الأكري، السيد جعفر كان يحتذي من مصنوعات الرئيس وبما أن السعر غال، فالصيانة مستمرة، وخصوصاً للسيد جعفر حيث تتقاطع معتقداته السياسية مع الرئيس، ومحمد جابر كانت لديه ملامح شبه بلينين، وكان رفاقه في النضال يطلقون عليه لقب الرئيس.

(لأن صلعة الرأس عنده كانت نسخة طبق الأصل عن صلعة "لينين").

وعندما كان السيد جعفر، في موعد المعاينة والتفقد لنعليه، حضر إلى محل الرئيس، شاب من آل العجمي، وكان من أصل إيراني، كما كان عليه علي الأكري، حيث كان والداهما في حملة الميرزا الأولى الوافدة إلى النبطية، الشاب العجمي كانت لكنته الإيرانية واضحة المعالم، سأل الرئيس قائلاً : (علي الأكري موجود؟)، حبكت مع الرئيس وقال له : بالأمس كانوا هنا واليوم قد رحلوا.

مصانع الرئيس الحرفية كانت معهداً لتعليم صناعة الأحذية، وتخرّج منها عدد من أبناء النبطية، بعد التخرج أتقنوا وبشكل جيد ما تعلموه في محترف الرئيس صاحب العقيدة والشعارات، المهرة من الخريجين كانوا يصنعون الأحذية وعلى مستوى جيد من التقنية والحرفية، ومنهم حبيب

كحيل" أبو حازم " من حيث الجودة والمتانة، كانت المصنوعات، عند المساعدين القدامى كما هي عليه الآن صناعة الأدوية (الجنيريك) لها مواصفات التركيب والتصنيع نفسها، ولكنها صنعت خارج المعامل ذات الشهرة العالمية، ومن أشهر ما صُنعَ في محترف الرئيس هو حذاء "أبو معن" الشاب الوسيم المراهق الدائم المستديم، أبو معن حسن بيطار، كان شاعراً، ومن أشهر روائعه كانت قصائده الذاتية التي كان يمدح فيها نفسه بنفسه، أبو معن أنيق المظهر والملبس والرِكاب، صيفاً شتاءً كانت بزَّته "الدوبيتو" البيضاء لا تفارق جسده، وخصوصاً في تلبية دعوات المعجبات والمتيمات، ولطالما كانت هذه الدعوات المفتعلة موجهة إليه بالبريد ويتسلمها بيده، حفاظاً على السرية التامة.

قبل أبو معن، كان قيس وليلى وجميل بثينة، والنسخة الأجنبية روميو وجوليت وبعدها، أبو معن وفدوى، ومواعيد اللقاء لاتكون إلاَّ في المساء، ولتلبية الموعد كان أبو معن يرتدي طقمه الأبيض منتعلاً حذاءه الأبيض أيضاً ومن صنع محترف الرئيس، معتلياً صهوة مهرته، متجهاً نحو(حاووز الماء) خزان مياه نبع الطاسة عند مشارف كفررمان، وهناك يكون مقر الموعد الموعود بلا وعد، في رحلة الذهاب يكون أبو معن شديد التكتم عن وجهة توجهه، ولكنه كان يجيب في العودة قائلاً: (الخير لقدام والله يتمم على خير)

بو معن يا غاية أملنا
بـدربك ميـّل عا جبلنا
مهرتك تســرح بوادينا
بالشورة تلّــوح أيادينا

(الشورة هي المنديل الحريري الصغير، والمهرة هي أنثى الخيل الفتية وكانت عنوان الشهامة لمن يمتطيها)

مات أحمد شوقي وشغرت بموته إمارة الشعر، وعلى الفور اجتمعت عصبة الشعر في النبطية، وفي جلسة طارئة و بكامل أعضائها، السيد نور و جعفر، تمت مبايعة أبو معن أميراً للشعر

أبا معـن لقد أصبحـت فخـراً — لأهل الشعر في المعمور أجمـع
فمــا من بلـــدة فـي الأرض إلاَّ — ونجمك في سمــاها بات يسطـع
من البحرالمحيط بـأرض صـور — إلى الجبل المقيم عليــه يوشــــع
لأنــك أشعر الشعــرا جميعـــاً — وأكــرمُ من فتى عبسٍ و أشجـع
وخصـَّـك فـوق ذلك ربُ موسى — بحسنٍ نلتــه مذ كنــت ترضـع
فصـرتَ حديـثَ ألسِنَـة العذارى — اذا ما راح يجمعُهُـنَّ مخـــدع

وإن يومــاً رأينَاكَ في طــريق تكـاد ظهورهــنَّ لذاك تخلــع
وتجمـد أعيــن و يسيـلُ ريـــقٌ ويخفق نابضٌ ضمتـه أضلــع
وأنت بهـنَّ لا تُبـــدي اعتنـــاءً كأن أختَ الغزال لديك ضفـدع
ولكن قد شُغِلْـتَ عن الغـوانـي بنظم قصيـدة وبضـرب مدفــع*
إلى أن صرت أشعر من جريـر ومن سبعِ الغـلاة غدوت أشجـع
فكنت كحصرم في عين خصـم وفي ظهرِ الحـسود شكلت إصبع
ونلت إمارة الشعــراء طُــرّاً وصـرتَ لهم مدى الأيام مرجـع

كم كنت أتمنى أن أكون رساماً، وليس إلاَّ لرسم لوحاتك بألوان زاهية أيتهاالحبيبة، ولكن المعذرة، فأنا أحاول قدر استطاعتي: (الرسم بالكلمات)

* (أبو معن بيطار كان يقوم بضرب مدفع الإفطار في شهر رمضان، قبل المارشال كالوت)

حلم أم هذيان

قمت بزيارة خاطفة إلى النبطية، في منتصف عام 2004، (بعد غياب طالت مدته)، النبطية قد تغيرت معالمها، فوجدت نفسي غريباً، حتى بين أهلي وخلاّني.
همت على وجهي في حاراتها وأزقتها، أدهشني صمودها، وصبر أهاليها وقاطنيها، والنهضة العمرانية فيها، خلال تجوالي، رحت أسمع العتاب من حجارتها القديمة، عتباً متبوعاً بتهمةِ نُكرانِ الجميل، والملامة، انهمرت دموعي مبدياً أسفي، متقدماً باعتذاري، خذلتني. فلا قَبلتْ عذري ولا أصْغَت لمعذرتي.
دخل الحزن إلى صدري، راح ضميري يوبّخني، يقرّعني لإهمالي، طلبت منها السماح بفترة لجوء قصيرة، تبسمت وقالت: من يحب لا يكره.
إلى أن جاء عصر يوم السبت، رتلٌ من السيارات، لايفصل الواحدة منها عن الأخرى سوى مسافة قصيرة، حبيبات مسبحة، وذلك على خطين ذهاباً وإياباً، من أمام مستديرة دار المعلمين، مروراً بالساحة العامة، حتى مفرق كفررمان، و كل سيارة من سيارات الموكب، لا يوجد بداخلها أكثر من نفرين أو ثلاثة من ذكور وإناث، ما زاد دهشتي، أصوات مكبرات الصوت من داخل سيارات الموكب والوضع الذي كان يتخذه السائق أو السائقة، الكتف اليسرى تلامس من الداخل باب السيارة، كوع الذراع مسنودة على فتحة النافذة وجزء من أصابع اليد على المقود أما اليد اليمنى حاملة للمحمول، الملتصق بأُذنِ السائق ذكراً كان أم الأنثى، أنا من الرعيل القديم، ولست من حرسه، فمنذ القدم كان التوصيف للسائق المتفذلك:
الجلسة داخل السيارة يقال عنها (الوريبو)
والقيادة بيد واحدة كانت (الفنطزة)
وكله على بعضه هي (البهورة)
التقيت يومها لست أدري! إن كان حسن أو أخاه التوأم حسين الصباح، و لقد تعرفت عليهما من فترة ليست ببعيدة، ولشدة الشبه بينهما لا أتمكن من التمييز بينهما.
حسن وأخوه حسين أبناء المرحوم محمود الصباح (الحلو) وعمهم الدكتورمحمد الصباح، وكنت على معرفة قديمة به عندما كان مفتش أول ممتاز في الأمن العام، ورئيس شعبة المراقبة في تلفزيون تلة الخياط.

(حسن وحسين الصباح مصا بيح علم ومعرفة سيكون لهما شأن قريب إن شاء الله)

استفسرت من حسن، لست أدري إن كان حسين، سائلاً ما الخطب أجاب (كزدورة السبت) بدعة جديدة يمارسها البعض من أهالي وسكان النبطية والجوار.

انتهت فترة اللجوء القصري، وفي رحلة العودة، كان الإحصاء:

فرضاً بأن عدد السيارات المشاركة في كزدورة السبت، وعلى الأقل كانوا مائتين سيارة، ونظراً لعجقة السير. الموتورات في دوران مستمر، والسيارات المشاركة من ذوات الأحصنة الكثيرة التي تستهلك كل سيارة منها تنكة بنزين بالساعة، مدة الكزدورة على الأقل ساعتان

200 سيارة ×2 ساعة ×1 تنكة بنزين =400 تنكة ، كان سعر الصفيحة الواحدة وقتها 23000 ليرة : 400×23000 =9.200.000 ليرة بنزين فقط.

كل سيارة على الأقل فيها محمول السائق، ومحمول المرافق، الاتصال الدائم خلال ما يعادل الساعتين في السيارة الواحدة على الأقل، تشريج الساعة (50000 ليرة)

200 هاتف ×50000 =10.000.000 ليرة(على الأقل).

9.200.000 +10.000.000 =19.200.000 ليرة (هاتف وبنزين سيارة بدون هلك وتلف، وتأمين وغيره)

في الشهر الواحد: 19.200.000 ×4 = 76.800.000

في السنة الواحدة :76.800.000 ×12 =921.600.000

لو استمر الحال لفترة تساوي مدة فترة ابتعادي عنها يصبح الهدر:

921.600.000 ×15 سنة =13.824.000.000 ليرة

(أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً، فإنَّ الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون)

لست أدري زيارتي الأخيرة للنبطية كانت:(حـلم أم هذيــان)!!.

وجدانيات

يا عالم الأسرار
تركتني لنفسي
على مفرق دروبٍ
حين منحتني الخْيَارِ
روحي ارتوت كآبةً
فمشيتها درباً بلا هونٍ
ولا وهن، عميقة االقرار
ما ارتويتُ، كما أدّعي
ولا توقّف بي المسار
لذت إلى ركني خاسئاً
متعب القلب، مُنهار
بيضاء رفعتها رايتي
رحماك ربي، وعفواً
حيث لاينفع اعتذار
أطوق لتوبة من لدنك
يا غفور يا.... جبّار

هل من مفر؟

ليس لي من قدري مفرٌ
مهما حاولتُ الهروب
أفرُّ أكرُّ وأبقى ماثلاً
منتظراً وقت الغروب
لانفع من دنيا بلا تقوى
كما الأكفان من غير جيوب
خاتمة المطاف عسيرةٌ
أكتافي تحمل أثقال الذنوب
كيف ألقاكَ، ويا خجلي
يوم ينكشف الغطاء
وتظهر مني العيوب؟!
يا أرض ضمّيني إليك
ترابك سِتْري الواقي
بخطيئتي تعذبت نفسي
بلهفة خذيني إليك
دنو مفجوعٍ بافتراقِ
أما آن للصبرِ بعدها
أن يَختمَ البعد بالتلاقي

رباعيات التنهد

حي البياض كيف أنساك
طفولتي وريعان شبابي
قضيتها في حماك
شيخوختي بعيداً عنك
ما هي إلاَّ رَجعُ صداك
يا مَربعَ العز لاتحزن
إبنكَ الضَّالُّ لن يعود
ولا بعدها سوف يراك

بعودتي تنمحي ذاكرتي
وفيها سأكره ما كنت إحبه
فلا الناس هي كما كانت
ولا حتى من أنت تحبه
الوفى صار وهماً
ومن القلوب طارت المحبة
فمن كان بالأمس صديقاً
إذا إلتقيت به، يلقاك مُؤهِلاً
ويستودعك...؟

معجزات.. آه لو تتكررت
رجعة يوسف إلى يعقوب
والشفاء بعد الضنى لأيوب
وعودتي إلى الربوع

في حقول الميرزا قرب بيتنا
تفتحت أزرار الورد البري
وتدلت أغصان الزينون
بحبوب الأخضر الدّري
وأنا قابعٌ في باريس
منتظرٌ يومي القدري

لا تسلني أسعيدٌ أنا
نعمْ
لأن نبطيتي لبست ثوب تنكري

أين أنا من يوسف

شَدَّتْ يدي ودنتْ فلامَستْ
شفتاي بمبسمٍ وردي
و عانقتني مُقبِّلةً عُنقِي
فضممُتها بحنينٍ وجْدِي
هممتُ بها وهَّمتَ بي قائلةً
هِيت لك تحققً وعدي
فررتُ محاولاً بُعدي
فامتدت يداها من دُبُرٍ
إلى قميصي فقلتُ لها قُدّي
وللخلف مني لفتةٌ على خَدٍ
تَبلّلَ بحبيباتٍ من البَردِ
عَضّتْ العنابَ حاسرةً
أجبتها كان ألودُّ وُدّي
فجاوبتني والدمعُ منهمرٌ
ألا تخشى التحدّي
تَقْهرُ محروماً وتَنْهرُ
سائلاً وأسيراً تُردِي؟

عذراً أم كلثوم

قلتُ لها أُحبُكِ قالتْ!
أوّاهِ مِنكَ يا خَجلي
لو عَرِفَ بها الجيران
و تنامى السمعُ لأهلي
لا أطلب منك عذراً
لما سَبَّبتَ من كلل
بلْ داهَمتني رعشة
واتسعَ الأفقُ يا أملي
وتدّفق الحبُ بقلبي
فغفوت سهواً بلا مللِ
نمت على وعدٍ منْك
بما قلتَ ولم أقلِ
حُبُّكَ بالقلبِ محفور
يا قرّة العين من أزلِ
"أدنُ مني وخذ حناني"
لمهر العهد بالقبل

قال السمير وقالت

أصبحتُ طبيباً
للجراحِ مُبلسِما
هل من يداويني
إني شَرِبتُهُ عَلقما
طفلٌ ترعرتُ في
دارِ عزٍ مُكرًما
روحي أحبَّت من صغر
وكان حباً محرما
كبِرْتُ على حُبِ
الأخوةِ، لم أكُ مجرما
إن أغمضت عينيها
صار النهارُ عندي مُظلِما
بسمةٌ من ثغْرِها
لي كانت ملهما
شَعرُها ليلٌ تَدلى
من قال إن الليل اعتما
وانظُر إلى مَحارِ العينْ
لا شيء فيه مُبهما
شاءت الأقدارُ بُعداً
غَدرَ الزمانُ فكانِ المُجرمَا
أشقيقَ الروحِ حظُّك
كان لحظي مُلزِمَا
بالبعدِ كنت وفية
أنّى ذهبتَ وكيفما
قلبي لحُبك مخلص
وأُخوتي صاغها حامي الحمى
أحببتكَ حب البتول
لذا سُمّيتُ مريما

حوراء

دعِيتُ إلى حفلٍ
فكان الداعي عليٍّ جَانِ
تَبصَّرتُ في كُل الحضورِ
مُتَبسّماً، إلاّ إليها ما كفاني
في جادة "ولْسُن" وُجِدَتْ
فقالتِ الجنة قد غَيّرتُ مكاني
سبحانكُ ربي في عُلاكَ
أمن أنسٍ خلقتها أم من جانِ؟
يانعةٌ هي تدلتْ قُطُوفُها
عُمرُها ما زال فوقَ العَشرِ بثمانِ
مَشقَةُ قَدِّها وحَديثُها
بهما قد جُنَّ جَنانِي
عيني إليها قد نظرت
وصوتها أشجاني
من حور عين قد وُهِبت
كرماً وفيها الكحل رباني
يا رّفةَ الطَّرفِ إن فَعَلَتْ
كم تمنيتُ أن تكوني سَجّانِي
أنا الطليقُ ولا أُطيق حبساً
وعنانني من صدّكِ ما عناني
شيمةُ الغدرِ بمثلكِ ما وُجدتْ
رحماكِ بقلبٍ متيمٍ فَانِ
إن كان عنَدكِ خنجر
في صدري أغمديه لاتتواني
فمنكِ لا أريد تقرباً
والجرح في القلب لا ينساني
إن مُتذُّ، لستُ أول شهيدٍ
بل سأكون شَهيدَكِ الثاني
أمّ عِيسى حباكِ الله مكرمةً
ولم يجعلْ لكِ في الخلقِ ثَانِ



(صورة للنبطية في عام 1952م ويظهر فيها جبل الرويس)